

الذكرى المئوية لمعركة أنوال الخالدة



أبحاث منتقاة من أعمال المؤتمر الدولي
لإحياء الذكرى الذهبية لمعركة أنوال الخالدة

إعداد وتقديم :

د. البشير أبرزاق د. عبد الباسط المستعين

جميع الحقوق محفوظة © للناشر:



مركز فاطمة الفهرية
للأبحاث والدراسات

مركز فاطمة الفهرية للأبحاث والدراسات - مفاد -

mafadcenter@gmail.com

www.mafad.islamanar.com

جميع حقوق الملكية الأدبية والفنية محفوظة
يمنع طبع أو تصوير أو ترجمة أو إعادة تنضيد الكتاب
كاملاً أو مجزأً أو تسجيله على أشرطة كاسيت أو إدخاله
على الكمبيوتر أو برمجته على أسطوانات ضوئية أو نشره
رقمياً على الأنترنت إلا بموافقة الناشر خطياً.

الذكرى المئوية لمعركة أنوال الخالدة

إعداد وتقديم:

الدكتور البشير أبرزاق

الدكتور عبد الباسط المستعين

الناشر:

مركز فاطمة الفهرية للأبحاث والدراسات (مفاد)

ردمك:

ISBN : 978-9920-576-27-7

الطبعة الأولى: 1444هـ / 2023م

التدقيق والإخراج الفني:

www.islamanar.com

الأفكار الواردة في هذا الكتاب تعبر عن
رأي أصحابها ولا تعكس موقف المركز
كما يتحمل الكاتب وحده مسؤولية أي
خرق لحقوق الملكية الفكرية للغير.

سلسلة ندوات ومؤتمرات: 6

الذكرى المئوية لمعركة أنوال الخالدة

أبحاث منتقاة من أعمال المؤتمر الدولي لإحياء

الذكرى الذهبية لمعركة أنوال الخالدة

الذي نظمه مركز فاطمة الفهرية للأبحاث

والدراسات (مفاد)

يوم 29 يوليوز 2021

منسق المؤتمر:

الدكتور عبد الباسط المستعين

رئيس اللجنة التنظيمية:

الدكتور يونس المرابط

رئيس اللجنة العلمية:

الدكتور البشير أبرزاق

لجان المؤتمر

- د. سعيد بنتاجر (جامعة الحسن الثاني-الدار البيضاء-
المغرب).

- د. عبد الباسط المستعين (جامعة محمد الأول-وجدة-
المغرب).

- د. عبد العزيز القاسح (جامعة عبد الملك السعدي-
تطوان-المغرب).

- د. عبد العزيز ياسين (جامعة ابن زهر-أكادير-المغرب).

- د. عبد الله الحاجي (المركز الجهوي لمهن التربية والتكوين-
إنزكان-المغرب).

- د. محمد أحميان (جامعة محمد الأول-وجدة-المغرب).

- د. مصطفى أخليف (جامعة محمد الأول-وجدة-المغرب).

- د. مصطفى أزيحاح (جامعة ابن طفيل-القنيطرة-
المغرب).

- د. مصطفى الغاشي (جامعة عبد الملك السعدي-
تطوان-المغرب).

- د. المهدي الغالي (جامعة ابن زهر-أكادير-المغرب).

- د. ميمون أزيزا (جامعة مولاي إسماعيل-فاس-المغرب).

أعضاء اللجنة التنظيمية والإعلامية للمؤتمر:

- د. منير مشكور-د. رشيد عموري-د. مولاي المصطفى

صوصي-د. عبد اللطيف العادي-د. صوفية علوي

مدغري-الأستاذة رجاء الرحيوي-الأستاذ نور الدين بالخير

أعضاء اللجنة العلمية للمؤتمر:

- د. أحمد الشايخي (جامعة ابن زهر-أكادير-المغرب).

- د. أحمد فقيري (جامعة عبد الملك السعدي-تطوان-
المغرب).

- د. البشير أبرزاق (جامعة ابن زهر-أكادير-المغرب).

- د. بغداد بوحسون (جامعة محمد الأول-وجدة-المغرب).

- د. سويلام بوغدا (جامعة ابن زهر-أكادير-المغرب)

- د. خالد الرامي (جامعة عبد الملك السعدي-تطوان-
المغرب).

- د. رشيد كهوس (جامعة عبد الملك السعدي-تطوان-
المغرب).

- د. الزبير درغازي (جامعة عبد الملك السعدي-تطوان-
المغرب).

برنامج المؤتمر

برنامج المؤتمر الدولي لإحياء الذكرى الذهبية لمعركة أنوال الخالدة 29 يوليوز 2021م

الجلسة الافتتاحية: 10:00 - 10:30

- المسير(ة): ذ. البشير أبرزاق

- كلمة مركز فاطمة الفهرية للأبحاث والدراسات.

- كلمة منسق المؤتمر.

- كلمة اللجنة العلمية.

- كلمة اللجنة المنظمة.

الجلسة العلمية الأولى: 10:35 - 11:20 : المقاومة الريفية: النشأة والامتداد والسمات

- المسير(ة): ذ. عبد الرحمان منظور

- المقرر(ة): الطالب الباحث عماد موسي

- ذ: زرارقة علي /جامعة ابن خلدون – تيارت- الجزائر: المجاهد محمد بن عبد الكريم الخطابي والمقاومة الريفية(1921م-1926م) في مرآة الصحافة العربية والإسلامية «مجلة المنار القاهرية أنموذجا».

- ذ: محمد العزوزي/ كلية الآداب والعلوم الإنسانية سايس فاس- المغرب: موقف الفرنسيين من انهزام الإسبان في معركة أنوال 1921: جذور الموقف وتجلياته.

- ذ: عنان عامر/ جامعة ابن خلدون – تيارت – الجزائر: التعاون الفرنسي – الاسباني لمواجهة عبد الكريم الخطابي من خلال وثائق الخارجية الفرنسية 1924-1925.

نقاش

الجلسة الثانية: 11:25 - 12:25: معركة أنوال: الدلالات والأبعاد والعبير

- المسير(ة): ذ. احمد الشايخي

- المقرر(ة): الطالب الباحث حمان أنيس

- ذ: زكرياء الشعرة/ باحث في التاريخ – تطوان- المغرب: المقاومة الريفية للاحتلال الاسباني ودلالاتها التاريخية في سياق تطور علاقة الريف بالمخزن.

- ذ: عبد الله كموني/ كلية العلوم القانونية والسياسية- جامعة الحسن الأول سطات- المغرب: محمد بن عبد الكريم الخطابي وحقوق الانسان -جلاء الأجنبي أساس الحرية-.

- ذة: أسماء غيلان/ باحثة في التاريخ- العرائش- المغرب: البعد الأخلاقي لشخصية زعيم المقاومة الريفية من خلال شهادات رجالها

- ذ: ياسين جواد/ جامعة سيدي محمد بن عبد الله فاس- المغرب: معركة «تبرانت» أنوال الجديدة (27 مارس 1927): سؤال حول حدود استفادة إسبانيا من تجارها العسكرية في الريف.

- نقاش

الجلسة العلمية الثالثة: 15:00 - 15:45 : معركة أنوال: النتائج والانعكاسات الداخلية والخارجية

- المسير(ة): ذ. المهدي الغالي

- المقررة(ة): الطالب الباحث نصر الدين خلاد

- ذ: أحمد الشايخي/ كلية الآداب والعلوم الإنسانية جامعة ابن زهر أكادير/المغرب: عبد الكريم الخطابي والأسرى الإسبان.

- ذ: الصافي عبد الرزاق/ باحث بسلك الدكتوراه جامعة محمد الخامس كلية علوم التربية الرباط- المغرب: تأثير فكر وحركة محمد بن عبد الكريم الخطابي على المستوى الدولي.

- ذ: محمد زروقي /جامعة أبو بكر بلقايد تلمسان – الجزائر: موقف وصدى معركة أنوال الخالدة في الجزائر من خلال جريدة المنتقد الجزائرية.

- نقاش

الجلسة العلمية الرابعة: 16:00 - 16:45 : معركة أنوال: مقاربات متعددة

- المسير: ذ. عنان عامر

- المقرر: الطالب الباحث نور الدين أحميان

- ذة: بديدة لفضايلي/كلية الآداب جامعة ابن طفيل القنيطرة- المغرب: معركة أنوال بين التوثيق التاريخي والتخييل الأدبي.

- ذ: هشام مرزوق/ باحث- المغرب: معركة أنوال في التاريخ المدرسي: ملاحظات ومقاربات منهجية.

- ذ: إلياس الهاني/جامعة محمد الأول وجدة- المغرب: الانكسار الحضاري وسؤال الإصلاح عند محمد بن عبد الكريم الخطابي من خلال مقدمته لأشرف الأماني.

- نقاش

الجلسة الختامية

المحتويات

40

البعد الأخلاقي لشخصية زعيم
المقاومة الريفية من خلال
شهادات رجالها
ذة. أسماء غيلان

63

موقف الفرنسيين من انهزام
الإسبان في معركة أنوال 1921:
جذور الموقف وبعض تجلياته
ذ. محمد العزوزي

80

معركة أنوال بين التوثيق التاريخي
والتخييل الأدبي
ذة. بديعة لفضايلي

9

تقديم

11

التعاون الفرنسي - الإسباني
لمواجهة محمد بن عبد الكريم
الخطابي من خلال وثائق
الخارجية الفرنسية 1924-1925
د. عنان عامر

26

محمد بن عبد الكريم الخطابي
وحقوق الإنسان - جلاء الأجنبي
أساس الحرية -
ذ. عبد الله كموني

120

المجاهد محمد بن عبد
الكريم الخطابي والمقاومة
الريفية (1926-1921م) في مرآة
الصحافة العربية والإسلامية «مجلة
المنار القاهرية أنموذجا»
ذ. زارقة علي

93

المقاومة الريفية في التاريخ
المدرسي ملاحظات ومقاربات
منهجية
ذ. هشام مرزوق

106

الانكسار الحضاري وسؤال
الإصلاح عند محمد بن عبد
الكريم الخطابي من خلال مقدمته
لكتاب «أشرف الأمانى بترجمة
الشيخ سيدي محمد الكتاني»
ذ. إلياس الهاني

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تقديم:

لا شك أن انتصار المقاومة الريفية في معركة أنوال التي اندلعت أطوارها في شهر يوليوز 1921م، تتخطى في رمزيتها البعد المحلي والوطني لتكتسي طابعا يتعالى عن الزمان والمكان، وينغرس إشعاعها في وجدان الذاكرة الجماعية للمغاربة، وترتسم معالم لوحتها في وجه كل الأجيال، وتتجدد في ملامحها جملة من المبادئ والقيم، ومنها أن سطوة المستعمر مهما بلغ شأنها، وصوله الغازي والمحتل مهما تدججت بالإمكانات المادية والوسائل والعُد العسكرية، ومهما تعززت بالتفوق العددي؛ فإنها لن توهن من عزم الرجال، ولن تنال من قوة الإيمان، وأن عدالة مطالب الشعوب تصنع المعجزات، وبوسعها التصدي لأعتى الجيوش، والحد من جموح الآلة الاستعمارية المنتشية بتفوقها العسكري والتقني والعددي. كل ذلك بفضل إرادات فولادية، لم تثنيها المثبطات، ولم تفل عضدها التحديات والصعاب لقلة العدد والعدة والعتاد؛ بل تسلحت بعزائم مشحونة بحب البلد والرغبة في افتدائه بالنفيس والغالي، وهمم تناطح الثؤيا في السمو للمعالي.

فلا غرو إذن أن تصبح المقاومة الريفية نبراسا لحركات التحرير في كل بقاع الأرض، تستلهم منها جذوة التحدي والإقدام، وشيمة العزة والاقترام، وتنسج على منوالها في تسطير البطولات والملاحم، ونفض غبار الانكسارات والهزائم.

إن موضوع معركة أنوال وحركة ابن عبد الكريم، يسائل فعلا تاريخيا راهنيا في وجدان الريفيين والمغاربة وذاكرتهم، كما يفتح الباب أمام مغرب اليوم بتحدياته وتموجاته لاستخلاص العديد من الدروس والعبر في الممانعة وتحصين الهوية الحضارية للمجتمع المغربي.

ولعل مما يجعل للوقوف عند هذا الحدث/ الذكرى معنى، تلك السمات التي تفردت بها حركة محمد بن عبد الكريم الخطابي والتي جعلتها تستحق وقفات للدراسة والتحليل، فإلى جانب كونها مرجعا للعديد من حركات التحرر في العالم، فقد زاوجت في منهجها بين العمل السياسي والكفاح المسلح المنظم، فصارت بذلك نموذجا مؤسسا في المقاومة، سواء في شكلها المسلح أو السياسي الدبلوماسي.

وأمام هذه الأهمية وهذا التميز يطرح التساؤل حول حظ حركة محمد بن عبد الكريم الخطابي ومعركة أنوال من البحث التاريخي.

والأكيد، رغم ما حصل من تراكم علمي وأكاديمي حول الموضوع، فقد ترسخ الوعي لدى جمهور الباحثين بأن هذه الحركة ما تزال في حاجة إلى دراسات علمية ليس في أبعادها التاريخية المحلية فحسب، وإنما كذلك في جوانبها الحضارية والعالمية.

من أجل ذلك، بادر مركز فاطمة الفهرية للأبحاث والدراسات (مفاد) إلى إحياء للذكرى المئوية لمعركة أنوال الخالدة، احتفاءً بأسد المقاومة المغربية في الريف وصانع أمجادها، المجاهد محمد بن عبد الكريم الخطابي، واستحضاراً للحاجة البحثية المشار إليها سابقاً، وذلك يوم 29 يوليوز 2021م.

وقد كانت محطة علمية مميزة شارك فيها ثلة من المهتمين والأكاديميين من داخل المغرب، وخارجه، وقد عملت اللجنة العلمية على انتقاء جملة من تلك المشاركات لتنظم ضمن صفحات هذا السجل الذي نأمل أن يكون مرجعاً للباحثين، ودارسي التاريخ المغربي الراهن عامة والمقاومة الريفية الباسلة خاصة.

والله من وراء القصد وهو يهدي إلى سواء السبيل.

16 جمادى الأولى 1443 هـ، الموافق 21 دجنبر 2021م

المنسقان:

الدكتور البشير أبرزاق

رئيس قسم البحث في التاريخ والتراث والحضارة
التابع لمركز فاطمة الفهرية للأبحاث والدراسات
(مفاد)

أستاذ التاريخ الحديث بجامعة محمد الأول - أستاذ التاريخ الحديث بجامعة ابن زهر - أكادير
المغرب

الدكتور عبد الباسط المستعين

مدير مركز فاطمة الفهرية للأبحاث
والدراسات (مفاد)

وجدة-المغرب

التعاون الفرنسي - الإسباني لمواجهة محمد بن عبد الكريم الخطابي من خلال وثائق الخارجية الفرنسية 1924-1925

د. عنان عامر

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية جامعة ابن خلدون - تيارت - الجزائر



مقدمة:

في الوقت الذي حاول فيه عبد الكريم الخطابي الحفاظ على علاقات ودية مع الفرنسيين، كان هؤلاء يحذوهم نفس الأمل في عدم الانجرار إلى مواجهة عسكرية ضد الريفين، تحت ضغط الافتقار للإمكانيات العسكرية والبشرية واللوجيستية مع بداية سنة 1924. غير أن تزايد شأن عبد الكريم بفعل تعاظم انتصاراته أضفى على تنامي حركته صفة الخطر والتهديد الجدي للتواجد الأوروبي في المغرب عامة والفرنسي بصفة خاصة، والتي بتضافر العوامل المحلية والخارجية قد تؤدي إلى ميلاد دولة إسلامية مستقلة في شمال المغرب وفق مطالب أنقرة وعموم الحركات الوطنية الإسلامية في شمال إفريقيا، وهذا حسب رأي المقيم العام الفرنسي الماريشال ليوطي في تقريره الذي رفعه إلى وزارة خارجية بلاده بتاريخ 11 جانفي 1924. وبغية مواجهة هذا الخطر أصبحت الحكومة الفرنسية تهئ الظروف العسكرية والدبلوماسية لهذه المواجهة الحتمية، وهو ما انبثق عنه ميلاد تحالف عسكري وسياسي فرنسي-إسباني لأول مرة في شمال المغرب لمواجهة ابن عبد الكريم. وفي هذا الإطار نحاول من خلال هذه الورقة العلمية تتبع مسار الأحداث الذي أدى إلى الصدام الفرنسي مع الريفين ونشاط السفارة الفرنسية في مدريد للتوصل إلى اتفاق مع الحكومة الإسبانية يوظف وينظم التعاون الفرنسي - الإسباني ضد ابن عبد الكريم الخطابي، من خلال أرشيف وزارة الخارجية الفرنسية.

1 - التعريف بالمادة الأرشيفية:

تركز هذه المقالة على مجموعة الوثائق الأرشيفية التابعة لوزارة الشؤون الخارجية الفرنسية والمدرجة ضمن رصيد مديرية السياسة والتجارة رقم 94. وتتمثل المجموعة الأولى في السلسلة M العلبة 10 الملف 1B الخاص بالسياسة المراكشية العامة 2 الريف¹، والملف الفرعي يتناول العمليات العسكرية والتي يمتد إطارها الزمني من شهر جانفي 1925 إلى أوت 1925. تتمثل وثائق هذه العلبة في مجموعة من التقارير والبرقيات والنشرات الدورية المرسله من المقيم العام الفرنسي في الرباط المارشال ليوطي Lyautey إلى رئاسة المجلس ووزيرى الحربية والخارجية، بالإضافة إلى بعض الخرائط التوضيحية وصورة جوية للجسر الذي أقامه المقاومون الريفيون على واد السرى، كتبت أغلب الوثائق بالآلة الراقنة ومؤشر عليها بالختم السري أو العاجل. أما المجموعة الثانية فهي تندرج ضمن رصيد مديرية السياسة والتجارة رقم 96 سلسلة M العلبة 10 الملف 10D/O الخاص بالسياسة المراكشية العامة والملف الفرعي الخاص بالوفاق الفرنسي الاسباني، وتغطي وثائقه الفترة الممتدة بين شهري أفريل 20 جوان 1925. تتوزع وثائق هذا الملف بين برقيات السفير الفرنسي في مدريد ومحاضر محادثات مبعوث الحكومة الفرنسية إلى مدريد لويس مالفى مع مختلف المسؤولين الإسبان بالإضافة إلى قصاصات لمقالات الصحافة الاسبانية ونص الاتفاق الفرانكو-إسباني لشهر يوليو 1925.

1 - يبدو أن استخدام مصطلح الريف للدلالة على جزء من شمال المغرب الأقصى يعود إلى القرن الرابع عشر الميلادي في عهد الدولة المرينية تبعاً للمخطوط الذي ألفه عبد الحق بن إسماعيل الباديبي والمعنون بـ «المقصد الشريف والمنزح اللطيف في التعريف بصالحاء الريف». حيث يعتبر كل المنطقة الواقعة غرب سبتة إلى غاية تلمسان داخله في نطاق الريف، وذكر ابن أبي زرع في «روض القرطاس» منطقة الريف في معرض حديثه عن غزوات ابن تاشفين من الريف إلى طنجة سنة 1080، أما ابن خلدون الذي كتب في القرن 15 فإنه عاد للخلط بين الريف وموطن قبيلة غمارة، وكتب أن غمارة تسكن جبال الريف المحاذية للمتوسط والذي تمتد بلاده على طول أكثر من 5 أيام انطلاقاً من غماسة عند شمال سهول المغرب إلى طنجة ويضم مدنه وكذلك النكور وبياديس وتطوان وسبتة والقصر الصغير، كما أن عرضه كذلك يمتد على طول 5 أيام انطلاقاً من البحر إلى غاية سهول قصر كتامة (القصر الكبير)، انظر:

Michaux Bellaire, **le Rif**, conférence faite au cour des affaires indigènes, direction des affaires indigènes et du service des renseignements, 1925, pp,5,6.

2- لمحة حول الصراع الريفى الإسبانى:

فى الفاتح من شهر يونيو 1921 بدأت المواجهة العسكرية بين المقاومين الريفين بقيادة محمد بن عبد الكرىم الخطابى¹ والجيش الإسبانى المتمركز فى «ابران»، حيث تم تحرير هذه المدينة على يد مجموعة من المقاومين الذين لا يزيد عددهم عن 300 مقاتل وقد مهد هذا الانتصار الطريق لمعارك وانتصارات مدوية سوف تعطى للمواجهة الريفية الإسبانية صدى يتجاوز حدود المجال الخليفى والإسبانى لىبلغ مجالاً إقليمياً (المغرب العربى) ودولياً، (البلاد العربية وأوروبا) ولعل من الآثار المباشرة لهذا الانتصار هو التحاق أبناء القبائل الريفية بالمقاتلين وكذلك التحاق الجنود المغاربة العاملين ضمن صفوف الجيش الإسبانى حيث بلغ تعداد المقاومين 3000 عنصر².

لقد كان التحرك الثانى للمقاومين الريفين حصار مركز «أغريبا» الذى يعد المفتاح للمركز الرئيسى لـ«أنوال» فى 17 يونيو لىسقط فى يد الثوار فى 20 من نفس الشهر، ويكون ذلك منعرجاً لانطلاق واحدة من أعنف المعارك فى تاريخ المواجهة بين المغاربة والإسبان، حيث التقى الطرفان يوم 21 يوليو 1921 فى معسكر أنوال وكانت القوات الإسبانية البالغ تعدادها 22000 جندي متحصنة به. وانجلى معركة أنوال على نتائج عسكرية وسياسية مهمة، فبينما كانت انتصارات الثوار كبيرة، كانت خسائر القوات الإسبانية فادحة، فقد قدرت التقارير الإسبانية الرسمية قتلى الجيش الإسبانى بـ 1900 قتيل و4300 جريح و570 أسير، فى حين قدرت خسائر المقاومين بـ 500 شهيد و600 جريح، الأمر الذى جعل الجنرال دماسو بيرنجر Damaso Berenguer يصرح عند وصوله لمليية يوم 24 يوليو 1921 بما نصه: «هذه أكبر

1 - (أجدير 1882- القاهرة 1963) من إحدى كبرى البيوتات الريفية وصاحبة الزعامة فى قبيلتها (بنى ورياغل) كان والده عبد الكرىم قاضياً شرعياً بمليية، تلقى تعليمه الأول على يد والده ثم انتقل إلى فاس حيث حصل منها على الإجازة فى العلوم الدينية وبعد الدراسة فى الثانوية الإسبانية فى مليية التحق بجامعة شلمنكا وتحصل منها على دبلوم الحقوق والأداب، لىشتغل مثل والده بالقضاء. بعد إعلان الحرب على الأسبان، أعلن فى 19 سبتمبر 1921 عن استقلال الريف تحت سلطة جمهورية دستورية، وبعد استسلامه فى ربيع 1926، نفته السلطات الفرنسية إلى جزيرة لاربيونين 1926-1947، وبعدها انتقل إلى القاهرة التى استقر بها إلى غاية وفاته 1963. اهتم خلالها بفكرة توحيد النضال الوطنى المغاربى فى إطار لجنة تحرير المغرب العربى. انظر: رشدي الصالح ملجس، سيرة محمد بن عبد الكرىم الخطابى ورئيس جمهوريتها، المطبعة السلفية ومكبتها، القاهرة 1343 هـ، ص-ص 25-61؛ ماريا روسا ذى مادارباكا، محمد بن عبد الكرىم الخطابى والكفاح من أجل الاستقلال، تر: محمد أونيا وآخرون، ط1، منشورات تفرغاز، 10، 621 صفحة.

2 - محمد بن عبد الكرىم الخطابى، صفحات من الجهاد والكفاح المغربى ضد الاستعمار 1912-1927، تج: محمد علي داهش، ط1، الدار العربية للموسوعات، لبنان، 2010، ص101.

كارثة عسكرية عرفتها إسبانيا في تاريخها». كما غنم الثوار معدات حربية جد مهمة نذكر منها: 100 مدفع ثقيل و200 مدفع صغير وقرابة 1000 رشاشة وما يزيد عن 30000 بندقية ومليون رصاصة وعدد كبير من السيارات والشاحنات¹.

وخلال مرحلة الصراع ضد الإسبان والممتدة من معركة أنوال إلى غاية عقد التحالف الفرنسي الإسباني في صيف 1925 مرت الحرب بعدة محطات تجددت فيها هزائم القوات الإسبانية على الأراضي الريفية واهتز استقرار الحكومة المركزية في مدريد، حيث قام الجنرال بريمو دي ريفيرا Primo de Rivera بانقلاب على الحكومة في سبتمبر 1923 ووعد بحل المسألة المغربية بسرعة. ومنذ شهر نوفمبر شرع في حشد القوات الاحتياطية في المدن الساحلية اليكانط والميريا، وعين الجنرال أيزبورو مفوضا ساميا جديدا للمغرب الإسباني. لكن مع مطلع شهر مارس 1924 ازداد ضغط المقاومين الريفيين على قطاع مليلية والموقع الأمامي في تيزي عزا، وفي نفس الوقت أنظمت كل القبائل الواقعة بين نهر تيطوان وعايشة ووادلو وقطع الطريق بين تطوان والشاون والتحقت قبائل جباله وغمارة وعلى رأسها القائد «أخريو» دفعة واحدة إلى صفوف عبد الكريم². أمام حالة الفشل العام الذي منيت به القوات الإسبانية لجأ بريمو دي ريفيرا إلى التفاوض سرا مع عبد الكريم بواسطة المليونير الباسكي هراسيو اشيبارياتا³. HoracioEchevarrita

3- المواجهة مع الفرنسيين:

في تقريره إلى وزير الشؤون الخارجية في 11 ديسمبر 1924 أكد المقيم العام الفرنسي في المغرب على جملة من الأفكار المعبرة على حالة القلق الذي كانت تعيشه الإقامة العامة الفرنسية حيال تطورات حرب الريف في منطقة الحماية الإسبانية وتنامي قوة الثوار واتساع

1 - نفسه، ص، 104. وميكل مرتين، الاستعمار الإسباني في المغرب 1860-1956. تر: عبد العزيز الودي، ط 1، منشورات التل، الرباط، المغرب، 1988، ص62.

2 - ميكل مرتين، المرجع السابق، ص ص76-77.

3 - لعبت هذه الشخصية دور الوساطة بين الإسبان وعبد الكريم في التوصل إلى اتفاق الطرفين في صيف 1923 بخصوص تسليم الأسرى وفي صيف 1924 نقل إلى عبد الكريم المقترح الإسباني الخاص بمعاهدة السلام مقابل منح الريفيين الاستقلال الذاتي للأقاليم التي يسيطرون عليها وخلال مرحلة المفاوضات الفرنسية الإسبانية أشارت بعض التقارير الفرنسية إلى وجود اتصالات سرية بين حكومة مدريد وعبد الكريم عن إشبارياتا، ولعل ذلك واحد من أسباب تأخر الحكومتين في التوصل إلى الاتفاق إلا مع نهاية شهر جويلية 1925.

نطاق شهرة القائد عبد الكريم وبالتالي ضرورة تبني موقف صارم من تلك التطورات¹، فقد جاء في التقرير ما نصه: «إن النتيجة المتوصل إليها من خلال جولتي في الجهة الشمالية ومن المعلومات المستقاة منذ شهر تجلني اعتقد أنه بإمكانني تقديم فكرة أولية عامة عن الوضعية. إن ازدياد شأن عبد الكريم الذي تعاضم جراء انتصاراته الأخيرة يشكل بالفعل تهديدا جديا تشتد خطورته بقدر ما أخذنا بعين الاعتبار الجانب المحلي لوحده ولم نستحضر خصوصا ما يضاف إليه من تدخل ودعم خارجيين بهدف خلق دولة إسلامية مستقلة في شمال المغرب، كما تتم المطالبة بذلك من طرف أنقرة ومجموع الحركات الوطنية الإسلامية في شمال إفريقيا بما في ذلك مصر. إن الواقع الحالي لا يدع مجالاً للشك بأن محيط عبد الكريم يحضر لمعارك ضدنا ستعقب تلك التي خاضها الريفيون ضد الإسبان، وهذا ما يستنتج من خلال استقراء المعلومات التي سأبعث بها بتفصيل أكبر. غير أن هذا الخطر ليس بالطبع وشيكا لأنه من غير المحتمل أن يتجسد في الواقع قبل شهر مارس أو أبريل وذلك بسبب انشغال عبد الكريم بمعاركه ضد الإسبان وكذا بفعل سوء الأحوال الجوية في هذه الفترة من السنة... في الوقت الراهن إننا في وضعية ضعف لذا من الضروري العمل قبل كل شيء على أن يفقد هذا الإحساس بضعفنا الأمر الذي قد يؤثر بشكل كبير على ترتيباته»².

وفي معرض حديثه عن جملة الإجراءات الوقائية الأولية التي يتوجب الالتزام بها أكد المارشال ليوطي على ضرورة تجنب الدخول إلى الريف معتبرا تلك المناطق بعش «للزنابير» ولا نجني منها إلا الخسارة، وفي الوقت الذي ألح فيه على تأجيل التدخل العسكري بشكل واسع فقد راهن في الطرف الحالي على ضرورة العمل على مستوى استغلال نقاط الضعف الموجودة على مستوى جبهة الثوار من تصدعات وانقسامات من خلال التدخل السياسي.

ولعل أبرز منطلقات هذا التوجه في سياسة اليوطي سيكون اللعب على نقطة القبائل المناوئة لسلطة عبد الكريم وفي هذا السياق يواصل تقريره بما نصه: «ولكي أكون أكثر دقة،

1 - يعود قرار احتلال شمال واد ورغة إلى حكومة بونكاري، حيث أرسل وزير حربته ماجينو أوامره للمارشال ليوطي في أوائل شهر ماي 1924 بضرورة التحرك لوضع اليد على هذه المنطقة المجاورة للحدود الافتراضية بين المغرب الفرنسي والمغرب الإسباني، انظر:

P. Semard, **la guerre du Rif**, librairie de l'humanité, Paris, 1926, p17 .

2- Ministère des affaires étrangères , Maroc 94, M10 , politique générale marocaine, dépêche n°360, Rabat, le 11/12/1924.

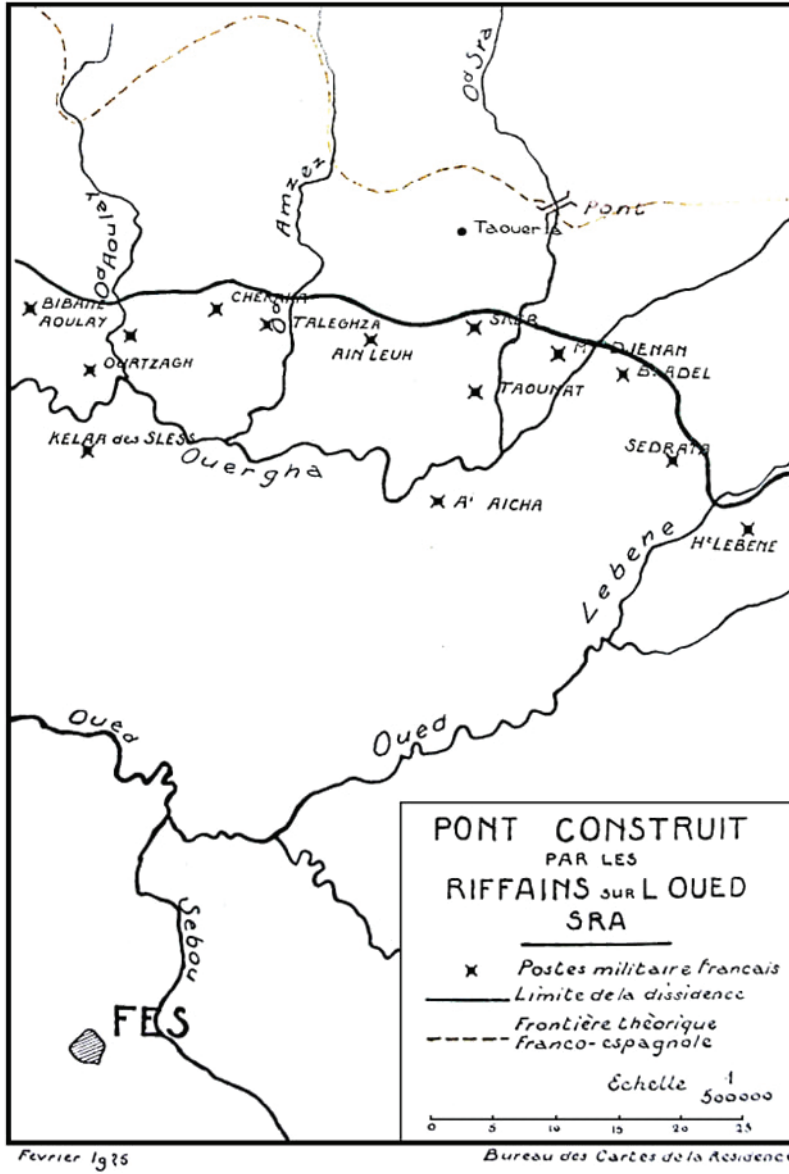
أذكر بالخصوص كونفدرالية بني زروال¹ التي تدخل كلها في منطقتنا والتي لم نقم لحد الآن إلا باحتلال الثلث الجنوبي الواقع شمال ورغة، في حين يؤيدنا منذ الآن أهالي الثلثين الباقين، وهذا الجزء الجنوبي الذي استولينا عليه لا يرغب في العيش تحت سيطرة عبد الكريم، يطلب فقط دعمنا حتى يتمكن من مقاومته ويتغلغل شرق أشاون كالإسفين ليفرق بين جباله والريفيين أي بين ميداني الحرب اللذين تنشط بهما قوات عبد الكريم، خصوصا لأن تأثير هذه القبيلة يشمل القبائل المتواجدة شمالا حيث أن مساندة منها لعبد الكريم يطبعها التقلب والتذبذب... غير أن التدخل السياسي ينبغي أن يستند بشكل واضح إلى القوة العسكرية»².

إن التدابير العسكرية التي تعتبر أحد أدوات العمل السياسي الذي كان ليوطي يسعى لتنفيذه على أرض الواقع كان يعترضها النقص وعدم الكفاية لذلك سوف لن يتوانى في الإلحاح على حكومته في طلب الإسراع بالتعزيزات العسكرية في الجهة الشمالية التي رسم خطها الدفاعي من خلال إنشاء عشرات المراكز العسكرية على طول المنطقة الفاصلة بين نطاق الحماية الإسبانية ومنطقة الحماية الفرنسية في منطقة ورغة. والخريطة التالية توضح توزيع هذه المراكز وحساسية الموقف بعد انجاز الثوار للجسر الذي يقطع واد «سرا» ويعطي أفضلية للريفيين بمباشرة العمل ضد القبائل المتمردة على سلطتهم³.

1 - اكتست منطقة بني زروال أهمية بالغة خلال مرحلة الحماية بصفة عامة وخلال ثورة الريف بصفة خاصة نظرا لموقعها الاستراتيجي ومؤهلاتها الاقتصادية، وكذا جوارها لمنطقة الريف ولمدينة فاس كذلك. ناهيك عن ربط الحماية الفرنسية لعلاقات تحالفية مع الشيخ عبد الرحمان الدرقاوي أحد أعيان هذه القبيلة منذ 1912. انظر: عمالة إقليم تاونات، المقاومة المسلحة والحركة الوطنية بإقليم تاونات 1912-1956، ندوة علمية 3-4 ماي 2001، المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، تاونات 2002، ص 49.

Ministère des affaires étrangères, Maroc 94, M10, politique générale marocaine, dépêche n°360, Rabat, le - 2 11/12/1924.

3- Ministère des affaires étrangères, Maroc 94, M10, politique générale marocaine, bulletin périodique N°36, Rabat, le 30 janvier 1925.



وردا على مراسلته ليوم 21 ديسمبر 1924 بخصوص التدابير العسكرية العاجلة لمواجهة تطورات الأوضاع على الجبهة الشمالية وافقت الحكومة في باريس على توجيه التعزيزات العسكرية الضرورية للمرحلة الأولى الخاصة بشهري فيفري ومارس والتي تمثلت في كتيبة من الفوج 23 للرماة الكولونيين وكتيبة من الفوج 19 للرماة الشمال إفريقيين

والكتيبة 175 للمدفعية الكولونيلية، كما قررت الحكومة سحب فوج المشاة الكولونيين من الراين وتوجيهه نحو المغرب لوضعه تحت تصرف المارشال ليوطي¹.

وقد وضعت الحكومة جدولاً زمنياً لإيفاد هذه التعزيزات إلى المغرب وكانت على النحو التالي: بالنسبة للقوات القادمة من أوروبا حدد يوم 20 فيفري 1925 تاريخ لركوبها من ميناء مرسيليا، وتم توجيه التعليمات لقيادة الفيلق التاسع عشر بالجزائر بتوجيه بعض التعزيزات إلى مدينة وجدة في حدود 15 فيفري 1925 وبالخصوص خبراء المتفجرات الخفيفة «les sapeurs mineurs» التابعين للفيلق 32 لسلاح الهندسة². وأضافت التعليمات أن هذه التعزيزات من سلاح الهندسة تشكل تعزيزاً مؤقتاً يتم إعادته إلى الجزائر حالما تم تقدير وجوده في مغرب غير ضروري وبخصوص التعزيزات اللوجيستية، فقد أشارت التعليمات إلى عتاد مدفعية الموقع «artillerie de position» أربعة عيار 105 وأربعة عيار 120 ل من طراز Bange وأربعة من عتاد الجسور الخفيفة طراز pigeaut.

وحددت التعليمات الوزارية تاريخ 15 فيفري أجالاً لوصول المعدات التقنية إلى مدينة القنيطرة ومع تعذر تلبية مطلب توفير فريق المختصين 45 العاملین بالجزائر ودعوة المارشال إلى تعويض ذلك ببعض العناصر من كتيبة الهندسة المرسلتين من الجزائر³، في حين تركت التعليمات الحكومية للمقيم العام تحديد تفاصيل التعزيزات الخاصة بشهر أفريل، مع دعوة هذا الأخير إلى إجراء دراسة مفصلة للوضعية المالية لميزانية المغرب بهدف رفع تعداد أفواج فرقة الزواوة (zouaves) العاملة في المغرب وذلك من خلال زيادة حجم الامتيازات الخاصة للمتطوعين والمتطوعين لفترة ثانية بغية الحفاظ لهذه القوة على بريق القوة المقاتلة⁴.

لقد حمل شهر جانفي 1925 بعض التطورات المهمة التي أوردتها النشرات الدورية للمارشال ليوطي لعل أبرزها سيطرة أنصار عبد الكريم على تازروت معقل الشريف الريسولي

1-Ministère des affaires étrangères, Maroc 94, M10, politique générale marocaine, lettre du ministre de guerre a Mr le maréchal de France, commissaire résident général commandant en chef les troupes d'occupation du Maroc, paris le 19 janvier 1925.

2- Ibid.

3-Ministère des affaires étrangères, Maroc 94, M10, politique générale marocaine, lettre du ministre de guerre a Mr le maréchal de France, commissaire résident général commandant en chef les troupes d'occupation du Maroc, paris le 19 janvier 1925.

4- Ibid.

ووضع اليد على أمواله وذخيرته التي زادت من حجم القوة لدى المقاتلين الريفيين. كما أكدت التقارير على صلابة العلاقات بين قيادات الثوار ممثلة في شقيق عبد الكريم «محمد» و«الفقيه بولحية»، من جانب الريفيين و«خريرو» و«احمد البقار» عن قبيلة جباله، أملا في تصدع هذا التحالف، ومن ناحية أخرى شددت التقارير على حجم الانجازات الميدانية لأنصار عبد الكريم في مجال التجهيز من ذلك مد شبكات الهاتف عبر مختلف الاتجاهات على غرار خط أجدير، مدهار، سيدي علي بوركبة، أكنول، حيث تم توصيلها بمنطقة تيزروتين على بعد 8 كلم من المركز الفرنسي الكيفان¹. إلى جانب هذا الخط تم تمديد الخط الثاني من أجدير باربر إلى غاية قلعة بن الوليد على بعد 8 كلم من المركز العسكري الفرنسي مولاي عين جنان، وكذا انجاز الملاجئ بصفة نشيطة شمال مركزي «سكر sker» و«استار astar».

إلى جانب هذه الأعمال استمر عبد الكريم في ممارسة ضغط سياسي قوي على الأجزاء التي لم تخضع لسيطرة الفرنسيين من قبيلة بني زروال ومطيوة M'tioua التي كانت تأمل في الحفاظ على حرية إدارة شؤونها وذلك من خلال اللعب على الحبلين (المخرن والريفيين)² وعلى رغم من حالة التمرد الذي قامت بها الأخماس التابعة للمنطقة الخليفة وإعدامها لممثلي الحكومة الريفية، إلا أن انتصارات الثوار على الريسوني وكذا الانتصارات المتتالية على الأسبان وحالة السخط العام الذي عم المغرب عامة بفعل قبيلة الجيش الاسباني لقبيلة «الانجيرة Andjera» باستعمال الغازات السامة³، حيث أشارت إفادة شاهد اسباني أن أزيد

1-Ministère des affaires étrangères, Maroc 94, M10, politique générale marocaine, bulletin périodique N°36, Rabat 30 janvier 1925.

2 -Ministère des affaires étrangères, Maroc 94, M10, politique générale marocaine, bulletin périodique N°21, Rabat 17 janvier 1925.

3 - تعود المساعي الاسبانية للحصول على السلاح الكيماوي إلى سنة 1918، إثر تقدم الملك الفونسو الثالث عشر شخصيا بطلب إلى السلطات العسكرية الألمانية لإمداد بلاده بالخبرة اللازمة لصناعة الأسلحة الكيماوية وفي سنة 1919 جددت الحكومة الاسبانية المحاولة مع الحكومة الفرنسية ولكن دون جدوى، وعلى الرقم من حصول إسبانيا على الخبرة اللازمة لتصنيع الأسلحة الكيماوية في سنة 1923 فقد أشارت جريدة la dépêche marocaine في نوفمبر 1921 إلى استعمال الطيران الحربي الاسباني لقنابل تحمل الغازات السامة، وذلك اثر المفاوضات السرية التي جرت بين الوزير الأول الاسباني انطونيو مورا والعالم الألماني هوغو ستولتزنبرغ Hugo Stoltzenberg والتي أثمرت بإنشاء مصنع la Maranosa للأسلحة الكيماوية في ضواحي العاصمة مدريد، على أن استعمال هذه الأسلحة قد ارتبط بصفة كبيرة بشخص الديكتاتور بريمودي ريفيرا، صاحب نظرية الانسحاب الجزئي، انظر: محمد ياسين الهبطي، مساهمة في دراسة تاريخ المقاومة المغربية للاستعمار الاسباني «مقاومة مدينة شفشاون نموذجا»، ط 1، دار أبي رقرق للطباعة والنشر، الرباط، دت، ص 117.

من 80 شخص بينهم نساء وأطفال فقدوا أبصارهم بالدوارين، لقد ساهمت في تعزيز تأثير عبد الكريم وتوسيع مجال نفوذه¹.

بينما ساد الهدوء نسبيا خلال شهر فيفري عادت حالة التوتر لتخيم على المشهد ففي رسالته المؤرخة في 17 مارس 1925 شدد المارشال ليوطي على ضرورة استكمال التعزيزات العسكرية لمواجهة تطورات الجبهة الشمالية خاصة بشهر افريل والمتمثلة في قوات من الفيلق التاسع 19 بالجزائر التي برمجت للعمل في المغرب لمدة 6 أشهر يستثنى منها الفوجان 5 و6 للرماة الجزائريين الملزمين بالدخول إلى الجزائر قبل تاريخ 15/09/1925. يضاف إلى هذه القوات فرقة الاحتلال لتونس² مع التأكيد على وضع هذه القوات في حالة السير يوم 14 افريل ما يسمح بدخولها إلى وجدة يوم 15 افريل.

في يوم 14 أفريل قامت القوات الريفية بغزو تراب قبيلة بني زروال انطلاقا من عدة محاور حيث كانت الحركة (المحلة) من الشمال الغربي لمنطقة أمجوط حيث تعرضت القرى المجاورة للحرق والنهب وفر أنصار بني زروال إلى المراكز العسكرية الفرنسية، كما سجل في هذا الهجوم إصابة شيخ فرقة بني قاسم بجروح بليغة نقل على إثرها إلى مستشفى فاس وفرار الشريف الدرقاوي إلى المركز العسكري تافرن³.

أما الهجوم الثاني فكان من جهة الشمال وقد تقدمت من البريغ إلى غاية قصبة أولاد غزار على بعد 7 كلم من خط المراكز الفرنسية، الحركة الريفية الثالثة فقد دفعت العناصر إلى غاية قلعة بني قاسم على بعد 4 كلم من خط المراكز الفرنسية مع تعزيز كل المراكز الريفية من تاورتا إلى شمال تازة⁴.

لقد كان الهجوم الريفي سريعا وخاطفا، حيث أنه بتاريخ 18 افريل تمكنت هذه القوات من السيطرة على قبيلة بني زروال ومع نهاية نفس الشهر كانت غالبية قبائل منطقة ورغة

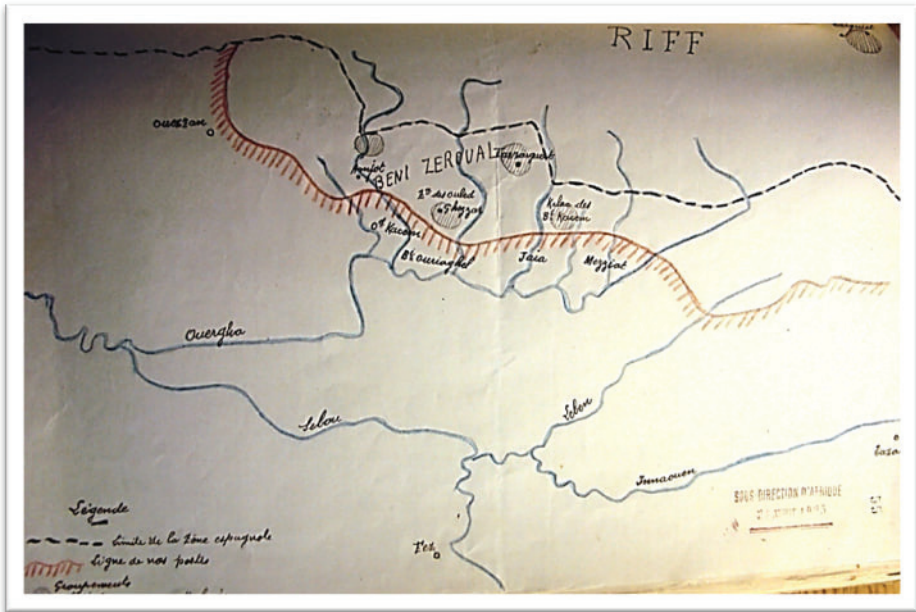
1- Ministère des affaires étrangères, Maroc 94, M10, politique générale marocaine, bulletin périodique N°21, Rabat 17 janvier 1925.

2- Ministère des affaires étrangères, Maroc 94, M10, politique générale marocaine, dépêche N°370, Rabat 17 mars 1925.

3- Ministère des affaires étrangères, Maroc 94, M10, politique générale marocaine, bulletin périodique suite a la périodiques N°150-153, Rabat 16 avril 1925.

4 -Ibid.

العليا، شرق تافرانت قد تمردت ضد السيطرة الفرنسية. فيما تمكن مبعوثو عبد الكريم من الوصول عند القبائل الكبرى المحاذية لشمال فاس، في ظل وصول الإمدادات الفرنسية إلى المنطقة تم تنظيم ثلاث مجموعات وزعت على طرق العبور الكبرى، تمكنت من وقف حالات التسلسل للقوات الريفية الأمر الذي جعل ميدان المواجهة ينحصر منذ بداية شهر ماي عند ضفتي نهر ورغة تحديدا عند محيط المراكز العسكرية الفرنسية التي بقيت محاصرة والخريطة الموالية تبين الوضعية الجديدة التي أصبح عليها الوضع في منطقة بني زروال¹



من جهته قام المارشال ليوطي باتفاق مع الجنرال دو شمبران de chambrun الذي كان يترأس ناحية فاس قائد الناحية الشمالية بتنظيم ثلاث مجموعات متنقلة موزعة على ثلاث نقاط عسكرية الغربية بقيادة الجنرال كولومبا colombat اسند إليه القوات التي كانت تحت إمرة العقيد نويس Ch, Nogues ومهمتها استعادة الوضع السابق في مرتفعات البيان المطل على واد ورغة، والوسطى بقيادة العقيد فرايدينبيرغ freydenberg مهمتها مواجهة أكبر تهديد محتمل على تيسال Tissal وفاس عبر فتحة لبنان Leben وكانت تتألف من ستة كتائب وسرب وخمسة بطريات، والمجموعة الشرقية تحت إمرة العقيد كامباي cambay مركزها تازة

1- Ministère des affaires étrangères, Maroc 94, M10, politique générale marocaine, bulletin périodique suite a la périodiques N°154-157, Rabat1925/04/ 17 .

مهمتها الدفاع عن المنطقة الواقعة شمال المدينة المذكورة مع تدخلات مركزة أساسا حول محيط الكيفا، وكانت تتألف من خمسة كتائب وسريتين وثلاث بطريات¹. وتم تركيز الجزء الأكبر من الطيران الحربي في فاس. بحلول 2 ماي كانت التعزيزات الفرنسية لمواجهة تقدم الريفيين في المنطقة المهتدة، تتكون من ثلاث مجموعات متحركة صلبة التحكم، وتظم 18 كتيبة bataillons، 5 سرايا escadrons و12 بطارية batteries².

4- الاتفاق الفرنسي - الإسباني 17 جوان 25 جويلية 1925 وانعكاساته على الثورة:

في خضم هذه المواجهة العسكرية بين الثوار الريفيين والقوات الفرنسية بدأ الحديث عن ضرورة التعاون الفرنسي - الإسباني في الريف منذ شهر افريل 1925 رغم تحفظ الطرفين وكان الاحتراز الفرنسي مبني على وجهة نظر ليوطي الذي اعتبر تدهور الوضع في المنطقة كنتيجة لسياسة الاستسلام المنتهجة من قبل بريمودي ريفيرا وأن أي اتفاق ممكن يتطلب العدول عن تلك السياسة. كما كان ليوطي يشكك فيما يتعلق بقدرات إسبانيا للمشاركة في تعاون فعال مع فرنسا³، غير أن موجة من المواقف الايجابية بدأت تظهر في الصحافة متجاوبة

1- Ministère des affaires étrangères, Maroc 94, M10, politique générale marocaine, télégramme N°190-192-193, Rabat 1925/04/ 29.

2 - Ministère des affaires étrangères, Maroc 94, M10, politique générale marocaine, télégramme N°193, Rabat 1925/04/ 29.

3 - لقد اتسمت السياسة الاستعمارية الإسبانية في المغرب بعدم الانسجام بين الإدارة الاستعمارية والحكومة المركزية مما اضطر الكثير من المفوضين السامين للاستقالة (ألفا، مارينا، برنكير) وحيال حالة الإخفاق العام الذي منيت به القوات الإسبانية في مواجهة التمرد المستمر في المنطقة الخليفية. كانت المتابعة الدقيقة للماريشال ليوطي لهذا الوضع تؤكد له يوما بعد آخر أن السبب الرئيسي في ذلك يعود إلى الاستخدام المفرط للقوة العسكرية وغياب الخطط السياسية، وتشير الدراسات والأبحاث التاريخية الحديثة إلى أن الفرنسيين قد وظفوا ثلاث أجهزة استخبارية للعب دور العين اليقظة تجاه المنطقة الإسبانية وتزويد الماريشال بتفاصيل الوضع واستخلاص النتائج، وقد تمثلت هذه الأجهزة في المكتب الثاني فرع الاستعلامات التابع لقيادة أركان الجيش التابع لوزارة الحربية والقيادة العليا للقوات بالمغرب، أما المصدر الثاني فكان يتمثل في مجهودات الملحق العسكري الفرنسي بمدريد، وتمثل المصدر الثالث في مديرية الشؤون السياسية والتجارية التابعة لوزارة الخارجية من خلال تقارير السفارة الفرنسية في مدريد. انظر: محمد صالح، المغرب وإسبانيا والبرتغال 1880-1996 فضاء جديد للحوار، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية الرباط، 1999، ص ص14-15؛

مع ما كان يشغل الأوساط السياسية والعسكرية¹. وفي شهر ماي انتقل النائب لويس مالفي Louis Malvy إلى مدريد حيث التقى كلا من الجنرال بريمودي ريفيرا والعاقل الإسباني الفونسو الثالث عشر وعلى الرغم من عدم التوصل إلى إبرام أي اتفاق بين الطرفين من خلال تلك اللقاءات إلا أنها لعبت دورا في تقريب وجهات النظر بين الطرفين حيث أبدى الجانب الإسباني أكثر استعدادا لفكرة التعاون مع الفرنسيين² وفي نفس الوقت تكثفت المباحثات بباريس بين الوزير بريان أريستيد Briand Aristide والسفير الإسباني في العاصمة الفرنسية كينيونيس ذي ليون Quinones de Léon وفي يوم 31 ماي قدم السفير الفرنسي إلى الأدميرال مغاز Magaz نسخة من المشروع المحور طبقا لتعليمات الوزير بريان وقد تضمن مجموعة من النقاط أهمها:

1- تشكيل لجنة مؤلفة من ممثلين عن البلدين مدعومين بخبراء عسكريين وبحريين يجتمعون في اقرب وقت لتحديد الظروف التي يمكن في إطارها توقيع الاتفاق الذي يحترم السيادة الاسمية للسلطان ويمنح السلم للقبائل الريفية.

2- الاتفاق بخصوص مراقبة التهريب برا وبحرا بين الجمهورية الفرنسية وإسبانيا مع تمديد المراقبة للأجانب المشبوهين على مستوى المنطقتين وإبعادهم.

3- في حالة التأكد من عدم وصول المحادثات مع الريفيين وإذا ما توفرت الظروف لتأليف عمل فرنسي- إسباني فان خطة العمل يمكن توقيها بسرعة وبصفة مشتركة من قبل مندوبين تقنيين من البلدين³.

وفي بدايات شهر جوان أعلن الأدميرال مغاز عن قرب عقد مؤتمر فرنسي إسباني بمديرية بهدف بحث سبل التعاون بين البلدين.

لقد انطلقت جلسات ذلك المؤتمر في 17 جوان تحت رئاسة الجنرال كوميث خوردانا وكان من المقرر في البداية أن يتأسس المؤتمر الوزير الفرنسي مالفي وأمام تعذر حضوره تم تعويضه

1-Ministère des affaires étrangères, Maroc96 , M10 , politique générale marocaine, entente franco- espagnole ,lettres de l'ambassadeur de France a Madrid a son ministre des affaires étrangères, Madrid le 4/4/ et le 8/05/1925.

2-Ministère des affaires étrangères, Maroc96 , M10 , politique générale marocaine, entente franco- espagnole ,télégrammes 189,364 , Madrid , mai 1925.

3-Ministère des affaires étrangères, Maroc96 , M10 , politique générale marocaine, entente franco- espagnole ,les négociation franco-espagnoles , Barcelone le 31/05/1925.

بالسفير الفرنسي في مدريد السيد بيرتي دي لاروكا (Peretti de la Rocca) وقد استغرق هذا المؤتمر 38 يوماً أي أنه انتهى يوم 25 جويلية، وقد قبل الوفد الإسباني حق المطاردة والتحليق فوق المنطقة المسندة لإسبانيا بموجب اتفاقية 1912، فيما تم تأجيل موضوع ترسيم وضبط الحدود إلى فترة لاحقة، حيث قرر الطرفان القبول بتسوية مؤقتة إلى حين التمكن عبر اتفاق مشترك من تحديد طريقة تقسيم القبائل الواقعة شمال ورغة.

أما البنود الأساسية للاتفاق فقد تمثلت في مراقبة وردع تهريب الأسلحة برا وبحرا والتعاون العسكري من خلال إقرار حق الملاحقة والتحليق وثالثا تبني سياسة تركز أساسا على التعهد بعد إبرام أي معاهدة سلام بشكل منفرد بل الالتزام بالعمل دائما بشكل مشترك في حالة مباشرة مفاوضات محتملة مع عبد الكريم. وفي 28 جويلية التقى المارشال بيتان بالجنرال بريمودي ريفيرا بمدينة تيطوان جدد اللقاء به في الجزيرة الخضراء يوم 21 أوت وقد توصل الطرفان إلى اتفاق شامل بخصوص العمليات العسكرية المشتركة¹ والذي تمثل بالأساس في تشديد الخناق على القوات الريفية من الجنوب والشمال في ظل استكمال الأسباب عملية إنزال قواتهم في خليج الحسيمة في 8 سبتمبر 1925، وبداية الهجوم على بني زروال في 11 سبتمبر وكذا الهجمات التطويقية ناحية «تازة» وفي شهر أكتوبر تم احتلال شمال البيان أي أبواب الريف ومحاولة دفع الأسبان للاتقاء القوتين عند مجرى واد «كرط» مع نهاية سنة 1925 تمكن بيتان من إقناع الحكومة الفرنسية بتغيير الجنرال «ستانيسلاس نولان Naulin» بالجنرال «ادموند بواشوت Boichut» وتمكن الفرنسيون خلال هذه المرحلة من تحقيق مكاسب سياسية على الأرض تتمثل في استمالة بعض القبائل المهمة على الأرض منها قبيلة مريسة بزعامة «عمر احميدو» موقع متميز. كما حققوا انتصارا دبلوماسيا مع مطلع عام 1926 بالاتفاق مع الإسبان على خطة شاملة تستهدف مركز «آيث ورياغر» يقوم بها الإسبان والفرنسيون معا ابتداء من تاريخ 15 افريل 1926 وتتمثل تفاصيلها بتكفل الأسبان بمنطقة رعيب، ميطار ومحور مشارف تيزي وسري والناضور من مهام الجيش الفرنسي ومن المجرى الأعلى لورغة كذلك من اختصاص الفرنسيين تمت الاتفاقات بين الطرفين في

1 - خلال هذه المرحلة سمحت الحكومة الفرنسية لبطل معركة فاردان بتعبئة العديد من الوحدات منها الفرقة 128 المعسكرة في الراين وفي 30 جويلية تم توجيه الكتيبة الثانية للصباحية إلى المغرب ويوم 5 أوت تم توجيه 16 فيلق من المشاة الفرنسية إلى المغرب لتشكيل القوة البيضاء للاحتياط كما تم تعزيز هذه القوات ببطارتين للجبال وسرب من المقنبلات الكبرى - Golli- ath وفيلق من خبراء المتفجرات وعلى العموم فقد بلغ مجموع ما تم تعبئته خلال هذه الفترة 150000 رجل. انظر: Mbark

17 مارس 1926 (مدير، وزان) - تجاوز معارضة مجموعة فاس ومعارضة المقيم العام ستيج Steeg - مؤتمر وجدة خلال شهر افريل¹، بعد 48 ساعة من احتلال الفرنسيين لجبل الحمام وترجيست استسلم عبد الكريم دون شروط في 27 ماي 1926.

الخاتمة:

بعد مرور أربع سنوات من المواجهة العسكرية الدامية بين الثوار الريفيين وقوات الاحتلال الإسباني التي تلقت أقصى الهزائم، تحركت سلطة الحماية الفرنسية وعلى رأسها المارشال ليوطي عسكريا ودبلوماسيا لقطع الطريق أمام عبد الكريم من استكمال مشروعه الثوري والكفيل بأن يتحول إلى مشروع تحرري شامل لمنطقة شمال إفريقيا، كللت المساعي الدبلوماسية الفرنسية بتوقيع اتفاق جويلية 1925 الذي حدد أرضية العمل العسكري والسياسي الفرنسي الإسباني حيال الثورة الريفية، ومهد الطريق لجماعة باريس الضاغطة من دفع الأمور باتجاه إبعاد ليوطي وخياراته العسكرية الجزئية لصالح المارشال بيتان المؤمن بفكرة القضاء الجذري على خطر التمرد الريفي بالدخول إلى عاصمة الثورة «أجدير». ومن ناحية أخرى تكتسي الوثائق الأرشيفية لرصيد مديرية السياسة والتجارة أهمية بالغة في تغطية أحداث ثورة الريف سياسيا، عسكريا.

1 - امتدت هذه المحادثات من 15 افريل إلى 7 ماي بين الوفد الفرنسي، الإسباني والريفي وكانت البداية في camp berteaux ثم وجدة، حيث رفض ممثلو الوفد الريفي الشروط المهينة المفروضة من قبل الوفدين الفرنسي والإسباني ولاسيما فيما يخص قضية استسلام عبد الكريم وإبعاده وخضوع ونزع سلاح القبائل الثائرة، بالمقابل سمح هذا الرفض للمارشال بيتان من تجاوز معارضة المقيم العام ستيج لتوجهاته والحصول مع باريس على الضوء الأخضر لتنفيذ خطته العسكرية كاملة بخصوص الريف، انظر:

محمد بن عبد الكريم الخطابي وحقوق الإنسان - جلاء الأجنبي أساس الحرية -

ذ. عبد الله كموني

كلية العلوم القانونية والسياسية سطات/ المغرب



مقدمة:

منذ صدور الإعلان العالمي لحقوق الإنسان يوم 10 دجنبر 1948 أخذت قضية حقوق الإنسان حيزاً فكرياً كبيراً، لدى الأوساط الأكاديمية، والأدبيات السياسية، لأغلب الأحزاب والمنظمات الأهلية. وتزايد الاهتمام بحقوق الإنسان، حتى أصبحت اليوم جزءاً أساسياً في دساتير أغلب الدول، وأمسّت أحاديث في المحافل الدولية، كما حظي الموضوع كله باهتمام واسع عند المفكرين، والحقوقيين، والفاعلين في مجال الحريات، قصد إثرائه، وتوضيح كل ما يتعلق بالآليات والضمانات التي وضعت خصيصاً في مجال حقوق الإنسان. ويُعدُّ السَّلامُ والعدلُ أهمَّ ركائزها وانشغالاتها. كما اشتدَّ الإلحاحُ على الاهتمام البالغ بها على مستوى الساحة الدولية.

حقوق الإنسان والحروب التحريرية:

إنه لمن الضروري عند الحديث عن حقوق الإنسان وآليات تفعيلها، أن نذكر الدورَ الكبيرَ الذي لعبته الحروبُ التحريريةُ في مواجهة الاستعمار، الذي يعد أحدَ وجوه الاستبداد ومصادرة حقوق الغير.

وإذا كان الاعترافُ بالكرامة المتأصلة في جميع أعضاء الأسرة البشرية، وبحقوقهم المتساوية الثابتة، هو أساس الحرية والعدل والسلام في العالم، وكان غايةً ما يرنو إليه عامة البشر انبثاقَ عالمٍ يتمتع فيه الفردُ بحرية القول والعقيدة، ويتحرر من الفزع والفاقة، كما

جاء في ديباجة الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، فإنَّ الحربَ الريفية، بزعامة محمد بن عبد الكريم الخطابي، حرصت على أن يكون أهمُّ أهدافها طردَ المستعمر، باعتبار أنَّ جلاءَ الأجنبيِّ أساسُ الحرية التي هي أسى حقوق الإنسان، ذلك أنه لا أحد ينكر أن الحرية أصل وقاعدة جميع الحقوق، فلا يستطيع أيُّ إنسان أن يمارسَ حقاً من حقوقه وهو فاقدٌ للحرية، فالحرية أساس الحقوق بكل الاعتبارات، سواء بين الأفراد بعضهم ببعض، أو بين الجماعات بعضها البعض.

وفي ظل التطورات التي شهدتها المجتمعات، انحرفت الحضارةُ بشكلٍ عامٍّ إلى ما يمكن أن نطلق عليه مساعٍ جشعةً من بعض الدول القوية لاستنزاف الثروات والخيرات، فقامت من أجل مناهضة هذا العدوان حركاتٌ اصطلاح عليها بالحركات التحررية، وتزعَّم هذه الحركات مفكرون ورواد وقادة عسكريون، وقفوا جميعهم لأجل دفعِ المُحتلِّين والمعتدين من البلاد المستعمرة.

حضورُ حقوق الإنسان عند محمد بن عبد الكريم الخطابي:

يمكن تسليطُ الضوء على أهمية الحرية -باعتبارها أسى حقوق النسان- في نظر الخطابي في قوله: «إن الحرية حق الحياة الكريمة فالله قد خلق الإنسان لعبادته وخلافته في الأرض، وعبادته وخلافته لله تعالى تقتضي أن يكون حراً في وطنه، سيدَ نفسه، وإلا عجز عن العبادة والخلافة، فالسكوت عن العمل للوطن أو التراخي في ذلك معناه الكفر بالله وتضييع حقوق الخلافة والرضا بالهوان من العيش والذل، في سبيل منافع شخصية أو شهوات بهيمية»¹، ونذكر أيضاً مقولة مشهورة للخطابي في سياق حديثه عن الحرية، حين قال: «لا أرى في هذا الوجود إلا الحرية وكل ما سواها باطل»²، و«إننا - يقول الخطابي - لا نريد إلا شيئاً واحداً وهو الحياة في الاستقلال التام، وإن لنا رغبة في أن نعيش عيشة هدوء

1- حسن محمد حسن البدوي، الأمير محمد عبد الكريم الخطابي حياته وكفاحه ضد الاستعمار 1947-1963، رسالة جامعية - مرقونة بجامعة القاهرة، 2005-2006. ملحق وثائق، (بيان الأمير الخطابي للجنة تحرير المغرب العربي، بدون تاريخ).
2- بنعلي المنصوري، فصول من حياة المجاهد عبد الكريم الخطابي، منشورات مؤسسة محمد بن عبد الكريم الخطابي، الطبعة الثانية، دار أبي رقرق للطباعة والنشر، الرباط، 2011، ص 169.

وطمأنينة، مع جميع الدول وأن تكون لنا علاقات طيبة مع الجميع، لأننا لانحب أن يموت أبناؤنا، ولكن إذا لزم الأمر فسنقاتل المستعمرين كلهم»¹.

وكيفما كان الحال فالخطابي هو الداعي إلى السلم والعيش في سلام وتآخ مع جميع دول العالم الحر. وهذا هو ما يعلنه في كل مرة سمحت له الظروف بمخاطبة الإسبان والفرنسيين من أجل الصلح. كما يقول: «فإننا قد أزحنا بذلك عن عواتقنا كل تبعة، ويعلم العالم أننا مستعدون للصلح وما نحن إلا طلاب حق ورواد سكينه فحسب، ولا علينا في أعدائنا أن يفسروا ذلك بما يلائم مبادئهم وأغراضهم السياسية»².

فالسلم الذي ينشده الخطابي، له ارتباط بالتعايش الإنساني، بل يعتقد أن السلم إذا استقر في الشمال الإفريقي فإنه سيكون له أثر فعال في البلاد التي تجاوره، ولو من الناحية الأدبية، حتى تنجلي هذه السحب المظلمة المتراكمة حول أوروبا. وبذلك يتبدد هذا التوتر الذي يهدد العالم بالدمار والخراب³.

وكما يجب على المسلمين احترام غيرهم، فكذلك يجب على أصحاب الديانات الأخرى احترام المسلمين في بلادهم، وعدم الاعتداء عليهم، والسعي في التعايش تحت سقف سلمي، وهذا لا يكون -حسب الخطابي- إلا: «إذا رجع المسؤولون في فرنسا عن غيهم وتابوا إلى الله وأرادوا الخير لأمتهم وندموا على الشر والإساءات الفاحشة التي قاموا بها نحونا ونحو كل المظلومين وغيروا سياستهم الظالمة وجلّوا عن بلادنا، فنحن مستعدون لنسيان كل شيء سبق.. لنعيش في سلام وهناء ومعاملة مستقرة كما يأمر الله لأن نعيش ونحيا مع كل إنسان لا يعتدي ولا يظلم»⁴.

فدعوة الخطابي كانت موجهة للمستعمر بالأساس، وكان يركز دوما على التعايش والاستثمار، بدل الاحتلال والاستعمار وغضب الخيرات.

1- أمزيان محمد، محمد بن عبد الكريم الخطابي آراء ومواقف، 1926-1963، منشورات صوت الديمقراطيين المغاربة، لاهاي هولندا، 2003، ص 304.

2- Mohammad Tahtah, Entre pragmatisme, Reformation et modernisme: Le rôle politico religieux des Khattabi dans le Rif (Maroc) jusqu'à 1926.

انظر ملحق وثائق، (رسالة الخطابي إلى السيد هاريس، بتاريخ 27 يناير 1926).

3- مجموعة وثائق حسن البدوي، مرجع سابق، (بيان الأمير الخطابي عن الوضع في شمال إفريقيا، بتاريخ 20 شتنبر 1961).

4- محمد أمزيان، آراء ومواقف، مرجع سابق، ص 304.

فالخطابي يقف موقفاً سَلْمِيّاً مع كل من ليس بمحارب، وهذا ما نلمسه بشكل واضح في الرسالة المؤرخة بتاريخ 2 غشت 1922 بأجدير، والموجهة إلى مدير جريدة الحرية الإسبانية «لويس دي تايسا Louis de Tisa»، يوضح فيها أن المقاومة الريفية موجهة ضد الإمبريالية التي تريد قهر واستعباد أهل الريف. أما الإسبان فهم مُرَحَّبٌ بهم كأصدقاء دون سلاح لخدمة المصالح المشتركة، من تجارة وفلاحة وصناعة¹. بل كان يقف مواقف إنسانية حتى مع بعض من له يد في الحكومة الإسبانية ليبدّل على موقفه من مبدأ التعايش؛ ولم يكتف الخطابي بتشخيص الواقع ومدى قابليته للتعايش بل كان يستغل كل مناسبة تدفع في هذا المسار، ولم يكن ليفوت لحظة تساعد على تحقيق ذلك².

لم يكتف الخطابي بالحديث عن التعايش الإنساني والتنظير له من خلال مقالاته، بل تُعدُّ مرحلة وُجودِه بمليلة المحتلة نموذجاً عملياً لذلك التنظير، حيث استطاع الخطابي بشخصيته المتشعبة بمبادئ القرويين أن يتعايش مع غير المسلمين، وكان حريصاً على أن يتجاوب معهم تعليماً وتجاراً بل وقضاء فيما بينهم، وهذا إن دلّ على شيء فهو يدل على أنّ الخطابي يدعو إلى التعايش السلمي قولاً وفعلاً، مادام هناك عدالة اجتماعية ونظام عادل يستمد روحه من تراثنا وحرية شاملة حتى نرى أين نضع أقدامنا في موكب الإنسان العاقل³.

وكثيراً ما كان يخاطب بعض الشخصيات، - باسم الإنسانية التي هي أحد منطلقات حقوق الإنسان - من خلال الرسائل الموجهة إليهم لإنهاء الحرب التي بينه وبين الإسبان، بصفتها العدو اللدود للإنسانية، لما يترتب عنها من المآسي التي يشترك فيها الغالب والمغلوب على السواء. كما حصل في رسالته للمستمر مكدونالد Mac Donald رئيس الوزارة البريطانية في شهر أبريل 1923م، عن طريق المسترورد بريس Waurd Perez الكاتب بجريدة الديلي ميل Daily Mill، وكان مما جاء فيها: «إنني أكتب إليكم باسم الإنسانية المعذبة أن تتوسط بيني وبين العدو المعتدي حتى تنتهي هذه الحرب المرعبة التي تفتك بنفوس بريئة»⁴.

1- الأرشيف العام العسكري بمديرية (Archivo General Militar de Madrid (AGMM)

توجد بهذا الأرشيف وثائق متعلقة بسنة 1926، وهذه الوثائق عبارة عن تقارير. مدونة في اثني عشر ملفاً باللغة الإسبانية.

2- الأرشيف العام العسكري بمديرية (Archivo General Militar de Madrid (AGMM)

توجد بهذا الأرشيف وثائق متعلقة بسنة 1926، وهذه الوثائق عبارة عن تقارير. مدونة في اثني عشر ملفاً باللغة الإسبانية.

3- محمد أمزيان، آراء ومواقف، مرجع سابق، صص 132-133.

4- رشدي ملحس الصالح، سيرة الأمير محمد بن عبد الكريم الخطابي بطل الريف ورئيس جمهوريتها، مكتبة السلفية

ولما رأى الأمير أن كتابه هذا لم يسفر عن نتيجة مرضية أرسل إليه الكتاب الثاني يقول فيه: «يعرض عليه باسم الإنسانية الاتصال بالدولة الإسبانية لسحب جنودها من المنطقة الريفية، وأنها إذا أبت، كما قال: «فإن السيف بيدنا، والنصر بيد الله يؤتبه من يشاء»¹.

وحيث إن استعمال السيف كان بمثابة الكي الذي هو آخر الدواء، فإن الخطابي راسل السنيور هريس Sénieur Harris، لما يعلم منه من تشبعه بالفكر الإنساني ومبادئه التي تعد قاعدة مهمة للأرضية المشتركة من أجل الحوار.

ولما كانت الإنسانية لا تعترف بالحدود، فإن الخطابي تنوعت مخابراته وفق هذا المنهج الأخير، حيث نراه تارة يخاطب أبناء شمال إفريقيا، وتارة أخرى أبناء إفريقيا كلها، بل قد يتعدى ذلك إلى مخاطبة كل من أبناء فرنسا وإسبانيا، ويخص بالضبط العقلاء منهم الذين تشبعوا بالفكر الإنساني ومبادئه، ولم يقتصر على ذلك بل طرّق كل سبيل يمكن أن يساهم في خدمة الإنسانية كعصبة الأمم مثلا. وتقريراً لما سبقها هو يوجه خطاباً للمجاهدين الساعين لتحرير بلدانهم يحثهم فيه باسم الكرامة الإنسانية وتحقيق الحرية، يقول فيه: «إليكم أيها المكافحون أوجه هذه الكلمة بمناسبة قيامكم للدفاع ضد الطغيان وصد جماعة الفرنسيين التي خرجت عن كل القوانين السماوية والأرضية، ودأبت على التمرد والخروج عن الحدود المفروضة على الإنسان في معاملة أخيه الإنسان وجعلت تتحدى وتستفز وتتحرش بكل الوسائل بعدما سلبتنا كل شيء وبعد ما تكرر اعتداء هذه الجماعة التي لا تعرف قيمة للكرامة الإنسانية ولذلك داست حرمة هذه البلاد وعذبتهم بكل ألوان العذاب»².

وها هو يخاطب أيضا شعوب العالم، مبينا أن بقاء فرنسا هو جناية على أهل إفريقيا بل والإنسانية جمعاء، حيث إنه كثيرا ما رددت فرنسا أن بقاءها محتلة في إفريقيا هو من مصلحة أوروبا والحلف الأطلسي، وليس من مصلحة فرنسا وحدها، لكن الواقع هو العكس، فإن بقاء فرنسا في إفريقيا وأعمالها الإجرامية هو ضرر وجناية على أوروبا بقدر ما هو جناية على أهل إفريقيا والإنسانية جمعاء³. ولذلك حث الخطابي أبناء فرنسا ورجالها الذين علم منهم

1- مرجع سابق، ص 44.

2- محمد أمزيان، آراء ومواقف، مرجع سابق، (رسالة إلى أبناء شمال إفريقيا، بتاريخ 10 نوفمبر 1954).

3- مجموعة وثائق حسن البدوي، مرجع سابق، (حديث الأمير الخطابي لراديو موسكو، بتاريخ 27 يناير 1960).

مخالفتهم للسياسة الفرنسية المتعارضة مع المبادئ الإنسانية وحقوقها على إسماع صوت الحق لأولئك الذين لا يفهمون الوجه الإنساني من حياة هذه الخليقة¹.

الحرية أولاً، الحرية أخيراً، عند محمد بن عبد الكريم الخطابي:

من خلال ما سبق يتضح لنا أن مبدأ الإنسانية ظل أحد الأسس الذي انبنى عليها الفكر الخطابي من غير تمييز بين عرب وعجم ومسلمين وغيرهم، فالكل بالنسبة إليه إخوان، بحكمة أن الإنسان أخ الإنسان أين ما كان، والمهم أن يكونوا أحراراً في فكرهم غير مقيدين بكل ما يمكن أن يخالف المبادئ الإنسانية وهذا أرقى صور حقوق الإنسان.

وقد تساءل الخطابي كيف يمكن ممارسة الحرية بأنواعها المختلفة في ظل وجود القوات الأجنبية بالتراب المغربي؟ وقضية الجلاء تهم كل مغربي وتدعوه إلى معرفة هذه الحقيقة المرة ليعمل الجميع من أجل تفاديها². وعلى هذا الأساس يهيب بأحرار الدنيا جميعاً، كل العرب والمسلمين أن يشدوا أزر المكافحين في سبيل الحرية والحق، ويسهلوا عليهم الطريق ليؤدوا زكاة الأخوة وزكاة الإنسانية المقدسة³. ويدخل في منهج الصراحة المعتادة عند الخطابي فيقول: «فنحن في أقطارنا الثلاثة نعتبر قضيتنا واحدة متحدين متساندين ولن يرضينا أي حل لا يحقق استقلالنا الناجز وسيادتنا التامة»⁴.

وما دأب عليه الخطابي في عدد من المناسبات هو النداء الدائم العام بأن لفضة الاستقلال بدون الجلاء لا معنى لها ولا فائدة منها، وأن الاستقلال المزعوم ليس سوى خدعة لبقاء النفوذ الأجنبي وسيطرته على البلاد بشتى الطرق والوسائل والأهداف⁵.

ولم يفتر الخطابي عن مناداة شعوب البلدان التي عاشت في ظروف مماثلة للنضال لتحصل على حريتها وتكتب لها النجاة. يقول مخاطباً إياها على مرأى ومسمع من أعلى هيئة

1- عبد العزيز خلوq التسماني، جوانب من تاريخ جباله المعاصر القائد أحمد الريسوني وإسبانيا، منشورات سيليكى أخوين، الطبعة الأولى، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1996. مجموعة وثائق، (رسالة من الأمير الخطابي إلى ريمون بونكري، بتاريخ 18 يونيو 1923).

2- مجموعة وثائق شخصية أطلعنا عليها صاحبها عبد السلام الغازي، (رسالة من الأمير الخطابي إلى حضرة الأخ مدير جريدة الرأي العام الغراء الأستاذ أحمد بن سودة، بتاريخ 28 أكتوبر 1960).

3- مجموعة وثائق حسن البدوي، مرجع سابق، (البيان التأسيسي لجبهة تحرير الجزائر، بتاريخ 05 يناير 1955)

4- المرجع نفسه، (بيان الأمير الخطابي إلى المغاربة، بتاريخ 1 ماي 1961).

5- مجموعة وثائق حسن البدوي، المرجع السابق، (بيان الأمير الخطابي عن الوضع في الكونغو، بتاريخ: 17 يوليو 1960).

دولية، وهي هيئة الأمم المتحدة: «فيا شعوب آسيا وإفريقيا هنا في الأرض لا في السماء... قوموا وجندوا أنفسكم لتحرروا بلادكم إذا أردتم السعادة والحرية والنجاة... واعملوا على إسداء النصيحة إلى إخوانكم من الشعوب الأخرى، عسى أن يهتدوا جميعاً إلى ما فيه خير الإنسانية في هذه الأرض لا في السماء»¹.

وحيث إن جميع الأعراف والمواثيق الدولية لا تقبل المزايدات في مثل هذه القضايا، وما يتنافى مع حقوق الإنسان، فإن الخطابى تقدم بطلبه للرئيس جمال عبد الناصر ليحيطه علماً أن الوضع الحاضر قد أصبح من الخطورة على الأمة العربية إلى درجة توجب عليه أن يطلب منها التدخل السريع، طبقاً لما يمليه واجب الأخوة العربية، ومواثيق القومية، والجامعة العربية، والإعلان العالمي لحقوق الإنسان، وقرارات مؤتمرات باندونج² وBandug والشعوب الآسيوية والإفريقية³، لأنه كما يقول: «نريد أن نعيش الحياة كما يريدنا الله وكما يريدنا الأحرار الأباة، وهذا لا يتحقق إلا في ظل حكم وطنى يستهدف تحقيق مصالح الشعب على اختلاف طبقاته في ظل المساواة والعدل»⁴.

فلا وجهة صحيحة ولا برامج مرسومة دون حرية كاملة بل يتوجب معرفة هذه الحقائق للسير في اتجاه سليم، وليس هناك اتجاه صحيح إلا طريق الحرية الكاملة والاستقلال الحقيقي، وفي النهاية ليس هناك حرية -باعتبارها اسمى وحقوق الإنسان- ما دام هناك جيش الاحتلال مرابطاً في نقط من البلاد⁵.

وقد كان طموح الخطابى الكبير أن يشهد العالم مستمتعا بأحقية في امتلاك الحرية، ويطالب باستقلال الوطن استقلالاً تعترف به الدول⁶. لذا فليس غريباً أن يكون يوم فاتح نونبر

1- مجموعة وثائق شخصية أطلعنا عليها صاحبها عبد السلام الغازي، (رسالة الأمير الخطابى إلى رئيس الجمعية العامة لهيئة الأمم المتحدة، بتاريخ 29 شتنبر 1949).

2- انظر: مجلة دعوة الحق، العدد: 135، ماي 1971م، عقد «مؤتمر باندونج» باندونيسيا في 18 أبريل 1955، والذي حضرته وفود 29 دولة أفريقية وآسيوية، واستمر لمدة ستة أيام، وكان النواة الأولى لنشأة حركة عدم الانحياز.

3- مجموعة وثائق حسن البدوي، مرجع سابق، (رسالة الأمير الخطابى إلى الرئيس جمال عبد الناصر، بتاريخ: 28 يناير 1959).

4- المرجع نفسه، (بيان الأمير الخطابى للجنة تحرير المغرب العربي، بدون تاريخ).

5- مجموعة وثائق شخصية أطلعنا عليها صاحبها عبد السلام الغازي، (رسالة من الأمير الخطابى إلى السيد عبد الرحيم بوعبيد، بتاريخ: 11 أكتوبر 1960).

6- رشدي الصالح ملحمس، مرجع سابق، ص 45.

نقطة تحول لاتجاه الشعوب الوجهة الصحيحة مبنية على الواقع والمنطق، وفي النهاية فإن انتصار الحرية في كل مكان هو انتصار مباشر بقرب الاستقلال¹.

إن قضية الجلاء نالت نصيباً كبيراً في خطابات الخطابي ومراسلاته ومقالاته. وليس هذا بغريب، فالأوضاع الراهنة آنذاك لم تكن لتقبل المساومة في مثل هذه القضية، فالمحتل الغاصب لا سبيل لإجلائه دون مقاومة، والمقاومة تتطلب تضحيات جسيمة، بالمقارنة مع ما يتطلبه الجلاء من تذليل العقبات².

إن الحرية بمعناها الصحيح – كما يؤكد الخطابي- هي المبادرة إلى إجلاء القوات الأجنبية، فطالما وجد جندي واحد فرنسي أو إسباني مسلح في البلاد فهذا يعني أن لا وجود للحرية والاستقلال أو شهيمهما. وعلى الشعب أن يعمل لتخليص البلاد من الاحتلال بإخراج آخر جندي ويستلم الشعب جميع الإدارات³، فالحرية حق والحق حرية، فهما وجهان لعملة واحدة. والنتيجة ألا حرية للمغرب إلا بالكفاح المسلح⁴. إذ أن الحرية تنتزع ولا تعطى، وتؤخذ ولا توهب⁵. فالاستقلال في نظر الخطابي يفرض على المستعمرين ولا يستجدي منهم، كما أن الاستقلال حق للشعب، وليس منحة يجود بها المستعمر⁶. وكل هذا يوجب العمل بكل القوى وبدون توان الإسراع بطرد المستعمر، ولزوم العمل السريع الجدي لجلاء جيوش الاحتلال وتطهير البلاد من كل مظاهر الوجود الفرنسي وكل معارض يتسبب في تأخير هذا المسعى تجب محاربتة⁷.

فالانتصار للحرية يجب أن يحل بكل مكان، ومقاومة الظلم والعدوان ينبغي أن يكون في كل أن⁸. ومن بين الأساليب التي آمن بها الخطابي لتحقيق تحرير الوطن من ربة المستعمر بأمرين اثنين: بالمفاوضات المثمرة كخطوة أولى، وبالمقاومة المسلحة في المقام الثاني والأخير.

- 1- المرجع نفسه، (بيان الأمير الخطابي إلى الجنود المغاربة في الهند الصينية، بتاريخ 04 أبريل 1949).
- 2- مجموعة وثائق شخصية أطلعنا عليها صاحبها عبد السلام الغازي، رسالة من الأمير الخطابي إلى حضرة الأخ مدير جريدة الرأي العام الغراء الأستاذ أحمد بن سودة، بتاريخ 28 أكتوبر 1960.
- 3- مجموعة وثائق حسن البدوي، مرجع سابق، (بيان أنصار جيش التحرير، دون تاريخ).
- 4- مجموعة وثائق محمد أمزيان، آراء ومواقف، مرجع سابق، (حول استقلال المغرب وجيش التحرير، 06 غشت 1956).
- 5- مجموعة وثائق حسن البدوي، المرجع السابق، (بيان الأمير الخطابي بخصوص الاستقلال الجماعي، 30 غشت 1960).
- 6- المرجع نفسه، (بيان الأمير الخطابي ردا على خطاب بورقيبة، بتاريخ 08 غشت 1958).
- 7- المرجع نفسه، (بيان الأمير الخطابي يعبر فيه عن مطالب الشعب المغربي العاجلة، بتاريخ 10 نونبر 1960).
- 8- المرجع نفسه، (بيان الأمير الخطابي إلى الجنود المغاربة في الهند الصينية بتاريخ 04 أبريل 1949).

ويستنكر الركون إلى المفاوضات العقيمة كالتي وقعت بالجارّة الجزائر فهي مما لا يقبله عاقل، مبينا أن المفاوضات على أساس فرض الشروط معناها القضاء نهائيا على المجاهدين، وعلى شل الحركة التحررية سواء في الجزائر، أو في شمال إفريقيا كلها، إن لم نقل في كل الشعوب التي تتطلع إلى الحرية والاستقلال¹. وإن العمل بالحزم والعزم هو وحده الذي يحل هذا النوع من المشاكل، والعمل الجدي في مفهوم كلامه هو البدء بوضع حد للظلم في الأمم والشعوب التي تنشد الحرية والاستقلال².

وهذه هي الأفكار التحررية التي أراد إبلاغها للفرنسيين، مهيدا مثلما صرح الخطابى به عام 1948 ضرورة التزام فرنسا بطريق الصداقة والتفاهم والمصالحة التي تقود إلى حلّ إيجابي بالاعتراف بالحرية والاستقلال. وفي حالة التنكر لهذا فإن الشعب المغربي لن يبخل بحياة أبنائه، وإنه لن يضيع أية لحظة تمر للعمل الحاسم والسريع³.

الاستقلال التام والسلام العادل مبدآن أساسيان عند محمد بن عبد الكريم الخطابي:

هذا ما كان يقول به الخطابى غير ما مرة. فالجلاء المقصود من طرفه لطرحه على مائدة المفاوضات هو الخروج الشامل للقوات الأجنبية المرابطة بشمال إفريقيا. وهذا مشكل لا ينبغي لوطيّ مخلص أن يتساهل في اتخاذه دون المبالاة بمقررات ديغول⁴، وأنه «مستعد لإرسال مندوبين للمفاوضة في شروط الصلح على أساس استقلال إمارة الريف استقلالا تاما وحفظ كرامتها كاملة حرة»⁵. ومثل هذا ما قاله في رسالته الموجهة إلى وزير الخارجية البريطانية معلما أن السيف هو الذي سيقدر في حل هذه القضية⁶.

عن هذا الخيار الأخير -ألا وهو المقاومة المسلحة- استطاع القول إن الدافع الأساسي من ورائه هو القضاء على تلاعب بعض المغرضين بالمصالح العامة للبلاد، وعلى تواطؤ بعض

1- مجموعة وثائق شخصية أطلعنا عليها صاحبها عبد السلام الغازي، (رسالة الأمير الخطابي إلى السيد مبارك البكاي بتاريخ 5 غشت 1960).

2- مجموعة وثائق حسن البدوي، مرجع سابق، (بيان الأمير الخطابي عن الوضع في شمال إفريقيا، بتاريخ 20 شتنبر 1961).

3- عبد الرحمان اليوسفي وآخرون، الخطابى وجمهورية الريف، ترجمة: صالح بشير، دار ابن رشد للطباعة والنشر، ط1، 1980، ص 407.

4- مجموعة وثائق سلام أمزيان، مرجع سابق، (مشكلة الجزائر هي مشكلة إفريقيا، بتاريخ 15 ماي 1960)

5- رشدي الصالح ملحس، مرجع سابق، ص 45.

6- فورنو روبرت، عبد الكريم أمير الريف، ترجمة: فؤاد أيوب، دار دمشق للطباعة والنشر، دمشق [د.ت]، ص 101.

أبناء الوطن مع العدو من أجل بقاء المحتل داخل البلد، فالجلاء الذي يطالب به الشعب اليوم بعد صحوه من غفوته لو اتخذ من أول مرة طريقة العمل لتحقيق هذا الجلاء قبل اليوم بزمان¹.

وقد حذر الخطابي من ذوي المصالح المتواطئين مع الأجنبي، لهذا يقول في رسالة إلى جميع أبناء شمال إفريقيا موصيا إياهم بالحدز الشديد ممن سماهم بشياطين الاستعمار مخافة أن يلقوا بينهم بالعداوة والبغضاء ثم يقتلوا بعضهم بيد البعض الآخر². وفي نداءه إلى لجنة تحرير المغرب العربي يقول: «إنكم تعلمون جميعا إن الوطن يمر اليوم بمرحلة من أخطر المراحل التي يمكن أن تمر بها أمة من الأمم، تريد أن تحيا حياة ترتاح في ظلالها الضمائر وتطمئن فيها القلوب»³.

ومعلوم أن هذا هو السبب الرئيسي الذي دفع الخطابي لرفض العودة إلى بلاده المغرب، مصرحا أنه لن يقبل العودة إلى هناك إلا إذا كانت أرض الشمال الإفريقي كلها محررة من المعتدين، وأنه إذا عاد فلن يتوانى عن العودة إلى حمل السيف من جديد ومواصلة الكفاح المسلح الذي بدأه في المنطقة الريفية منذ أكثر من ثمانية وثلاثين عاما⁴. فمسألة إجلاء العدو نهائيا من المسائل التي لا يختلف حولها اثنان، ويلفت الخطابي النظر إلى أن الواجب المقدس الذي تفرضه ظروف البلاد هو العمل لتخليصها من قوات الاحتلال التي هي السبب الوحيد في تثبيط العزائم عن القيام بأي إصلاح⁵، مما يتوجب توحيد الكلمة والصفوف لطرد منبع الشرور والآثام ومصدر الفساد الذي كدر صفو حياة الأمة المغربية منذ عشرات السنين⁶.

1- مجموعة وثائق حسن البدوي، مرجع سابق، (بيان الأمير الخطابي إلى المغاربة، بتاريخ 28 يوليوز 1961).
2- مجموعة وثائق أمزيان، آراء ومواقف، مرجع نفسه، (رسالة الأمير الخطابي إلى أبناء شمال إفريقيا، بتاريخ 10 نوفمبر 1954).

3- مجموعة وثائق حسن البدوي، المرجع السابق، (بيان للجنة تحرير المغرب العربي، بدون تاريخ).

4- المرجع نفسه، (بيان من الأمير الخطابي إلى الحجاج المغاربة أثناء مرورهم بقناة السويس، بتاريخ 17 يوليوز 1958).

5- المرجع نفسه، (رسالة الأمير الخطابي إلى السيد المفضل الإدريسي، بتاريخ 1 ماي 1960).

6- المرجع نفسه. (رسالة الأمير الخطابي إلى السيد المفضل الإدريسي، بتاريخ 1 ماي 1960).

فكان لزاما على الجيش المغربي صيانة دماء إخوته¹، والعمل على إجلاء المحتلين² وبالتكتل وتوحيد الخطة لطرد العدو «(...) وإذا توصلنا لطرده، ونحن واصلون لا محالة فإننا بذلك نكون قد أدينا واجبنا ونكون قد ساهمنا مساهمة فعالة في استئصال جذور الفساد.. وتلك هي الأمنية الغالية التي يسعى الشعب المغربي إلى تحقيقها»³. فالذي ينبغي فهمه واستيعابه من مراسلات الخطابي أن التخلص من ربقة الاستعمار لا يأتي عن طريق الاشتراك في الحكم على أساسها، ولا بالمفاوضة في تغييرات جزئية ومرحلية لا تقوم على أساس الاعتراف بالاستقلال التام أولا وقبل كل شيء⁴.

وإذا علمنا أن الخطابي قال: «نحن قوم نحب السلام ولكن نأبي الذل والضميم»⁵ فإن حربه التحريرية ظلت قائمة ضد إسبانيا من خلال سلسلة من الانتصارات. وفي هذا يقول محمد كرد علي في كتابه «الإسلام والحضارة العربية»: «وتمتعت إسبانيا باحتلال الريف بعد نكبات عظيمة حلت بجيشها، لو لم تساعدنا فرنسا على حرب الريف ما استطاعت أبدا نزع تلك المستعمرة الصغيرة من الريفين الذين لم يجدوا نصيرا في الغرب لأنهم عرب ومسلمون»⁶. ومما يؤكد هدف الخطابي وغايته من إقامة الجهاد ضد المحتل، قوله: «هذا ولا يتبادر إلى الذهن أننا نحارب حبا في الحرب، أو رغبة في إهراق الدماء، كلا ثم كلا، وشاهده شروط الصلح المعتدلة كل الاعتدال التي عرضنا بها عليهما وأساسها الاعتراف باستقلالنا»⁷.

وقوله: «ومن ذا الذي قال لهم إن الحركة الوطنية حركة من أجل المال أو الإصلاح؟ ألا يدركون جميعا أننا عندما حاربنا المستعمرين أكثر من خمس سنوات كاملة، قد ضحينا

1- مجموعة وثائق محمد أمزيان، المرجع السابق، (رسالة إلى أبناء شمال إفريقيا، بتاريخ 10 نوفمبر 1954).

2- مجموعة وثائق حسن البدوي، المرجع السابق، (بيان الأمير الخطابي يعبر فيه عن مطالب الشعب المغربي العاجلة، بتاريخ 10 نونبر 1960).

3- المرجع نفسه، نداء الأمير الخطابي إلى جمعية علماء سوس، بتاريخ 03 نونبر 1960.

4- مجموعة وثائق محمد أمزيان، المرجع السابق، (بيان حول الوضعية الحاضرة في تونس، بتاريخ 12 يوليوز 1951).

5- رشدي ملحق الصالح، مرجع سابق، ص 43.

6- أمزيان محمد سلام، عبد الكريم الخطابي وحرب الريف، مطبعة المدني، القاهرة، 1971، ص 253.

7- مجموعة وثائق شخصية أطلعنا عليها صاحبها عبد السلام الغازي، مرجع سابق، (بيان من الأمير الخطابي إلى الأمة الجزائرية والتونسية بتاريخ 10 غشت 1925).

بكل أموالنا القليلة و اقتصادنا الضعيف و منافعنا الشخصية، حتى نحصل على النصر النهائي فنعلي كلمة الله في الأرض و نرفع راية التحرير و الوطنية في الأفاق»¹.

- و نعتقد أن الخطابي كان حربياً حكيماً- مستحضراً حقوق الإنسان- ذا تجربة و دراية بما يجري في الحروب من الانفلات الأمني غير الواعي حتى بين المسلمين أنفسهم، و لذلك لم يتوان عن إصدار الأوامر الصارمة و لو كان ذلك في صيغة بذل النصيحة الواجبة على رؤساء المسلمين. و لابد من إعطاء الأهمية لما تركز عليه فكره و هو يدعو إلى خوض المعارك..

- و ليس خافياً على أحد تعاليم الإسلام المتعلقة بأسرى الحروب، و هذا معروف معرفة جيدة منذ عهد الرسول ﷺ و من سيرة الخلفاء الراشدين. فإذا كان الإسلام يوصي بمقاتلة العدو قتالاً شديداً، فإن إسلامنا يوصي بحسن معاملة أسرى الحرب الذي قل نظيره في الأديان الأخرى.

وإذا قصرنا الحديث على معاملة الثورة الريفية لأسرى الإسبان سيتجلى لنا بوضوح اتباع الخطابي لتعاليم الإسلام البارزة في القرآن الكريم و السنة النبوية. من ذلك ما يدخل في توعية المجاهدين من الانضباط و الالتزام بالسلوك الإنساني و الأخلاقي تجاه الأسرى كقوله: «وإنه سيسقط في أيدينا أسرى من الأعداء، فلا تقتلوهم ولا تعذبوهم وأوصلوهم إلى المراكز القريبة منكم وهي التي تتكلف بشؤونهم، ولا تجهزوا على الجرحى وكل من فعل شيئاً مما نهي عنه فإنه يقتص منه قصاصاً شرعياً في الحال»².

وقد قيل الكثير من جانب الدوائر الإسبانية عن معاملة الريف للأسرى، و كان القصد من ذلك هو ترويح الإشاعات التي تمس ثورة الريف و إنسانيتها، و التي يحق لكل من تأمل المعاملة الحسنة التي عوملوا بها، أن يضرب بها المثل في حُسن معاملة أسرى الحرب. و لقد أصدر عبد الكريم قراره في قرية جبل عروي بمعاينة كل من يجَهَزُ على مجروح أو قتل أسيراً، بل أمر كل من استطاع من رؤساء الثورة المشهود لهم بالإحسان، أن يأوي إليه فئة منهم، يقول الخطابي: «يجب احترام الذي يسلم نفسه بعد سحب السلاح منه، أما من انضم إلى قوة التحرير العاملين في جيش العدو فيجب أن يقبلوا مع الاحتفاظ لهم برتبهم العسكرية

1- مجموعة وثائق عبد السلام البدوي، المرجع السابق، (نداء الأمير الخطابي إلى المجاهدين المغاربة، بتاريخ 3 يناير 1959).

2- أحمد عبد السلام البوعياشي، حرب الريف التحريرية و مراحل النضال، الجزء الثاني، الدار البيضاء، 1974، ص 361.

وتصرف لهم مبالغ من المال حسب اجتهاد رئيس القوة الموجودة في الموقع، ويجب أن نحترم غير المستسلم إن وقع في الأسر وكذلك الجرحى»¹.

وقد عمل الخطابي بهذا الفقه حيث كان يعتبر أن من حق الأسرى وفق الشريعة الإسلامية أن يحظوا بالعطف على اعتبارهم ضحايا بئسين، لذا استخدم الأصحاء منهم في بناء الطرق. وقدّم مثال المعاملة بنفسه، فرفض أن يثار منهم لمعاملة الأسرى الريفين من قبل الإسبان، هذه المعاملة التي كان الريفيون ينادون بأنها سيئة جداً، يقول الخطابي: «إنه كان من بواعث الحزن مشاهدة الأسرى الإسبان الذين كانوا مغمومين، يائسين، خائفين من مصيرهم»²، حيث حظيت الأسيرات بعناية خاصة سواء في المعاملات والحريات والتنقل في محيط الأسر.

يقول روبرت فورنو Robert Furno: «لم يكن لدى الإسبانين سبب حقيقي للشكوى من الخطابي بخصوص معاملة أسراهم الإسبانين الثماني مائة الذين سيقوا إلى أجدير بعد هزيمة أنوال، كان هؤلاء الرجال وعدد من النساء يشكلون أخطر القضايا بالنسبة إلى الأمير الخطابي عام 1922، وكان في عدادهم الجنرال نافارو وستون ضابطا آخرين،... وأسكن الأسرى في أكواخ، وكانوا يطعمون الأطعمة الريفية النموذجية، ويعالجون من قبل مداوين ريفيين من أفراد الأسر الوراثة المتخصصة في الطب»³. فإن هم أطاعوا فلهم ما لكم، وإن أحدث أحد من جنودكم فيهم ما يكرهونه شرعاً، فإنه يتعرض للعقاب الملائم، وعلى رؤساء الجيش أن يتحملوا مسؤولياتهم إزاء إخوان لهم»⁴.

وبهذا يتضح أن الهدف الأساسي للحروب التحريرية إحقاق حقوق الإنسان وتحرير إرادته من أي هيمنة جائرة، ليخضع لربه وحده بملء حرته. وزعماء هذه الحروب التحريرية من أمثال الخطابي كانوا قادة الدفاع عن حقوق الإنسان عبر التاريخ بدعوتهم الناس إلى رفض الطغيان والفساد المتمثل في الاستعمار ومظاهره.

1- مجموعة وثائق محمد أمزيان، مرجع سابق، (خطة جيش التحرير، بتاريخ 5 مارس 1949).

2- فورنو روبرت، عبد الكريم أمير الريف، مرجع سابق، ص ص 82-84، بتصرف.

3- المرجع نفسه، الصفحات نفسها، بتصرف.

4- أحمد عبد السلام البوعياشي، مرجع سابق، ج2، ص364.

خاتمة:

إذ نعرضُ هذه الحقائق التاريخية أثناء الحرب التحريرية التي خاضها محمد بن عبد الكريم الخطابي ضدَّ الاستعمار وأذنبه، نريدُ أن نبيِّنَ جانباً إنسانياً كان بارزاً عند الخطابي، ربما يخفى لدى كثيرين، أو أنهم لا يهتمون به كما يجبُ، وهو الجانبُ الفكري والأخلاقي الذي كان ينطلق منه في جهاده كله، وحضور المعرفة والثقافة، سواء الإسلامية أو العالمية، في أقواله وأفعاله وأحكامه، وقد بسطنا في هذا المقال مدى إلمامه بالمواثيق الدولية، ومنظومة حقوق الإنسان العالمية، واستحضاره للأحكام الشرعية الإسلامية، في ميدان الحرب، والتوفيق بينهما، وقد تجلَّى ذلك بوضوحٍ في جانب تعامله مع الأسرى والأسيرات.

البعد الأخلاقي لشخصية زعيم المقاومة الريفية من خلال شهادات رجالها

ذة. أسماء غيلان

باحثة في التاريخ - العرائش/ المغرب



مقدمة:

لا يخفى على قارئ سيرة محمد بن عبد الكريم الخطابي، معرفة حجم المعاناة التي مر منها في بداية تكوينه لرباطات الجهاد في منطقة الريف؛ نتيجة ما خلفته المرحلة التي قضاهها في مليلية من سوء السمعة بين أبناء قبيلته. لكن سرعان ما نجح في محو كل ما علق بذهنهم من سوء الظنون، بسبب ما حباه الله به من صفات خُلقية، سهلت عليه تبديد صفوف المعارضة، واحتواء متزعميها، بل وكسب ثقتهم، من خلال العمل على نشر ثقافة المحبة بين الناس، والحث على ترك الضغائن والأحقاد والثأر، والاحترام المتبادل بين الجميع، من أجل لم شمل قبائل أنهكتها الصراعات الداخلية، رغبة في تهيئها لهدف نبيل، وهو الجهاد ضد العدو. العمل الذي كشفته شهادات من أصبحوا من رجاله المخلصين، الذين نقلوا لنا كيف استطاع كسب ثقة الريفيين حتى أصبحوا من محبيه المخلصين؟ وبما استطاع تكوين حركة جهادية حققت انتصارات باهرة خاصة في أنوال؟ وكيف استطاعت صفاته الخلقية أن تكون سمة من سمات قدراته التنظيمية لحركة أصبحت رمزا للكفاح ضد الاستعمار على الصعيد الدولي؟ في ظل وسط موبوء بكل السلبيات.

من خلال هذه الإشكالية، انطلقت للتعريف بأخلاق الزعيم محمد بن عبد الكريم الخطابي من خلال شهادات بعض رجال المقاومة، الذين جمعت شهاداتهم في كتاب بعنوان «شهادات عن المقاومة في عهد الزعيم محمد بن عبد الكريم الخطابي» باعتباره مصدرا رئيسيا، إلى جانب شهادات أخرى كانت أضواء كاشفة لهذه الشخصية التي انتصرت في أنوال بالرغم من بساطة الوسائل.

ولقد قسمت هذه الشهادات إلى خمسة مباحث:

المبحث الأول: سيرة موجزة عن حياة الزعيم ومشروعه الإصلاحية¹

1 - حياته:

ولد محمد بن عبد الكريم سنة 1300هـ/1882م، في قرية أجدير التابعة لمدينة الحسيمة المغربية، في أسرة ذات مكانة علمية وسياسية عريقة. اعتنى والده بتربيته وتعليمه، فحفظ القرآن الكريم في سن مبكرة، وتلقى مبادئ العلوم الأولى على يديه، وفي قريته. ولما انتقلت العائلة الخطابية إلى تطوان أواخر طفولته وبالضبط سنة 1896، التحق بجامعة الكبير للدراسة، فداوم على ذلك طيلة إقامة عائلته بالمدينة. وبعد مرور أربع سنوات، قررت أسرته العودة إلى أجدير، ومنها شد الرحال إلى فاس للدراسة بالقرويين، في ظل ما كانت تموج به تلك الجامعة من نشاط «الحركة السلفية» وقتئذ، وما تتميز به فاس كعاصمة علمية تعد قبلة للعلماء والطلبة، وما يعانيه المغرب عموماً من فتن واضطرابات.

وبعد فاس، أرسله والده للدراسة في مليلية، حيث حاز على دبلوم المدرسة الثانوية،^{عقبها} التحق بمدينة شلمنقة الإسبانية فحصل على شهادة الحقوق من جامعتها. فكانت هذه الجامعة آخر مرحلة من مراحل طلب العلم والتلقي، في انتظار أن تبدأ مرحلة العمل، حيث اختير كمدرس لأبناء المسلمين في مدينة مليلية ابتداء من سنة 1907؛ نظراً لإتقانه اللغتين العربية والإسبانية إلى جانب الأمازيغية، ثم قاضياً سنة 1913، ورُقي سنة 1914 لمنصب قاضي القضاة. هذا إلى جانب مزاولته مهنة الترجمة والكتابة بإدارة الشؤون الأهلية، وتجربة الكتابة الصحفية، حيث خصص له عمود بالعربية في جريدة تلغراما الريف الناطقة بالإسبانية².

1 - ينظر: محمد ابن عبد الكريم الخطابي، صفحات من الجهاد والكفاح المغربي ضد الاستعمار (1912-1927م)، تحقيق محمد علي داهش، الدار العربية للموسوعات، الطبعة الأولى، 2010/1430 هـ، هامش ص ص 88 – 89؛ جرمان عياش، أصول حرب الريف، ترجمة محمد الأمين البزاز وعبد العزيز خلوق التمساني، الشركة المغربية المتحدة، الرباط، بدون تاريخ الطبع، ص 168؛ محمد العربي المساري، محمد بن عبد الكريم الخطابي من القبيلة إلى الوطن، المركز الثقافي المغربي، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 2012، ص ص 25-29؛ رشدي الصالح ملحس، سيرة الأمير محمد بن عبد الكريم الخطابي بطل الريف ورئيس جمهوريتها، المطبعة السلفية، القاهرة، 1343هـ، ص ص 26-27؛ الخطابي ملهم الثورات المسلحة السياق التاريخي والأبعاد السياسية والعسكرية والاجتماعية لثورة الريف الثالثة 1921-1926، إعداد مركز الخطابي لدراسة الحروب الثورية، 2019/2020، ص 23.

2 - الخطابي ملهم الثورات المسلحة، ص 24.

فقام بالمهمة خير قيام، كما شهد بذلك مديره لوبرا بقوله: «إنه لصحفي بالفطرة، وعلى كل حال فهو مثابر ومنضبط وصدوق، وما أكثرها من مؤهلات لا تتوفر في بني جلدته»¹. فهذه الشهادة وغيرها ستوضح ما أكسبته الحياة المهنية من دربة وفطنة، إلى جانب شبكة واسعة من العلاقات سواء مع المغاربة أو بعض الإسبان، الذين سيحظى بينهم باحترام وتقدير كبيرين.

2 - مشروعه الإصلاحية:

كانت انطلاقة مشروع محمد بن عبد الكريم الإصلاحية في منطقة تعاني من الفرقة والتشتت والتطاحن الداخلي كغيرها من مناطق المغرب، كل قبيلة تعاني من عدة مشاكل داخلية إلى جانب مشاكل مع جيرانها من القبائل المحيطة بها، بالإضافة إلى الأطماع الخارجية. لذا لم يكن من السهل أن تجتمع كلمة القبائل على رجل واحد يتزعمهم للجهاد، خاصة إذا كان هذا الرجل سبق له وأن اشتغل تحت سلطة الاحتلال. ففي هذه الحالة يجب أن يكون لهذا الرجل ميزات وخصائص قلما اجتمعت في غيره، من أجل تجديد الثقة، والتمكن من لم شمل القبائل تحت راية واحدة، ولمواجهة عدو واحد وهو المحتل. في هذا المحيط برزت شخصية محمد بن عبد الكريم الخطابي الذي وصل لما وصل إليه «بفضل مؤهلاته الشخصية وقدراته الفائقة على الحوار والتنظيم، مما جعله يتبوأ مكانة مرموقة بين ذويه وعشيرته»². تجلّى توظيف محمد بن عبد الكريم لهذه المؤهلات ابتداءً، في إلقاء دروس مكثفة في الوعظ الديني والسياسي حيث «كانت المساجد منطلقه الأساسي، وكان كلامه مشبعاً بالآيات والأحاديث، وبالاستدلال بتاريخ غزوات الرسول في بداية أمره، والتعريض على النضال العربي الحاصل في مصر والعراق وفلسطين، وبالتبصير بمرامي الاستعمار الإسباني، مذكراً بما فعلته إسبانيا مع المسلمين في الأندلس»³. هذا إلى جانب دروسه في الأخلاق والتزكية والدعوة للتحرر من الشهوات والنزوات والملذات العابرة؛ لأن الانتصار على النفس هو الانتصار الأول. كما حرص على توعيتهم بضرورة الوحدة ونسيان الضغائن والأحقاد العشائرية والعائلية، تهيئة لأرضية الجهاد. فقام بـ«ردع الناس عن اللجوء إلى الانتقام الشخصي الذي كان يعرف أن الإسبان استغلوه على نطاق واسع، وفرض سواء بين إخوانه بني ورياغل أو بين التمسانيين عدالة

1 - أصول حرب الريف، ص 176.

2- محمد الرايس، شهادات عن المقاومة في عهد الزعيم محمد بن عبد الكريم الخطابي، إعداد وتقديم عبد الحميد الرايس، دار النجاح الجديدة، الطبعة الأولى، 2011، ص 460.

3- الخطابي ملهم الثورات المسلحة، ص 33.

اجتماعية طبقها وفق الشريعة الإسلامية، لهذا لم يتردد في اتخاذ عقوبات نموذجية»¹. وبما أنه كان حافظاً لكتاب الله، ومعلماً، ثم قاضياً ومترجماً، تمكن من تنفيذ المهمة التي تفرغ لها بكل تفان. ونجح في تزكية النفوس وإصلاح ذات البين؛ تمهيداً لتكوين أرضية متينة لحركة المقاومة. وهذه تعتبر أهم الصعوبات التي واجهت الزعيم، لما تطلبت المهمة من هدم ما هو قائم من أخلاق سيئة، انتشرت في محيطه بكثرة، كالحقد والحسد والثأر وقطيعة الأرحام والخيانة.... وبناء أخلاق الصلح والصفح والعفو والاحترام والتقدير والمشورة والوفاء وغيرها من أخلاق الدين الحنيف، ولولا تحليه بها لما استطاع نشرها. ولولا قدرته على امتثالها وتنزيلها إلى أرض الواقع، مسنودة بتنفيذ الحدود الشرعية، لما حظي بثقة أحد، ولما انقادت له القبائل راغبة مطمئنة، ولما ذاع صيت إصلاحه من محيطه وقبيلته إلى عموم الوطن والعالم بأسره. يؤكد هذا الأمر ما دون من شهادات رجاله كما غيرهم خاصة الأجانب، ومنهم مراسل المورنين بوست قائلاً: «إذا نظر الإنسان إلى الأمير لأول وهلة لا بد أن يحارفي أن يكون لهذا الرجل اللطيف المنظر، ذلك التأثير العظيم على قبائل الريف الشكسة. ولكن عندما يعرفه يوقن أنه ذو شخصية عظيمة، فهو أحد أولئك الذين يولدون زعماء في أزمنة مختلفة بين الأمم، ليكونوا مصيرها ويتركوا أثرهم في تاريخ العالم. وهو ليس زعيماً فقط بل مصلاً أيضاً، حتى أن تأثير حكمه قد بلغ إلى مدى يفوق حد التصديق في تبديل الأحوال في الريف»². وما حصل هذا التغيير إلا لكونه اشتغل على الإنسان أولاً، بعدما أدرك حجم التردّي والانحطاط اللذين كان يغرق فيهما المغاربة عموماً، ومنهم أبناء منطقتهم، بسبب الجهل والفقر وظلم الاستعمار. فلم يكن ليستقيم له عمل إذا لم يتم التغيير، ببث روح الأمل، والثقة في النفس، بأن كل إنسان قادر على العمل والنجاح في مهمته إذا ما تم الاجتهاد والإخلاص، ومعرفة شروط النجاح وفق شرع الله، لا بالكذب والارتزاق والخيانة. بهذا «وطد دعائم الأمن، وأنشأ المدارس والمستشفيات، وأرسل البعثات إلى أوروبا، وقلل جدا من حوادث الثأرين القبائل، حتى أن الرجل كان يلقي قاتل أبيه وأخيه في المعارك مع إسبانيا فلا يمسه بسوء»³. فهذا الحرص جعل أهل الريف يتبنون قضية واحدة، يدافعون عنها، ويموتون من أجلها، لأنها طريق الرقي والتطور في كل شيء، فكان «من ثمار المزايا القيادية للخطابي، الذي وقعت على يديه طفرة،

1 - أصول حرب الريف، ص 320.

2 - سيرة الأمير محمد بن عبد الكريم الخطابي بطل الريف ورئيس جمهوريتها، ص 35.

3 - محمد بن موسى الشريف، عظماء منسيون في التاريخ الحديث، دار الأندلس الخضراء، الطبعة الأولى، 2010/1431هـ،

تمثلت في الانتقال من حالة الانحطاط المزري والتهافت على المصالح الفردية وغيبة الوعي بوجود الدولة المغربية المستقلة، إلى حالة عالية من التماسك والنزوع إلى الكمال، الذي أصبح يسود القبائل التي كانت إلى حين متقاتلة في ما بينها، وينخرها دخول أعيانها في سلك إيبولسن¹. هذه العضلة العظمية التي تعامل مع أصحابها بحكمة، وكذا مع ذومهم، حيث تعامل معهم بأخلاق الصفح والعمو في غالب الأحيان، ممتثلاً قوله تعالى: {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ} آل عمران: 159.

المبحث الثاني: خلق الصفح والعمو حتى في ظل الخيانة وعصيان الأوامر

1 - الصفح والعمو على من خان

فكما نعلم أينما وجد الاحتلال وجدت الخيانة والارتزاق لأسباب عدة، ومن صورها ما حكاه شاهد عن نفسه، كيف قام بتهديب أسير من يد المقاومة وإيصاله إلى مأمنه؟ وكيف تصرف الزعيم معه؟ قال: «قمت بتهديب أسير إسباني من أجدير إلى جزيرة النكور، ثم انكشف أمرى فيما بعد رغم تكتمي الشديد، فبعث الزعيم عبد الكريم الخطابي أحد أعوانه ليستنطقني شخصياً، فكان أن اعترفت بالحقيقة، وبأنني فعلت ما فعلت بحثاً عن المال نظراً لضعف حالي المعاشي، وبعد الاعتراف بالذنب قال لي السي محمد بن عبد الكريم: «احكم على نفسك بنفسك؟» أجبتة صادقاً: «أستحق الإعدام كجزء في المستوى، غير أنني أطلب منك مهلة». «فقال لي، «لك ذلك، وحددها أنت بنفسك.» قلت له: مدتها شهرين على الأكثر. قال معلقاً: «ولماذا هذه المدة كلها؟» أجبتة: «حتى أتمكن من إرجاع الأسير الذي هربت، أو إرجاع مثله، مع إعطائي الحرية الكاملة أثناء محاولتي تنفيذ الخطة»². سمح له الزعيم بالمهلة التي حدد، فكانت النتيجة أن تمكن المخطئ من التكفير عن خطئه بأسره إسبانيين آخرين، وتمكن محمد بن عبد الكريم من استمالة رجل إلى رجاله؛ لأن المهلة كانت فرصة لهدم سلوك الخيانة وبناء سلوك الأمانة والإخلاص للمقاومة. بالإضافة إلى تمكين المقاومة من ورقة ضغط قوية أثناء التفاوض مع عدوها. كل هذا انطلاقاً من هذه المرونة في التصحيح والتوجيه، وانطلاقاً من الالتزام بخلق العمو عند المقدرة.

1- محمد العربي المساري، محمد بن عبد الكريم الخطابي من القبيلة إلى الوطن، ص 31.

2- شهادات عن المقاومة في عهد الزعيم محمد بن عبد الكريم الخطابي، ص 268.

كما أن ارتكاب الخيانة من شخص لا يعني مطلقاً أن يخون جميع أهله، ولا معاقبتهم بذنبه. فمن أخلاق الزعيم أنه لم يحاسب قريبا بجريرة قريبه أبداً، عملاً بالآية الكريمة {وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى}، سورة فاطر الآية 18، ومن الأمثلة على ذلك، ما حكاه شاهد عن قصة مرتزق احترف تجسس أخبار المقاومة، فقتل من طرف المجاهدين، وصدورت أملاكه، مما جعل زوجته تعيش الفقر والحاجة، فقصدت مركز القيادة بقبيلة تسمان ومعها صغارها، لتقديم شكاية للزعيم، فلما اطلع على قضيتها من طرف مساعده، وافق على استقبالها وسماع شكواها، وبعد التحية وسؤالها عن مشكلتها، أجابت: «إن زوجي مات برصاصة أصيب بها خلال محاولته التسلية بين تواجد خط المجاهدين، وبين ثكنات الإسبان، فقال لها الزعيم، تقصدين أنه كان يسترزق بهذه الصفة؟ قالت: نعم. فقال لها: وماذا تريدان أن تعاملي به من طرف هذه القيادة؟ قالت بلهجة حادة: أريد أن يرد لي عبد الكريم ما أخذه من بهائي وحوائي، وكل متاع هؤلاء الصغار». استجاب الزعيم لطلبها ورد إليها ما وجد أنه لم يفوت بعد. وقال لها مطمئناً بأنه «قد قرر لها معاشاً يعوض لها ما كان زوجها المغامر يأتي به بصفة مخالفة للشريعة الإسلامية»، فسقط في يد المرأة عندما عرفت أن الرجل الذي كانت تشكو إليه حالها ليس بقائد، وإنما هو الزعيم نفسه. ذلك أن مظهره لا يختلف في شيء عن المعتاد الجماعي. وكان ناظر العدالة الفقيه بولحية هو الذي حكم بمصادرة متاع المتوفى، وقد شنع عليه الأمير سلوكه»¹.

ولم يكتف الزعيم بمثل هذا، بل تجاوزت أخلاقه تنفيذ العقوبة إلى منع التعريض والسخرية والعدوان بدعوى تنفيذ الأحكام، فيمن حاد عن الصواب في حالة الارتزاق والخيانة، «فإنه لم يكن يسمح لجنوده بأن ينصبوا أنفسهم محاكمين: يقول مخبر في المصالح الإسبانية: إن السي محمد بن عبد الكريم يمنع كلياً على رجاله في الحركة التهجم على أي أحد في شخصه أو متاعه ممن يشتبه به صديقا لإسبانيا، كما أنه لا يسمح بذلك لأي كان، دون أن يكون قد علم بالأمر وبث فيه بنفسه»². وذلك لحرصه على أعراض الناس وعلى اللحمة بين الجميع، لذا لم يترك فرصة للإشاعات ولا للفوضى، بل كل تهمة تخضع صاحبها للمساءلة والتحقيق من طرفه شخصياً، ثم الحكم بما يراه مناسباً ولا يترك أمر المحاكمة لأي

1 - شهادات عن المقاومة في عهد الزعيم محمد بن عبد الكريم الخطابي، ص 210.

2 - أصول حرب الريف، ص 320.

كان، لذا صحح حكم الفقيه بولحية، بإرجاعه الأموال المصادرة بناء على قراره الانفرادي، ولامه على ذلك.

وعن قصة العفو والصفح أيضا من أجل التصحيح والتوجيه، نُقلت هذه الشهادة عن موظف في مجال الاتصالات السلوكية، حكى عن نفسه كيف كان يسترق السمع أثناء مكالمته هاتفية بين الزعيم وأخيه امحمد؟ وكيف كان جواب الزعيم؟ وعن النتيجة الإيجابية للتخلي عن ذلك السلوك السيئ؟.

أسر الموظف موح حمادي لزميله علي عبد الكريم أزرقان في الوظيفة «لقد كنت أسترق السمع حين يكون الأخوان يتحدثان، بحيث أخذ سماعة ثانوية بعد أن أكون قد هياتها بحذر، وكان أحد الرفاق يحذو وحذوي في هذا الفضول، فتفطن إليه الأمير بحساسية خاطفة»، فقال له على حين غرة: مابك؟ فلم يتمالك المغرور أن أجاب بسرعة: حاضر نعم سيدي. فأجابه الأمير ببرودة وهدوء: متى نكون مخلصين في عملنا؟ فارتبك الرجل ولم يدر كيف يقوى على الرد. وقال له: «لا تعد تسترق السمع، وإلا فستكون في عداد الخائنين»، يقول الأخ علي: منذ أن جرى ذلك أقلعت نهائيا عن فضولي الزائد، وتبت إلى الله¹. يعني بفضل النصيحة الهادئة، والكلام اللين، توقف الرجل عن استراق السمع في أمر لا يخصه ولا يعنيه، بل وفيه خطورة على أسرار المجاهدين والمقاومة. ومع ذلك نهبه الزعيم عن التوقف حتى لا يكون من الخائنين بكل هدوء، ولم يقل له يا خائن، ولا أنك من الخائنين، ولا عاقبه. فكانت النتيجة توبة الرجل عن خطئه وإخلاصه في عمله.

2 - عفوهم وصفحهم عن عصي تنفيذ الأوامر بدافع إنساني أخلاقي

يحكي الشاهد اليزيد حمادي الذي التحق بقوات الجيش النظامي الريفي بعد أنوال، وكلف بحراسة الأسرى الإسبان ابتداءً، ثم أوكلت له مهمة مراقبة جنديين مرتزقين مغربيين قصداً المجاهدين، وادعياً أنهما تابا من انحرافهما وأخلاقهما المناهضة لدينهما ووطنهما، ورغبا في الانضمام إلى صفوف المقاومة. فاستقبلهما الزعيم واستنطقهما بشكل دقيق، وقبلهما في صفوف المجاهدين وكلفهما بحراسة الأسرى الإسبان كاختبار لهما. كما كلف الشاهد اليزيد سرا بمراقبتهما، فظل ملازما لهما حتى حدث بينهم إلف، وأصبحوا يتحدثون ويتناقشون دون

1 - شهادات عن المقاومة في عهد الزعيم محمد بن عبد الكريم الخطابي، ص ص 209-210.

أن يحس منهما بما يثير الشك والريبة. لكن القيادة كانت قد تأكدت من مكرهما، وأنها مكلفان بمهمة اغتيال الزعيم محمد بن عبد الكريم. فجاء الأمر لهذا الشاهد الذي كان يحرسهما بأن ينفذ حكم الإعدام بهما، بعد أن يدعوهما إلى نزهة في الغابة، حيث يمكنه تنفيذ الحكم بسهولة. فكان الرفض من هذا الحارس لتنفيذ الحكم بالرغم من مقدرته عليه، بسبب ما حصل بينه وبينهم من ألفة. فرفع أمر عصيانه الأوامر للزعيم، ومن ثم بُعث إليه في مركز القيادة تحت الحراسة. فلما سأله الأمير عن سبب عصيان الأوامر، أجاب: «نفسى تحجم عن الإقدام بمثل هذه العملية الباردة لا أقل ولا أكثر، خصوصاً وقد تحكمت بيني وبينهما عواطف المعاشرة والألفة»¹. فأجابه الزعيم بأن مسألتك خطيرة، لذا سأعطيك مهلة أخرى للتفكير. بعدها أعاد عليه السؤال نفسه، فكان الجواب كما في المرة الأولى، لأن الموقف هو هو، والمبدأ هو هو، مع بيان أكثر، حيث قال له: «نعم، ليس هناك خوف ولا تمرد، وإنما إنساني منعتي من ذلك، وفي نفس الوقت إن قائدي أمهري في مثل هذه المهمات، وحتى في غيرها من المجالات الخطيرة، وليعفي من ذلك، ولما يعاند لمجرد أنني اعتذرت وطلبت بلطف أن يقلني، إن نفسي لا تقبل الإجهاد على أحد إلا في حالة واحدة، إذا كان خصمي شاعراً وقادراً على الدفاع، أو بسبب الإقدام، أو إذا كان من الضروري أن أفتك به قبل أن يفتك بي»². ولما كان اعتراف الجندي دالاً على الصدق والشهامة والأخلاق النبيلة التي منعت من تنفيذ الأوامر، حتى وإن كانت خطأ جسيماً في ميزان النظام العسكري، أخذها الزعيم بعين الاعتبار، واحترم رأي صاحبا، ولم يعاقبه، خاصة لما صرح له بأنه مستعد لتنفيذ أي مهمة أخرى مهما صعبت: «ولو كلفني سيدي محمد بمهمة في منتهى الخطورة في مجال القتال. فإني مستعد أن أدخل التكنة بنفسى لأقتل من أمكن لي قتله، ولو أموت في العملية، وذلك في المدن والجبال، وليكلفني بنصب الكمائن والألغام في أخطر مكان، ولو توجهت إليه سباحة». «وكنت أقول هذا بصوت رزين معتدل، وأحذو حذوه في نبراته. حدق نظره وتفرد في ملامحي، وكأنه يسبر أغوار نفسي، وقال لي متبسماً: التحق بأهلك والزم دارك حتى أبعث إليك»³. بهذا اللطف والتؤدة تعامل مع من عصى الأوامر. جالساً، وأنصت لما سيقوله عن سبب رفضه، دون أي أحكام مسبقة جاهزة. ولما تأكد من سجايا الرجل الحميدة، سرحه إلى أهله، في انتظار أن يكلفه بمهمة أخرى. وكله احترام وتقدير لزعيمه، بالرغم من وسوسة الشيطان له بأنه ربما

1- شهادات عن المقاومة في عهد الزعيم محمد بن عبد الكريم الخطابي، ص 346.

2- نفسه، الصفحة نفسها.

3- نفسه، ص 346 - 347.

سرحه لينفذ فيه حكم الإعدام بسبب العصيان. لكنه يسترجع نافيا كل الوسوس والأفكار السلبية التي تشغله، بسبب الانطباع الذي خلفه اللقاء مع الزعيم، إذ يقول: «ولكنني كنت أنسى في معظم الفترات، وأستعرض موقفه معي حينما كان يسألني، فلا أجد ما ينم عن نية الفتك بي، لوداعة مظهره، وصبره ورزاقته حتى أنه يظل ساعة جالسا أمامك متربعا لا يحرك فخذيه وساقيه، وكأنه مسمر في الأرض مع جمال جذاب، يشع نورا ويبعث على الاحترام والتقدير»¹. فهذه هي نتائج هذا الخلق العظيم، خلق «العفو عند المقدرة»، أي العفو على من أساء، في ظل القدرة على تنفيذ العقوبة. وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن العقاب وإن كان جوهر العدل في بعض الأحيان، فإن الصفح هو قمة الإحسان والفضل أحيانا أخرى كثيرة، وهو مطلوب من رب العزة في عدة آيات منها قوله تعالى: {فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ} الحجر: الآية 85. وقوله تعالى: {فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ} الزخرف: الآية 89، لذا كان الزعيم ممتثلا لهذا الأمر الإلهي مع أخطاء رجاله مرات عديدة، حتى استطاع أن يكسب ودهم واحترامهم.

المبحث الثالث: خلق المشورة في كبير الأمور وصغيرها

1 - الاستشارة من أجل اختيار الرجل المناسب في المكان المناسب

فعن هذا الخلق يحكي اعمار حمادي غيايا عن مهمة اختيار مسؤول عن المدفعية بأجدير، حيث تم استدعاء والد هذا الشاهد للحضور إلى مجلس عقد خصيصا لهذه المهمة، من أجل التشاور فيمن الأصلح لها، وذلك بصفته كان قائدا للمدفعية الريفية. فتكون المجلس الاستشاري من الزعيم محمد بن عبد الكريم وأخيه امحمد، وعمه عبد السلام الخطابى وبعض المسؤولين والأقارب، فقال له الأمير بعد التحية والسلام: «علينا أن نعين من سنسند إليه درجة ملازم مدفعية أجدير وضواحيه، وعلينا بالطبع أن نختاره من بين العرفاء المجيدين لاستعمال المدفع» وبعد مداولة اشترك فيها كل الحاضرين بأرائهم وملاحظاتهم، وقع الاختيار من طرف هذا القائد على شخصين للباري في المهمة، ممن توفرت فيهما شروط معرفة الأرقام جيدا والقدرة على التعبير. فهذان الرجلان فقط من سيجتازان الاختبار التطبيقي في الرماية

لاختيار أكفئهما وأقدرهما على المهمة، فكان المنصب لمن توفرت فيه الشروط المتفق عليها من طرف المجلس الاستشاري¹. وهكذا يحدث في جميع الوظائف.

2 - الاستشارة بخصوص إنزال الحسيمة

كثيرا ما تحدث رجال الزعيم، عن حرصه على استشارة ذوي الرأي وعدم الاستئثار برأيه في كل صغيرة وكبيرة. ففي عملية إنزال الحسيمة مثلا سنة 1925 قال الشاهد موحد بن الحاج موح بودرة بن الرايس «و أثناء ذلك، كانت القيادة العليا تدرس المسألة وتجري استشارات في الأوساط الريفية. فقد كان الرئيس يقصد الأسواق، ويجتمع بالناس لتبادل الرأي. كانت نتيجة الاستشارة أن أشار عليه القوم بضرورة مجابهة العدو مهما كلفهم الأمر. فقبل ذلك على مضض. وكان من عاداته أن يعيد التشاور ليتأكد من عزمهم. ففضل في الأخير الانقياد للرأي العام قائلا: «لننتصر بحول الله، ولتكن إرادة الله»². أي قبل رأي الأغلبية وإن كان له رأي آخر.

وهكذا تشير كثير من الشهادات، في كون الأمير كان يصر على إشراك الجميع في المشورة، ويحب أن يسمع جميع الآراء بدون استثناء. يستمع للكبير والصغير، لنذي الخبرة ولمن لا خبرة له، وللمتعلم كما للجاهل، «كان الأمير كعادته حينما يلقي سؤالا على جماعة، يجيل ببصره في الحاضرين بدون استثناء»³ يكثر من طرح سؤال، أيرضيك هذا الأمر؟ أتقبلونه؟ أهو مناسب؟ فيكون الجواب في كثير من الحالات بطرح الآراء واختيار الأفضل ورأي الأغلبية، وأحيانا يفضلون رأيه بقولهم، افعل ما تراه مناسبا فلقد جربناك في أكثر من موقف، فوجدنا الصواب في جانبك، فاعمل برأيك لا برأينا. «لكن حتى مع هذا التفويض لا ينس الأمير ما كان منه من اتفاق في بداية لم الشمل، حيث أجاب: «إننا في بداية جهادنا، كنا قد أقسمنا في المصحف الكريم أولا، وثانيا أن لا نقطع أمرا هاما كهذا إلا عن مشورة بيننا. وهذا ما جعلني مكبلا به لا أحيد عنه، وقد أستشيركم في العمل وفاء بالعهد، لا مقترحا ولا مستبدا»⁴. أي احتراماً ووفاء للعهد والمواثيق التي أبرمها معهم في البداية، والتزاما بمبدأ الشورى الوارد في

1- نفسه، ص 272.

2- نفسه، ص ص 91-92.

3- نفسه، ص 136.

4- نفسه، ص 137.

قوله تعالى: {وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ} آل عمران: الآية 159. يستشيرهم في كبير الأمور وصغيرها. لذا قيل عن النظام الذي كان يدير به شؤون القبائل التي دانت له، أنه « كان نظاما استشاريا في نطاق رؤساء القبائل و مندوبيهم أكثر منه شيئا آخر، وهكذا كان الأمير يجمع السلطة بين يديه، ويدبر الأمور بنفسه مع أخذه آراء المجالس القبلية عند الاقتضاء، ولكن من غير أن يتقيد لزوما برأيها سواء في الحرب أو السياسة، فكان مفهومه للحكم أشبه شيء بما كان عليه الأمر في عهد الخلافة الإسلامية»¹.

3- الاستشارة في عدم تحرير مدينة مليلية خوفا من الظلم

بعد الهزيمة التي مني بها الجيش الإسباني في أنوال، ظلت مليلية لمدة أسابيع عديدة وحاميتها العسكرية ضعيفة²، وشبه فارغة من الجنود، إلى أن جاءها المدد فيما بعد، مما جعل رجال المقاومة يحاصرون المدينة، ويتوقون شوقا إلى تحريرها من يد الغزاة، إلا أنهم فوجئوا في ظل هذا الفراغ بقرار رفض الدخول إلى مليلية، بعدما، «تفاوض أعيان المجاهدين الذين من جملتهم السيد محمد بن عبد الكريم، والسيد محمد أزرقان وغيرهم في شأن الاستيلاء على مليلية، وحصل اتفاقهم على عدم الدخول إليها، خشية الفتك بمن فيها من أجناب ومسلمين، وليس في هذا الإبان عندهم عسكرا نظاميا يحافظ على ترك النهب، وقتل النساء والصبيان من الإسبان وغيرهم»³. أي أن المبرر الأخلاقي كان مطروحا بقوة وإن وجدت مبررات أخرى لهذا الرفض. فحرصه على العدل في المواجهة، منعه من دخول مليلية، لكيلا يقتل من ليس محاربا من النساء والأطفال والشيوخ، ليكون احترامه لشروط الجهاد في الإسلام مانعا من دخولها تحسبا لوقوع الظلم. فصدر قرار الانسحاب وترك حصار مليلية بعد التشاور على ذلك، وإن عد الزعيم هذا القرار فيما بعد من الأخطاء، وكذا كثير من الباحثين.

المبحث الرابع: التواضع والاحترام

أثناء الانطلاقة الأولى لريباطات الجهاد في الريف، كان لا بد من تضافر جهود الجميع، وبأساليب وطرق عدة، فالكل محتاج للكل، والوطن محتاج للجميع. فكان من بين طرق

1 - محمد حسن الوزاني، مذكرات حياة وجهاد، مذكرات حياة وجهاد- التاريخ السياسي للحركة الوطنية التحريرية المغربية 2 حرب الريف، مؤسسة حسن الوزاني، بدون رقم وتاريخ الطبعة، ص 359.
2 - جلال يحي، عبد الكريم الخطابي، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، فرع مصر- 1968، ص 49.
3 - أحمد بن العياشي اسكيج، الظل الوريث في محاربة الريف، كان تأليفه بالجديدة سنة، 1345/1926م، ص 26.

التعاون، إرسال الريفيين لدوابهم لحمل المؤونة لمن هم على خط الدفاع. ومن هم على خط الدفاع كانوا يتناوبون على مهمة تتم على خمسة عشر يوما. وكل دابة استخدمت لحمل المؤونة إلى المعسكر الجهادي، تبقى يومين في المهمة، لها أن تستريح مدة أسبوعين، وهكذا.

إلا أنه قد تحصل استثناءات تلزم الناس بالتزامات إضافية قد لا تحظى بالترحيب من طرف كل الريفيين. مما قد يؤدي إلى سوء تصرف المسؤولين عن التسيير، فيكون سوء تصرفهم سببا لوقوع الظلم وسوء العلاقة بين الناس. وهو نموذج وثقته هذه الشهادة. ففي إحدى المرات التي أضيف إلى التموين العادي كمية إضافية، احتيج فيها إلى دواب خارج البرنامج المحدد، فاختيرت بغلة رجل مسن يدعى موح بودرة الرايس، ولما أخبر بهذه المهمة الإضافية، رفض الرجل الاستجابة نظرا لحاجته الملحة إليها لتتبع سير أشغاله البعيدة عن بيته، وتبعه في هذا الامتناع آخرون، فحصل نوع من التشويش والعرقلة. في ظل رفض بعض الأهالي لهذه الزيادة، وتحت ضغط مسؤولية تنفيذ المهمة، فكر المكلف بتنزيل البرنامج في حيلة لأخذ البغلة من صاحبها المسن. فأرسل هذا المسؤول من يخبر الشيخ الكبير وهو راكب بغلته، بأن القائد يطلبه على وجه السرعة. فاستجاب الرجل للأمر وذهب للقائد، فربط بغلته خارج الإدارة، ودخل للاستفسار عن سبب استدعائه. فكان الجواب من القائد على شكل حوار طويل من أجل إلهائه حتى تؤخذ الدابة في المهمة التي اختيرت لها، ولما تأكد القائد أن المهمة تمت بنجاح سمح له بالانصراف. فلما خرج الشيخ ولم يجدها، غضب غضبا شديدا على الحيلة التي أوقعوه فيها، فسب وشتم القائد ومن اتفق معه على ذلك. فكانت النتيجة اعتقاله ثلاثة أيام، دون مراعاة لسنه ولا لرد فعله العادي اتجاه تصرفهم. لكن لما علم الزعيم بالقصة، استدعاهم جميعا: الشيخ والقائد والمعاونون المحتالون على الشيخ. وبعد الاستنطاق والاستفسار عن الحثيات، قال لهم الأمير: «عفا الله عنا وعنكم، ما أجهلكم ياخوانكم في مكانتهم وسنهم وإخلاصهم لقضيتنا جميعا، ما هكذا ينبغي أن يكون التصرف... أرجوك يا عماه أن تسمح لهؤلاء فيما صدر منهم غلطا، وإذا رفضت ذلك عاقبناهم بما يلزم» أجابه الشيخ، وقد هدأ من روعه الكلام الصادر من الزعيم، واعدأ بأنه سينسى ما حدث لعل الله يغفر له سورة غضبه، وواعد بأن البغلة من تلك اللحظة ستكون ملكا للمجاهدين، وهو معهم بنصيبه، فأجابه الزعيم: «يا عماه، لا هذا ولا ذاك، اطمئن، وزرنا بين الفترة والأخرى لنستفيد منك، ومن آرائك، فأنت أبونا وعمنا وصهرنا»¹. هكذا

هدأ من روع الرجل، وكسب احترامه ووده، ولام المخطئين على فعلتهم لكيلا تتكرر مرة أخرى، ولولا عفو الشيخ عنهم، ورقى الزعيم في حل الخلافات؛ لما تردد في تأديبهم بما يلزم.

أما عن التواضع فحدث ولا حرج، فالزعيم لم يتميز عن الريفيين في شيء، يأكل ما يأكلون، ويلبس مثل ما يلبسون. يشارك رجاله أكلهم وشربهم إذا وجد معهم في مكان، ولا يختلف عنهم في شيء. حتى أن الداخل عليه إذا لم تكن له معرفة مسبقة به لا يعرفه، هذا ما قاله محمد حسن الوزاني وغيره، «ومع ما أدركه الأمير محمد بن عبد الكريم وشقيقه من رئاسة، وقيادة، ونفوذ، وسطوة فقد بقيا على حالهما لا يميزهما شيء عن أهل الريف، الذين كانا يتزيان بزيمهم التقليدي، ويسكنان في بيت عادي مثل بيوتهم، ويعيشان نفس عيشتهم، ويختلطان بالناس في القبائل والأسواق، ويتحدثان معهم في شؤونهم، فضلا من أفراد الشعب وإن كانا رئيسين، وقائدين، وزعيمين بدون منازع، وتلك هي الشعبية الصحيحة، والديمقراطية الحق، وكلتاها قائمة على الطبيعة المغربية، وأخذة للأخلاق الإسلامية فرضا»¹. فكان التواضع سمة من سمات نجاحه، وهذا خلق لامسه أيضا كل من التقى به من الأجانب، خاصة المرسلون الحربيون الذين كانوا يزورونه في مقر قيادته بأجدير، ولاحظوا أن هذا المقر، عبارة عن «قاعة بسيطة وصغيرة، ولا تشتمل إلا على منضدة من الخشب، وبعض الأرائك المغربية الخشنة... وكان الأمير يجلس في هذه القاعة مع أركان حربه، ويعاملهم معاملة الإخوان والزملاء في المعركة»²، كما يستقبل فيها ضيوفه من جميع الأطياف، وفي كل المناصب، الوضيعة كما الرفيعة لا فرق، المغاربة كما الأجانب.

ومن احترامه للآخرين أيضا، أنه لا يتورع عن الاعتراف بالفضل لمن هم أهله، وعن هذا الخلق يحدثنا محمد الرايس عن والده، كيف كان الزعيم يقوم الأخطاء ولا ينسى المحاسن أبدا، ويذكرها أمام الملأ. فمرة اشتكى مجاهدون من سوء تصرف قائد مجموعتهم أحمد بودرة، وكيف أنه تسرع بأمر إطلاق النار على رجل من المجاهدين قبل التثبيت، ولما كانت الطلقة غير مميتة، فبدل الاعتذار له والاعتراف بالخطأ، أنه ووبخه وهو الجريح الضحية، هذا إلى جانب أخطاء أخرى كثيرة. لكن الزعيم كان له رأي آخر بعد الاستماع لجميع المتكلمين، قال: «إن هذا الرجل يتوفر على حسنتين: أولا: عفيف زاهد لا يطلب لنفسه شيئا...ثانيا: مواظبته

1- محمد حسن الوزاني، مذكرات حياة وجهاد - التاريخ السياسي للحركة الوطنية التحريرية المغربية 2 حرب الريف، ص 360.

2- جلال يحيى، عبد الكريم الخطابي، ص 149.

على الحضور، لا يعرف للراحة معنى»¹. وكأنه بهذا الرد يؤكد لهم بأن الرجل مخلص للقضية، والمخلص حتى وإن أخطأ، فهو في طور التدريب على تحمل المهام، ومن الطبيعي لمن لا خبرة له الخطأ، والمطلوب من جميع الرجال النصيحة والتقويم بالحسنى، لا النيل منه والخط من كرامته بسبب ما لم يتعمده، وهو هذا احترام الشخص وعلم الآخرين احترام بعضهم البعض.

وضمن هذا العنوان أيضا، هناك شهادة البطل اليزيد الذي كلف بمهمة سرية في طنجة، وبعد أداء المهمة بنجاح والعودة إلى أجدير سالما، اتهم من طرف قائده بالخيانة من غير دليل، سوى خصومة سابقة بين عم اليزيد محمد أزرقان والقائد. فكانت النتيجة تحقيق دقيق مع القائد، ثم مع الزعيم، وبعدها الاعتقال بتماسينت مدة. إلا أن هذا الاعتقال انتهى بالتطوع لأداء مهمة صعبة وخطيرة عجز عنها آخرون. وهي مهمة فك شريط كهربائي ملغم يحيط به الإسبان ثكناتهم، لعرقلة اقتحام المجاهدين. إذ بمجرد ما يسمعون أو يحسون بحركة، يفجرون الشريط من الداخل، فيستشهد كل من كان قريبا منه. فأتثناء لقاء الزعيم باليزيد وأصحابه في جلسة تأديبية عن سمرهم وأصواتهم المرتفعة داخل السجن، انتهى اللقاء بطلب إطلاق سراحهم، بدل تركهم عاطلين، والمقاومة في أمس الحاجة إليهم. فتمت الموافقة على طلب اليزيد، مع الاتفاق على تكليفه وشخص آخر، للقيام بهذه المهمة الصعبة. فأطلق سراحهما وتمكنا من أداء المهمة بنجاح، حيث قطعنا الشريط بأسناننا، وجمعا الألغام وحملنا إلى مركز القيادة، ليلقاهما الزعيم مهنتا على نجاح المهمة، ومن جملة ما قاله لهما: «رضي الله عنكما وحفظكما جميعا». وقال للذي اتهم اليزيد بالخيانة: «أعد يا أخي ماء لنهني الشاي» فقال له: الماء جاهز «فقال له: «إذن أحضر الشاي والسكر والصينية لأحضر بيدي الشاي لهؤلاء الأبطال». وفعلا امتثل بسرعة، فقدمه لنا الأمير، وتناولناه جماعة من يديه، وشرب كأسه معنا. ثم قال لنا: «ماذا تحبون أن نكافئكم به يا أبطال؟» قلنا له: «يا سيدي محمد نحن لم نفعل إلا الواجب.» فقال لنا: «نعم، ولكن الإنسان يحتاج شيئا آخر إضافة إلى الضروريات:» فأمر لنا بقنطارين من الشعير والقمح وخمسة عشر ريبالا لكل منا، وودعنا بحرارة»². فمن خلال هذه المهمة تأكد الزعيم من إخلاص اليزيد، وأنه سجن ظلما، وأنه يستحق ومن معه إعادة الاعتبار، ويستحق الاحترام والتقدير بدل السجن، والاعتراف بالفضل، والشكر على الإخلاص، والتهنئة على النجاح والشجاعة في تنفيذ المهام. لذا جالسهما

1- شهادات عن المقاومة في عهد الزعيم محمد بن عبد الكريم الخطابي، ص 90 - 91.

2- شهادات عن المقاومة في عهد الزعيم محمد بن عبد الكريم الخطابي، ص 351.

وجهمز لهما الشاي وقدمه لهما بنفسه، وأسمعهما ما طيب خاطرهما وأثبت براءة اليزيد مما نسب إليه أمام الله والمجاهدين.

المبحث الخامس: الإحسان للأسرى

1- إحسانه للأسرى الأجانب

كان من نتائج معركة أنوال، أسر العديد من جنود الجيش الإسباني من طرف رجال المقاومة. وكان على رأس الأسرى الجنرال نبارو والكولونيل أراوخو، فحظيا بمعاملة خاصة من طرف القيادة. حيث منح كل منهما سريرا ووسادة ومكانا خاصا للنوم وإناء للشرب. أما باقي الأسرى فلم يضيق عليهم في شيء بل كانوا يطلبون الماء، فيأتيهم جيران مركز القيادة به لري عطشهم دون أن يمنعهم أحد من فعل ذلك. هذا إلى جانب أن الزعيم كان يظهر لهم ما يسكن روعهم، ويتفقد أحوالهم، ويحدثهم خاصة الضباط الكبار منهم.¹ وهذا القول يؤيد ما ذكره اسكيج عن معاملة الأسرى بقوله: «وأنزلوهم بالمحل المعروف بجديد أو شريك قرب المحل الذي يسكن به السيد محمد بن عبد الكريم، وقد تحافظوا عليهم، حتى أنهم دفعوا لهم الفرش التي عندهم بدورهم بمخدراتهم ووسائدهم، ويطبخون لهم في دورهم»². وهذا من الإحسان الجزيل، الذي وصل حد إطعامهم الطعام بكميات زائدة عن الحاجة، حتى أنهم كانوا يبقون ما زاد عن حاجتهم، وهو الأمر الذي كان يتأسف له المجاهدون بسبب الفقر والحاجة الشديدة إليه، وهو ما أشار إليه هذا القول: «وقد اعتنى السيد محمد بن عبد الكريم بشأن المسجونين، حتى أنه كان يطبخ لهم الطعام بداره ويوجهه لهم فيأكلونه، وما فضل عنهم يرمونه، ولا يرجعونه للمجاهدين الذين هم أحوج منهم إليه، ويتأسف المجاهدون على إضاعة ذلك الطعام الذي يفضل عنهم، كل ذلك من ابن عبد الكريم بمقتضى داعية الإنسانية التي حركت منه الشفقة على أعدائه»³. فالعناية بالأسرى والإحسان إليهم كانت أولوية، لذا كان يكثر الحديث عنهم، ويوصي بذلك أصحابه، كما «أصدر في بدء تأسيس

1- نفسه، ص 31- 32 بتصرف.

2- أحمد بن العياشي اسكيج، الظل الوريث في محاربة الريف، ص 26.

3- نفسه، ص 27.

الحكومة منشورا ينذرفيه بالقتل كل من يعتدي على أوربي لمجرد كونه أوربيا، أو يقتل أسيرا إسبانيا وفاقا للحقوق الدولية»¹.

لذا لا نستغرب ما فعله بأسرى أنوال، لما أمدهم بلوازم تمكنهم من الإقامة في السجن في ظروف أرقى ما يقال عنها أنها من الإحسان الذي أمر به الدين، ومن الأخلاق النبيلة التي يتحلى بها الزعيم. ينضاف إلى هذه المعاملة، التحية والكلمة الطيبة عند اللقاء، وهو ما أكدته شهادة محمد الرايس، ابن أخت الزعيم، حيث قال: «ولعل أروع مظاهر الاحترام والتقدير التي كان يعامل به الخال سيدي محمد الأسرى الإسبان، والتي كنت شاهدا عليها، أنه ذات يوم خرج من منزله كعادته يتنسم نسيم الصباح، ومر قريبا من باب دار الأسرى، واتفق أن تقابل وجها لوجه مع الجنرال نابارو خارجا هو الآخر صحبة الكولونيل أزاوخو، وكان من المعتاد السماح للأسرى بالفسحة خارج المعتقل، فرفع الجنرال الإسباني يده وأدى للزعيم تحية عسكرية، غير أن الزعيم أشار بيده معترضا عليه تقديمه للتحية العسكرية، وقال: «يفترض أن أقوم أنا بتحيتك بهذه الطريقة لأنني لست جنرالاً، ولا أحمل رتبة عسكرية»، فابتسم الجنرال في وجهه².

أما بخصوص الأسيرات والأطفال، فلم يتم الاحتفاظ بهم بالرغم من أسر عدد كبير منهم عقب أنوال، بل تم تسريحهم، والعناية بإيصالهم إلى ذويهم، حيث تم تهيئ المراكب لنقلهم إلى مرسى سيدي ادريس، ومنها ركبوا بحرا صحبة ابن سعيد السلاوي إلى مليلية. وبسبب المعاملة الحسنة، رفضت أسيرة تأخر أسرها عن تم ترحيلهم، السفر إلى أهلها، واختارت البقاء بأجدير، لما رأته من البرور بها. ولم تسافر إلا مجبرة، حيث أخذها السيد محمد أزرقان ودفعها لحاكم حجرة النكور الكولونيل (سلبانطو)³.

أما إذا كان من بين الأسرى جريحا، فلا بد من علاجه بما هو متوفر لديهم، وهو ما تؤكدته هذه الشهادة: «لقد ذهل الفرنسيون حينما وقع في قبضة الجبهة الدفاعية الريفية جماعة من الأسرى الفرنسيين غالبيتهم ضباط، ومعهم عناصر أخرى كجنود أفارقة جزائريون وتونسيون وسنغاليون وماليون مرتزقة مساقين إلى الحرب. وذات مرة، وقد جن جنونهم حينما رأوهم منطرحين أرضا يستحمون، وجلهم سود أفارقة، فانطلقوا يمطرونهم بوابل

1- رشدي الصالح ملحس، سيرة الأمير محمد بن عبد الكريم الخطابي بطل الريف ورئيس جمهوريتها، ص 38.

2- شهادات عن المقاومة في عهد الزعيم محمد بن عبد الكريم الخطابي، ص 33.

3- الظل الوريث، ص ص 27 - 28 بتصرف.

من القذائف على ارتفاع منخفض من طائراتهم المغيرة، وكانت الضحايا المبعثرة أشلاؤهم وأنات الجرحى الكثيرين تبعث على الأسى والاندهاش»¹. فهذه الشهادة تشير إلى قضية التعطش للدماء، وكيف أن الطائرات الفرنسية تقصف أسرى تابعين للجيش الفرنسي لا شيء سوى ليخس ثمنهم، لكونهم مرتزقة وليس فرنسيون. فأمطروهم بوابل من القذائف لمجرد رؤيتهم يستحمون، كرد فعل عن المعاملة الحسنة التي تلقوها من طرف الريفيين.

وفي المقابل، نجد أنه من حسن صنيع المقاومة في هذه الحالة، حرصها على توفير العلاج للجرحى بعد قصفهم، حيث كان للمقاومة طبيب يدعى محبوب الوزاني الطنجي، حضر من طنجة إلى أجدير برفقة مساعدين له لعلاج جرحى المقاومة، ومن بين أعماله البطولية علاج جرحى هذه الغارة. يؤكد هذا المجهود شهادة محمد بن عبد الكريم في إحدى الرسائل التي نشرتها مجلة الكرامة، العدد 5، يناير 2000، ص 24، ونقلها الشاهد في مذكراته. «يعلم من كتابنا هذا أسماء الله وأعز أمره، أننا بحول الله وقوته نعترف لحامله الطبيب النظامي السيد محبوب ابن المقدم السيد محمود الطنجاي بحسن السيرة والجد في العمل مدة إقامته عندنا بالريف، ولقد قام بمهنته الشريفة التي خدم بها الإنسانية من مداوة الجرحى وتطبيب المرضى أحسن قيام، بل ولقد تعدى نفعه حتى للأجانب من أسارى الحرب الذين وقعوا بأيدينا جرحى، ووجبت مواساتهم، حسب ما تقتضيه الإنسانية...»²، لكن عكس هذه المعاملة هو ما وجد لدى عدوهم كما جاء في هذه الشهادة للسيد أحمد بن الحاج موحد شيدّي عن أسرى الريف في يد الإسبان، إذ قال: «وفعلا انزلوا من الباخرة إلى البرفي حالة يرثى لها. لقد كانوا ممددين مكبلين على سطح الباخرة. بجانب صناديق المال، لفحتهم الشمس، وأيبس العطش حلقهم، وكانوا يتبادلون الأحاديث مع المستقبلين لهم بأصوات خافتة مبسوحة، مع أنهم ليسوا بأسرى حرب، بل كانوا متواجدين على غرة وصدفة أثناء معركة أدهار أوبران في مهمة تجارية بسببته بزورقهم المشحون بالبيض»³. فالفرق كبير بين من عامل أسرى الحرب أسروا أثناء المعركة بقمة الإحسان والأخلاق، وبين من أسر مدنيين يمارسون تجارتهم، فعاملهم معاملة سيئة، لا لسبب سوى كونهم من الريف المقاوم لاحتلالهم. فزعيم المقاومة الريفية أحسن للأسرى وطلب من رجاله الإحسان إليهم، وغضب وتأسف

1 - شهادات عن المقاومة في عهد الزعيم محمد بن عبد الكريم الخطابي، ص 36.

2 - نفسه، ص 37.

3 - نفسه، ص 135.

مرات لسوء صنيع رجاله بهم أحياناً، كما حدث أثناء نقض العهد من بعض رجاله عقب أنوال لما كان رجال المقاومة يتعقبون الفلول المتدهورة، ففوجئوا بالجنرال «نافارو» لا يزال مستميتاً في الدفاع حتى وهو معزول من قواته من جميع الجهات، وهو يعاني من جروح بليغة لا يقوى معها على النهوض، فطولب بالاستسلام والخروج بأمان. فلما وافق واستسلم، فوجئ ومن معه من الجنود بإطلاق الرصاص عليهم، فمات من مات من جنوده وبقي هو أسيراً ومعه سرجان يدعى «باسايو» كما قال الشاهد مولود بن موحد، «فأسعف الجنرال الجريح من طرفنا، وأسف الزعيم الكبير لما حدث من التسرع لإبادة المحاصرين العزل أثناء الاستسلام نقضاً للعهد، وقد سره أن ينجو الجنرال»¹. أي أنه لم يبارك تسرع رجاله بإجهازهم على من أمن على حياته من أجل الاستسلام، بل على العكس من ذلك، أنب من غدر دوماً لأن الغدر ليس من أخلاق المسلم، كما جاء في هذا القول: «يا بني سعيد، كيف بكم تغدروهم بعدما أعطيتموهم الأمان، ونحن المسلمون نوفي بالعهد»²، لذا لا يُستغرب سروره بنجاة الجنرال من هذا التصرف العشوائي.

أما عن المؤسسة السجنية التي كان يودع فيها الأسرى كما قال محمد الرايس، «كانت المؤسسة السجنية التي استحدثت لأول مرة في تاريخ الريف، تتوفر على ميزات خاصة: أبواب السجن لا تغلق على السجناء إلا في الليل، وكانوا لا يمنعون من التحرك والاستجمام في فناء السجن والاتصال بينهم طوال النهار، والسجن يتألف من حجرات صغيرة، كل سجين يشغل مساحة كافية طولاً وعرضاً، وكما لا أغلال ولا سلاسل ولا تعذيب ولا ظمأً. هذا بالنسبة للوافدين من بعيد. أما بالنسبة للآتين من قريب فإن أهلهم يقدمون لهم الطعام»³. كما كان لهؤلاء الأسرى حرية الجلوس في الخارج على مصطبة في الهواء الطلق صنعوها بأيديهم، وقت الضحى إلى الزوال، وبعد العصر إلى المساء، كما كانت مباحة الاستعمال في أي وقت كان، وهي قريبة بنحو مائة متر من بناية المعتقل⁴. أي أن الأسرى لهم كامل الحرية في الخروج إلى فناء المعتقل، والجلوس سواء في الصباح أو المساء، والاستمتاع بالهواء النقي، والتعرض لأشعة الشمس، وتبادل أطراف الحديث، فلا حبس انفرادي على جرائم الحرب، ولا قيود من حديد...

1 - نفسه، ص 247.

2 - الظل الوريث في محاربة الريف، ص 27.

3 - شهادات عن المقاومة في عهد الزعيم محمد بن عبد الكريم الخطابي، ص 223.

4 - نفسه، ص 341.

بل على العكس من ذلك، يشهد محمادي الحاتمي أحد رجال المقاومة عن وصية محمد بن عبد الكريم بالإحسان للكولونيل «موراليس» والجنرال «مارينا» اللذان كانت له بهما علاقة ودية لما كان قاضيا بمليلية، إذ قال: «وقد كان الزعيم يوصي رفاقه بأن يعملوا ما في الإمكان، إذا ما وقعا في أيدي المجاهدين، أن يبقيا على حياتهما باهتمام خاص. كيف لا وقد كانا منسجمين في الآراء ذات الصبغة التحريرية والديمقراطية. وكما كان منسجما مع الجميع لوداعته وحسن أخلاقه»¹، لذا عامله الزعيم بما يليق بموقفه حيا وميتا. إذ لما تحقق الزعيم من وفاته رغم حرصه على حياته، سهل مأمورية نقله من أجدير تقديرا لمواقفه النبيلة معه، وتقديرا لطلب زوجته ذلك، خاصة وأنها قامت على خدمته بنفسها حينما كان زوجها يتفاوض مع الزعيم في مدينة مليلية قبل بدأ الحرب². وكذا الكومنداتي «سيميونس»، الذي تأسف الزعيم كثيرا على مقتله، حيث قتل أثناء الانسحاب من أنوال، فتعامل بمنتهى الإحسان مع ذويه لما رغبوا في نقل جثمانه من أرض الريف، حيث مكثهم من حمله على متن سفينة حربية ملفوفا في أغطية عسكرية، وفي هدوء تام، مع تمكينهم من تطبيق طقوسهم المتبعة على الموتى دون أدنى اعتراض³. وقد كان القبطان سيموني مراقبا على الأمير يوم كان قاضيا، وهو الذي عينه كاتبا عاما للجنرال «إيسبورو» حاكم مليلية ونواحيها، كان محبا ناصحا لقضية الريف، علم الأمير من مصادره الخاصة أنه خرج في جيش نبارو مكرها، لذا كان الأمير متفقا مع رجاله إذا ما تم أسره فسيسرحه بعد ضيافته أياما قد لا تتجاوز السبعة أيام⁴.

ولما تحقق الأمير من وفاة الجنرال «سيلبيستري» أيضا، تأسف عليه غاية الأسف وقال: «وددت لو كان سقط في أيدينا حيا لنبربه ما تبر الرجال بالرجال، ويرجع لأولاده وشعبه وملكه سالما موقرا»⁵.

2- الإحسان للأسرى المغاربة

فإذا كان الزعيم عامل الأسرى الإسبان معاملة حسنة، فما عساه يفعل مع المغاربة المسلمين؟ فلا شك سيعاملهم معاملة حسنة أيضا، وهذه حقيقة أكدتها شهادات رجاله عن

1 - نفسه، ص 367.

2 - الظل الوريث في محاربة الريف، ص 27.

3 - شهادات عن المقاومة في عهد الزعيم محمد بن عبد الكريم الخطابي، ص 367.

4 - نفسه، ص 426.

5 - نفسه، الصفحة نفسها.

أهم هؤلاء الأسرى، حيث ذكر الشاهد اعمار بن موح سعيد عن الريسوني ومعركته الأخيرة مع المقاومة الريفية في تزروت، وعن كيفية التعامل معه، والتوصيات التي أعطيت له ولزميله أحمد اخيرو كقائدين للعملية، للعناية به وبذويه وخدمه أثناء اقتحام قصره، إذ قال: «والشيء الذي أوصيك به وهو من ذيول المعركة أن تعمل في الحساب على صيانة أسرته بصرامة وانتباه، وإياك ثم إياك أن تتهاون في السماح لأحد أن يلج القصر، ومقر الأسرة بأسلوب الفوضى، فللقوم أحقاد وأغراض، فمسؤوليتك كجندي نظامي أعظم من أي أحد، ولي اليقين بأنك موفق كل التوفيق»¹.

تم الاقتحام كما طلب الزعيم محمد بن عبد الكريم في هدوء وسلام، حيث انتهت المعركة ليلا بوقف القتال بأمر من الريسوني لرجاله بذلك. وحتى مع وقف القتال لم يتصلا به إلا في صباح الغد، رغبة في عدم إزعاجه وقد حل الظلام. ولم يعتقلوا إلا حرسه وأودعوهم سجنه، بعدما تم إطلاق سراح حوالي المائة من مساجين الريسوني الذين كانوا في حالة يرثى لها، فأطعموهم وسقوهم ثم تركوهم لحال سبيلهم. ولم يتقدم احمد اخيرو للريسوني حتى الصباح، إذ قال: «وفي الصباح، بعد طلوع الشمس، تقدمت للسلام على الشريف مولاي أحمد الريسوني، قلت له: أنت ونحن مسلمون لا أقل ولا أكثر، اطمئن أيها الشريف، فأنت عندنا في مقام التعظيم رغم ما حدث»². فاطمأن لهذا التقديم، فما كان منه إلا أن أوصى خيرا بنسائه، فأجابه اعمار بن موح سعيد رفيق اخيرو «أيها الشريف ليس بيننا من يفكر في نيل أحد بأذى، للنساء حرمتهن، وللأطفال والحاشية كذلك، وللعاجزين، كذلك للمقاتلين إذا ما احترموا أنفسهم»³. كما طمأن أيضا خالد ابن الشريف الريسوني ومولاي علي ابن أخ الريسوني على نفسيهما وأهلهم، وأنه لا يوجد نية في قتلهم ولا القصاص منهما، إذ الأوامر كانت عكس هذه الظنون التي عبر عنها خالد، لما أخبره بأنهما سينقلان إلى المقر العسكري، في انتظار نقلهما إلى مركز القيادة بأجدير. إذ قال خالد الريسوني: «هل لأجل قتلنا؟» فكان الجواب «لو أمكنتي أن أتركك وشأنك لتركتك تائها هنا، ومعرضا للإهمال حتى تطمئن نفسك على أهلك. اعلم أننا لا نريد منكم إلا شيئا واحدا، هو الانسجام معنا كإخوان، إنني مأمور لتقديم المساعدة لكم طالما أنكم تبادلوننا حسن النية وسلامة الطوية...هل تعلم

1 - نفسه، ص 176.

2 - نفسه، ص 177.

3 - نفسه، ص 178.

أننا كجيش يطيع الأوامر من رؤسائه قد زدنا الأمير بتعاليم الحفاظ عليكم، واحترامكم أنت وكل من له صلة قرابة بكم، والذي أرجوه أن تتذكروا معاملتنا معكم ونحن غائبون في الدنيا والآخرة»¹. وهذه شهادة تؤكد مدى التزام قائدي العملية لأوامر القيادة، ولم تغرهما أحقاد جباله على الشريف الريسوني، ولا ما وجدوه من مغريات مادية داخل قصر الريسوني عن إنجاز عملية الاقتحام، مع الاحترام التام لصاحب القصر وأهله وحاشيته.

قال الشاهد الطيب الحداوي فيما تعلق بأسر الشريف أحمد الريسوني وموقف أهالي جباله عن مصيره، وموقف محمد بن عبد الكريم المناقض لهم. فحينما ألقى القبض على الشريف الريسوني في زاويته بتزروت هو ومن معه من أقاربه وحراسه، استفتى أخو الزعيم السيد امحمد بن عبد الكريم فقهاء جباله فيما يرونه واجبا في حقه، فأفتوا جميعهم بإعدامه باستثناء أحدهم يدعى مولاي الطيب، وبما أن الفتوى تضمنت الحكم بالإعدام له ولمن معه من الرجال دون النساء، اتصل امحمد بن عبد الكريم بأخيه الزعيم بمركز القيادة، وأطلعته على نص الفتوى وإجماع الفقهاء باستثناء موقف مولاي الطيب. فاستحسن الزعيم رأي هذا الأخير بالرغم من تفرده، ورفض رأي الأغلبية قائلا: «اسمع، رأيي في الرجل وفي المفتين والمصممين على فكرة إعدامه، أولا بلغ شكري وإعجابي بالمولي الطيب، أما أولئك المستشارين، فليتهم فكروا ووقفوا ولو قليلا في وضعه الصحي والعقلي، وكيف عمي عليهم الاهتداء وهم يثبتون في فتواهم وهو بأتمه وفي حالة صحة وطوع وجواز؟ إن الشريف الريسوني لا يعدو أن يكون إحصارا اندفاعيا غير موجه، اسمع يا أخي انظر كيف تجعله في مكان آمن تحت رقابتك، ومعه حاشيته، وبما أن الوضع كما بينت، فيظهر لي أن تبعث به إلى هنا كضيف نستسيغ غصته»². فهذا الرأي وهذا الاختيار ينم عن قمة الأخلاق ورقة الإحساس في مراعاة حالة أعدائه الصحية وحالة السن، فيكرمهم بالرغم من الإساءة التي ألحقوها بحركته. لذا حرص على نقله للريف حرصا على حياته بالدرجة الأولى. وهذا ليس خاصا بالريسوني وحده بصفته زعيما، ولكن حتى بالنسبة لرجال الريسوني، وبالضبط الجماعة التي دافعت عنه حتى آخر لحظة، وهم حوالي الأربعمئة محارب، كان رأي الزعيم في تقرير مصيرهم في قمة اللباقة والتقدير والاحترام، حيث قال بضرورة تخييرهم: «من أراد أن ينضم إلى المجاهدين فله ذلك، ومرحبا به، ومن أراد أن يلازم داره فله ذلك أيضا، ومن أراد محبة في عدو الله،

1 - نفسه، الصفحة نفسها.

2 - نفسه، ص ص 324 - 325.

فافسح له الطريق ليلتحق به، ولا أمل في قبوله كجندي على مضض في حضيرة المسلمين»¹. وبالفعل تم تنفيذ هذا الاختيار بالرغم من معارضة أهل الجبل لهذا القرار وعدم سرورهم به، ليطبق مرة أخرى أعظم خلق وهو العفو عند المقدرة. حيث تم نقل الريدسوني إلى الريف ومعه امرأة واحدة وبنت وخادم، في ظروف مريحة، حيث كانت أوامر القيادة تقضي بالإحسان إليه، وتجنب مضايقته سواء بالفعل أو القول، و«بذلت جهود لنقله بسلامة وراحة، فهو محمول على محفة مريحة يتناوب عليها أكثر من مائة رجل. يستند بنصفه العلوي شبه جالس على وسادات مناسبة لراحته»². هكذا تم نقله في البر حتى وصل شاطئ وادلو، لينقل بحرا إلى تماشينت، حتى أنه بالرغم من طول الرحلة لم يظهر عليه مظهر الاستياء، بل على العكس، كان يتحدث مع مرافقيه من الريفيين حينما يرغب في ذلك، ولا يبدوونه هم بالكلام امثالاً للأوامر التي قضت بعدم إزعاجه. ويشجعهم على التجديف ويترضى عليهم، فسارت الرحلة في جو من الأناج حتى أوصلوه إلى شاطئ يليش من قبيلة آيت بوفراح، حيث انتهت مهمة هؤلاء المرافقين الذين أنسوا به وأنس بهم، وألفوه وألفهم، فودعوه متأثرين بفراقه بعدما أمد قائد المجموعة في هذه الرحلة والشاهد عليها بأربعمائة دورو إسبانية، بشرط أن يمكن باقي البحارة من نصف المبلغ³. ثم خلفهم مرافقون آخرون لما تبقى في البر من الشاطئ إلى مكانة إقامته.

فمثل هذه الأخلاق هي التي ذللت له الصعاب، حتى ضمن ود أهله وعشيرته، فانقادوا لأحكامه وأوامره طواعية. كما ضمن احترام جميع أحرار العالم، فأصبح «للأمير ابن عبد الكريم نفوذ بين مسلمي إفريقية الشمالية لم يسبق له مثيل منذ عهد الأمير عبد القادر، وهو حاكم مطلق على ألوف من الناس بمحض إرادتهم واختيارهم. مع أنهم لم يخضعوا قط فيما مضى لزعامة رجل واحد، فأوامره تطاع وضرائبه تؤدي من دون أدنى تدمر»⁴.

فمن خلال هذه الجولة مع أخلاق الزعيم محمد بن عبد الكريم الخطابي، وكيف كان يعيش، وكيف وأين كان يستقبل ضيوفه؟ وكيف تصرف مع المخلصين، كما الخونة وذوهم، وعصاة الأوامر، وسيئي التصرف لسبب من الأسباب، وكذا تصرفه مع الأسرى المغاربة كما الإسبان، وكذا الجرحى؟ نلمس سمة من سمات التفوق، وعامل مهم من العوامل المساعدة

1- نفسه، ص 325.

2- نفسه، ص 149.

3- نفسه، ص 148 - 149 بتصرف.

4- نفسه، ص 34.

على النجاح في تنظيم حركة مقاومة، ووجه من وجوه الشخصية التي قادت أنوال بنجاح وانتصار ساحق على الاحتلال. كما نلمس أهم أسباب الاحترام الذي حظي به من لدن رجاله، حتى وصل إلى رفض أحدهم حقيقة موته وانتهاء أجله، وإصراره على قوله، أن الزعيم لم يمت بل رفع إلى السماء¹. وبهذا أكون قد قدمت جانبا لا يقل أهمية، بل قد يسبق غيره من الجوانب، التي تعتبر مصدر قوة ونجاح الزعيم في مشروعه الإصلاحية كما الجهادي.

1 - «شهادات عن المقاومة في عهد الزعيم محمد بن عبد الكريم الخطابي»، ص 329.

موقف الفرنسيين من انهزام الإسبان في معركة أنوال 1921: جذور الموقف وبعض تجلياته

ذ. محمد العزوزي

باحث في التاريخ - فاس/ المغرب



مقدمة:

شكلت المقاومة الريفية معادلة صعبة في المخطط الفرنسي والإسباني، الذي كان يأمل في تحقيق احتلال سريع للمغرب، حيث عبرت المقاومة على مستوى عالي من التنظيم والوعي الوطني تجاه الأهداف الإمبريالية، مما جعلها تحظى باهتمام علمي واسع. وتأسيسا عليه لا نسعى من خلال هذا المقال إلى دراسة ظروف هذه الحرب ونتائجها، كما تطرقت إلى ذلك دراسات أكاديمية جادة منها، كتابات جرمان عياش، ومحمد خرشيش وغيرهم، وإنما إلى الوقوف على إشكالية موضوعية تتمثل في إبراز جانب من العلاقات الفرنسية الإسبانية بالمغرب من خلال حدث معركة أنوال، التي خلفت كما هو معلوم انعكاسات سيئة على الواقع الإسباني.

اتسمت العلاقات الفرنسية الإسبانية بالمغرب، بنوع من التوتر وعدم الانسجام، بسبب تضارب المصالح الاستراتيجية للطرفين. واتضح معالم الصراع بشكل واضح منذ بداية العقد الأول من القرن العشرين، الذي تميز بتكثيف وزارة الخارجية الفرنسية لأنشطتها الدبلوماسية مع القوى الأوروبية المهتمة بالمغرب، قصد الوصول إلى تسوية ثنائية للمسألة المغربية. وفي هذا الإطار نجحت حكومة باريس في التوصل إلى اتفاق مرضي مع إيطاليا سنة 1901، واتفاق موازي مع إنجلترا سنة 1904¹. بينما ظلت جلسات المفاوضات بينها وبين

1- محمد العزوزي، «المغرب في الصراع الفرنسي الإنجليزي: نحو تسوية ثنائية للمصالح المشتركة (1902-1912)»، ضمن: مجلة مدارات تاريخية، المجلد الثاني، العدد 6، يونيو 2020، ص ص 376-377.

الحكومة الإسبانية في نونبر 1902 وأكتوبر 1904 تكلل بالفشل، بسبب صعوبة التوصل إلى صيغة مناسبة لتقسيم مناطق النفوذ بالمغرب. هذا التقسيم الذي تميز من جهة بغموض وتغير مواقف الحكومة الفرنسية بتغير مصالحها الخارجية، ومن جهة ثانية بتشبث الإسبان بمجال نفوذ واسع يمتد إلى فاس، ويُحقق لحكومة مدريد نفس الامتيازات التي طرحها فرنسا بخصوص وضعها القانوني والاقتصادي بالمغرب.

انعكست هذه المواقف المتباينة، على طابع العلاقات الفرنسية الإسبانية بالمغرب طوال المرحلة الاستعمارية (1912-1956). وشكل انهزام الإسبان في معركة أنوال في يوليوز 1921 حالة معبرة عن واقع العلاقات بين الجانبين، حيث ظل الفرنسيون يراقبون عن بعد أبرز التطورات، ويتلذذون بالانهزامات المتتالية للجيش الإسباني أمام قوات محمد بن عبد الكريم الخطابي، ولم يتدخل الجيش الفرنسي إلا بعد أن أصبحت المقاومة الريفية تهدد مصالح فرنسا بالمنطقة الحدودية لاسيما منطقة حوض ورغة.

إذن، يطرح الموضوع جانبا من العلاقات الثانية لفرنسا وإسبانيا بالمغرب خلال مرحلة حساسة من تاريخ المغرب المعاصر وهي مرحلة «الحماية»، ويسعى إلى المساهمة في مناقشة إشكالية محورية، تتمثل في إبراز جذور تشكل موقف الفرنسيين من انهزام الإسبان في معركة أنوال ورصد بعض تجلياته في الواقع. ولتسهيل مناقشة هذه الإشكالية، قسمنا الموضوع إلى محورين أساسيين هما:

- جذور تشكل الموقف الفرنسي؛

- معركة أنوال يوليوز 1921: السياق والتجليات.

1. جذور تشكل الموقف الفرنسي

تميزت العلاقات الفرنسية الإسبانية بالمغرب طوال مرحلة الحماية بالحذر والتقرب، وعرفت أحيانا أزمات كادت تعصف بطابع العلاقة بين الجانبين، الذي حددته اتفاقية 27 نونبر 1912. ولا يمكن فهم أسباب الموقف الفرنسي تجاه إسبانيا وانعكاساته، إلا بالرجوع إلى ماضي العلاقات الثنائية، التي سنبرز بعض جوانبها من خلال محورين أساسيين، الأول؛ يتعلق بظروف تقسيم المغرب، والثاني بطابع العلاقات بين الجانبين بالمغرب خلال مرحلة ما قبل معركة أنوال.

1.1 (ظروف تقسيم المغرب (1900-1912)

خلق موقع المغرب الاستراتيجي صراعا دبلوماسيا بين الدول الاستعمارية، من بينها فرنسا وإسبانيا، حيث أصبحت الدوائر الحكومية للدولتين تتحدثان منذ سنة 1894م على دراسة «المصالح المشتركة للبلدين بالمغرب»¹. وفي يونيو 1900م توصل وزير الخارجية الفرنسي «تيوفيل ديلكاسي» (Théophile Delcassé) والسفير الإسباني بباريس «فرناندو ليون واي كاستيلو» (Fernando León y Castillo) إلى توقيع اتفاق مشترك ينص على وضع حدود «الممتلكات» الفرنسية والإسبانية بإفريقيا الغربية². وقد حددت هذه الاتفاقية مجال نفوذ الدولتين في الصحراء المغربية؛ فمن جهة جعلت جزء منها من نصيب إسبانيا، وتركت الحدود الشمالية للصحراء غامضة. ومن جهة ثانية احتفظت الاتفاقية لفرنسا من ناحية الجنوب؛ بمنطقتين ذات أهمية اقتصادية كبيرة، وهما المسطحات المالحة في إيدجيل (Idjill) وخليج موريتانيا المليء بالثروة السمكية³.

وضعت حكومتي باريس ومدريد بموجب هذه الاتفاقية أولى الخطوات لتقسيم المغرب، حيث حصلت إسبانيا على جنوب المغرب، واعترفت إسبانيا بحق فرنسا في إطلاق يدها على موريتانيا، في حين ظل مجال «الحدود الشمالية للصحراء» على حد تعبير الباحثة «فلورنس بيرن» (Florence Bernault) -المهتمة بتاريخ إفريقيا جنوب الصحراء - دون تقسيم.

في بداية القرن العشرين، برزت أصوات داخل الحكومة الإسبانية تدعو إلى ضرورة التقرب من الفرنسيين لتدارس المصالح المشتركة بشأن المغرب، وكان مصدر هذه الدعوة أعضاء الحزب الإسباني المحافظ بزعامة «فرانسيسكو سيلفيللا» (Francisco Silvela)⁴ الذي

1 - André Tardieu, « France et Espagne (1902- 1912) », in ; *Revue des deux mondes: recueil de la politique, de l'administration et des mœurs*, Paris, 1912, p.635.

2 - Note sur les frontières interzonales du Maroc 09 Décembre 1912, ministre des Affaires étrangères; in carton N; 253.

3 - Florence Bernault, *Enfermement, prison et châtements en Afrique du 19e siècle à nos jours*, Editions, KARTHALA, 1 jan. 1999, P.389.

4- فرانسيسكو سيلفيللا، مؤرخ إسباني ومحامي ورجل دولة، تولى عدة مناصب سياسية؛ رئيس مجلس الوزراء خلال فترة ولاية ماري كريستين دي تيشين وأثناء حكم ألفونس الثالث عشر، عُيِّن أيضا في السنوات ما بين 1879 و1900 وزيرا للداخلية والعدل والبحرية.

دعا إلى ضرورة التحالف مع فرنسا لتأمين المصالح الإسبانية، عكس الحزب الليبرالي الذي كان يرفض الزج بإسبانيا في تحالفات سياسية غير محسومة النتائج¹.

ساهمت هذه الدعوة التي نادى بها الحزب الإسباني المحافظ، في فتح باب المفاوضات في نونبر 1902 بين ديلكاسي والسفير الإسباني بباريس «ليون واي كاستيلو» في جو يطبعه السرية. وتوصل الطرفين إلى مشروع اتفاق، ضم إحدى عشرة مادة، همت التنظيم الإداري والجمركي لمنطقتي النفوذ، إضافة إلى طرح صيغة نظرية لتقسيم المغرب. في هذا الإطار اقترحت فرنسا الاحتفاظ بوسط المغرب، وتحويل إسبانيا حق السيادة على شمال المغرب إلى حدود فاس، مع اقتطاع منطقة إضافية جنوب المغرب².

كان هذا العرض، مرضيا تماما لطموحات حكومة مدريد، حيث حوّل لإسبانيا منطقة نفوذ واسعة بشمال المغرب تمتد إلى جنوب فاس، مشتملة بذلك على مراكز حضرية من أهمها؛ تازة والقنيطرة على الساحل الأطلسي، إضافة إلى منطقة نفوذ أخرى جنوب المغرب. غير أن الحكومة الإسبانية ماطلت في اتخاذ قرار بخصوص توقيع نص الاتفاق، وقررت في دجنبر الامتناع عن توقيعه، مما أثار موجة من الاستياء في صفوف الرأي العام الإسباني، الذي رأى أن المجال الذي نص عليه الاتفاق يرضي مطامح الإسبان³. أما فرنسا فقد كان قرار الامتناع في صالحها، حيث أن مشروع الاتفاق قدّم تنازلات جغرافية هامة لإسبانيا وجعل فاس؛ المتحكمة في حركة المرور بين الجزائر والمحيط الأطلسي من نصيب الإسبان، وهو ما أثار سخطا ضد «ديلكاسي» الذي تعرض لوابل من الانتقادات، من طرف بعض أعضاء الحكومة الفرنسية، ومنهم «رينيه ميه» الذي كتب:

«إن إعطاء فاس لإسبانيا، معناه أن طريق الأطلسي والمنفذ إلى سهول الغرب الغنية سيكون مغلقا، طالما أن فاس تتحكم في ممر تازة الباب الوحيد للمغرب»⁴.

1 - M. PATENÔTRE, Ambassadeur de France à Madrid à AMBASSADEUR DE FRANCE À DELCASSÉ, Ministère de Affaires étrangères, In; D.D.F 2^{ème} série (1901-1911-), Tome 1, Ministère des affaires étrangères, Commission de publication des documents relatifs aux origines de la guerre de 1914, édition, Imprimerie nationale Paris, 1931-1955, pp. 586-887.

2 - Sahara Occidental, Cour international de justice mémoires. Plaidoiries et Documents. Vol. 3, 1981, p. 109.

3 - محمد خير فارس، المسألة المغربية 1900-1912، مكتبة دار الشرق، بيروت، ط 2، 1980، ص 16.

4- نفسه، ص 163-164.

ظلت العلاقات بين الطرفين، إلى حدود مفاوضات نونبر 1902 تتصف بطابع متميز، نظرا لكون مشروع الاتفاق احترام مصالح الطرفين، وأقطع مجال جغرافي لبي طموحات الإسبان. غير أن التنازلات التي قدمتها فرنسا بخصوص المغرب، لكل من إيطاليا سنة 1901 وإنجلترا سنة 1904 أفرزت أزمة في العلاقات مع إسبانيا، فقد أدى فشل المفاوضات إلى اختفاء مسودة مشروع التقسيم، وظل العرض الذي قُدم إلى مدريد في هذه المناسبة خالداً في أذهان الإسبان، وترتب عن ذلك توتر دبلوماسي بين حكومي فرنسا وإسبانيا¹.

في هذه الظروف، توصلت فرنسا لاتفاق مع إنجلترا في أبريل 1904 نصت المادة الثانية منه؛ على أن الحكومة الفرنسية لا تنوي تغيير وضعية المغرب السياسية، وتعترف الحكومة الإنجليزية نظرا لمجاورة ممتلكاتها للأراضي المغربية، بأن تسهر فرنسا على حماية أمن المغرب، وأن تقدم له كامل مساعدتها. كما تعلن عدم عرقلتها للإجراءات الفرنسية التي تهدف إلى تحقيق هذه الغاية، شريطة ضمان حقوق بريطانيا المستمدة من المعاهدات والمواثيق الدولية. إضافة إلى المادة الثالثة التي تخول نفس الامتيازات بخصوص الاعتراف بالوجود البريطاني في مصر ورعاية حقوق فرنسا به².

تقوت فرنسا بنص هذا الاتفاق، وتمكنت عبره من إزاحة خصم عنيد في المسألة المغربية، أما الرأي العام الإسباني فقد عبّر عن استيائه من هذا التقارب. وبما أن المفاوضات عُقدت في سرية تامة، لم يعلن عن مجرياتها إلا بعد النجاح في توقيع نص الاتفاق، حيث شكل الخبر صفقة تلقاها الإسبان، ولخص السفير الفرنسي بمدريد «بول كامبون» الرصيد الصحافي الإسباني بهذا الشأن في تقرير رفعه لديلكاسي حيث كتب:

«تلقت الصحافة الإسبانية في برشلونة كما هو الشأن في جميع المراكز الكبرى الأخرى خبر الاتفاق الإنجليزي-الفرنسي بشكل سيء؛ فإن المقالات التي تنشرها الصحف التي تمثل مختلف الأحزاب ليست متعاطفة أبدا مع إنجلترا وفرنسا، ولها موقف أكثر مرارة تجاه فرنسا،

1 - Jesus Maria Martinez, «España y Francia en el sur de Marruecos: Intereses delimitación de fronteras y contencioso territorial, 1900-1912» In: *Estudios de Asia y africa*, vol.50 N° 1, Ciudad de México ene, 2015, p 117.

2- Ouvrage collectif, *les Accords franco-anglais du 8 avril 1904, appréciation critique*, édition, Hachette Livre, Paris, 1905. p. 151.

يبدو أنهم توقعوا كل شيء من إنجلترا، ولكن فيما يتعلق بفرنسا هناك خيبة أمل، وتعبير عن صداقة خاطئة»¹.

كما شكك الصحفيون الإسبان في كفاءات الأحزاب السياسية بنوعها؛ الليبرالية والمحافظ، وفي بعض الزعماء السياسيين كالسفير الإسباني بباريس «ليون واي كاستيلو»، وطالبت بإحالة سفير إسبانيا بلندن «الدوق ماندانس» (duc de Mandas) على التقاعد، وبخذلان الحكومة الفرنسية والإنجليزية للمصالح الإسبانية في المغرب. وفي حوار صحفي نشر في جريدة «Liberal d'aujourd'hui» صرح «مونتيرو ريوس» (Montero Rios) المعروف في الأوساط الصحفية الفرنسية بمناهضته لسياسة حكومة بلده بخصوص مصالح إسبانيا بالمغرب:

«لا زلنا، سجناء لفرنسا بسبب اتفاقها مع إنجلترا، نأمل أن تكون حكومة الجمهورية أكثر لطفاً تجاه إسبانيا»². وأضاف «إنني أدرك حرية إنجلترا وفرنسا في التعامل مع هذه المسألة دون الاهتمام بنا، ولكن يجب الاعتراف أيضاً بأنهم لم يقدموا أدنى دليل على الصداقة والتفكير في بلد صديق هو إسبانيا»³.

في الوقت الذي ظل الاستياء يخيم على الرأي العام الإسباني طيلة الفترة ما بين شهري أبريل وأكتوبر 1904، انطلقت محادثات جديدة بين فرنسا وإسبانيا بوساطة إنجليزية، ويتضح من وثائق وزارة الخارجية الفرنسية، مدى التصلب الذي أصبح يتسم به الجانب الفرنسي، الحريص على فرض تقطيع جديد على إسبانيا، وتخوف هذه الأخيرة من إثارة التقسيم لردود فعل سلبية من طرف الكورتيس والرأي العام الإسباني، وهو ما نلمسه في رسالة مؤرخة في 23 أبريل من السفير الفرنسي في مدريد إلى وزارة الخارجية.

«بالأمس، تحدث معي السيد «سان بيدرو» (وزير خارجية إسبانيا في لندن) عن المبادرات التي قدمناها إلى «ليون واي كاستيلو» فيما يتعلق بالاتفاق الذي سيجري بين فرنسا وإسبانيا، تنفيذاً للمادة 8 من الاتفاق الفرنسي الإنجليزي، ورغم أنه كان يعلم أن المفاوضات يجب أن

1 - M. Paul Cambon, Ambassadeur de France à Londres à M. Delcassé, Ministre des Affaires étrangères, in: D.D.F 2^{ème} série, Tome 5, Ministère des affaires étrangères, Commission de publication des documents relatifs aux origines de la guerre de 1914, édition, Imprimerie nationale Paris, 1931-1955, p. 34.

2- Ibid. p.35.

3 - Ibidem.

تستمر في باريس، فقد أراد التعبير عن انطباعاته ولم يخفي عني خيبة الأمل التي يشعر بها، فقد صرح لي قائلاً:

«من وجهة النظر الداخلية، فإن العروض المقدمة من طرفنا (فرنسا) تضع الحكومة الإسبانية أمام الكورتيس والرأي العام، في موضع أدنى بكثير من حالة الحكومة الليبرالية الأخيرة التي كانت قبل عامين، والحصول من باريس على مقترحات أكثر طموحاً.

أجبت قائلاً؛ إذا أجريت محادثات قبل عامين، فإن هذه المحادثات لم يتم إطلاع مجلس الوزراء عليها على الإطلاق، ونتيجة لذلك ظلت خاصة إلى حد ما؛ أما اليوم فالأمر يتعلق بوقائع إيجابية وليس فقط بالأمال التي قد يعقدها المرء. [...]، وفرنسا لا يمكنها التخلي عن فاس. وأخيراً، أضفت أن التساهلات التي قدمها «ديلكاسي» اليوم تتجاوز بالتأكيد التنازلات التي كانت الحكومة الفرنسية مستعدة لقبولها، والتي لا يمكن الآن تجاوزها، وأن هذه التساهلات دليل على مشاعر الصداقة العميقة لإسبانيا»¹.

أمام هذا الموقف المتصلب من طرف فرنسا، الذي وضع حدوداً لطموح إسبانيا الرحبة، تم في 30 أكتوبر 1904 توقيع اتفاق ثاني بين فرنسا وإسبانيا، قلص مجال النفوذ الإسباني، بحيث جعل فاس وتازة التي منحت لإسبانيا في اتفاق نونبر 1902 خارج حدود المنطقة الإسبانية.² والواضح أن الاتفاق شكل مناسبة لحكومة باريس للتضحية بطموحات الإسبان، ووضعها في موقف حرج أمام الرأي العام الوطني. وفي المقابل كان أمام فرنسا ملف سياسي آخر، مرتبط بتصفية مطالب ألمانيا، التي وصل إمبراطورها «كيوم الثاني» (Wilhelm II) سنة 1905 إلى طنجة مؤكداً استمرار سياسة الباب المفتوح بالمغرب.³

زادت مقتضيات اتفاق أكتوبر 1904 من تعميق الأزمة بين الفرنسيين والإسبان، وظلت العلاقات بين طرفين بخصوص الملف المغربي جامدة إلى حدود نجاح فرنسا في احتلال المغرب، والنجاح في إرغام مولاي عبد الحفيظ على توقيع معاهدة الحماية في مارس 1912. حيث

1 - M. Paul Cambon, Ambassadeur de France à Londres à M. Delcassé, Ministre des Affaires étrangères, in: D.D.F 2^{ème} série, Tome 5, Op.cit. p.p 62-63.

2- Le Matin donne à ses lecteurs la primeur du texte intégral du TRAITÉ SECRET FRANCO-ESPAGNOL, in: journal de Matin, Directeur de publication, Edwards Alfred, Paris, 08 novembre 1911.

3 - ميكل مرتين، الاستعمار الإسباني في المغرب (1860-1956)، ترجمة عبد العزيز الوددي، منشورات التل، الرباط، ط1، 1988، ص 19.

وجدت حكومة باريس نفسها أمام الالتزامات التي قدمتها لإنجلترا وألمانيا، مرغمةً للتوصل إلى اتفاق مع إسبانيا كشرط أساسي للاعتراف الدولي بشرعيتها في احتلال المغرب.

في هذا السياق، سارعت حكومة باريس إلى الترتيب لمفاوضات جديدة مع إسبانيا، حيث انتهت في 27 نونبر 1912، وجاءت مقرراتها مرة أخرى لصالح فرنسا. بحيث منحت لإسبانيا منطقة نفوذ لا منطقة حماية، وجعلت تصرفها في المنطقة مرتبط بالإدارة الفرنسية، وكبحت حرية تصرفها في العديد من المجالات، كما أملت عليها طبيعة الإصلاحات التي يجب إدخالها لمنطقة نفوذها، دون أن تترك لها حرية التصرف أو الاختيار.

2.1 لمحة عن طبيعة العلاقات الفرنسية الإسبانية بالمغرب (1912-1920)

ترتب عن الظروف التي تم فيها تقسيم المغرب، بشكل غير متكافئ بين فرنسا وإسبانيا، تأزيم العلاقات الفرنسية الإسبانية، وإقبار كل محاولة جادة للتعاون الثنائي. مما انعكس سلباً طوال الفترة الاستعمارية (1912-1956) على العلاقات الثنائية بين الطرفين، التي بنيت على منطلق البحث عن الفرص للانتقام من الطرف الثاني، والتلذذ بانتكاساته.

فعقب تنازل مولاي عبد الحفيظ عن العرش وتعيين مولاي يوسف سلطاناً للمغرب، نادى المخزن والسلطات الفرنسية ببيعة السلطان الجديد. وشمل هذا النداء المنطقة الشمالية من المغرب التي كانت تحت الحماية الإسبانية، فاتخذ عامل تطوان مباشرة بعد توصله بالأوامر المخزنية ترتيبات عقد البيعة، غير أن السلطات الإسبانية بتطوان حاولت إحباط هذه الإجراءات. حيث عملت على تقليب أفئدة بعض الأعيان للحيلولة دون تقديم البيعة للسلطان الجديد، ونتج عن ذلك وقوع خلافات واضطراب سياسية، إلا أن المناورات الإسبانية أُحبطت، بفضل «حكمة وتفاني بعض أصدقاء فرنسا الذين يؤيدون مسألة إعلان بيعة مولاي يوسف»¹.

انتهى الخلاف، بتوقيع نص البيعة بالمسجد الكبير بتطوان في 16 غشت 1912، وتم إطلاق طلقات نارية احتفالاً بالحدث وبمثابة إخبار لسكان المدينة، وأشرف على البيعة بعض الأعيان منهم: الحاج محمد الصفار، والفقيه محمد السرار، والحاج العربي بنونة، والقاضي

التهامي أفيلال، والفقير محمد زواق، ومحمد بولاني، ومحمد الحصار، والفقير بن اللبار، والفقير البقالي، وشرفاء وزان، ومحمد بريشة¹.

يرجع سبب المعارضة الإسبانية، من جهة إلى الرغبة في عرقلة الأهداف الفرنسية، ومن جهة ثانية إلى محاولة منع التدخل الفرنسي في الشؤون الداخلية للمنطقة الشمالية، التي تدخل في مجال النفوذ الإسباني لا الفرنسي، غير أن المحاولات الإسبانية اصطدمت بالنص القانوني لمعاهدة الحماية الذي يقرُّ سيادة السلطان على كافة التراب المغربي.

كما حاولت إسبانيا جعل وضعيتها القانونية بمجال النفوذ المخول لها يوازي الوضعية الفرنسية، ففي الوقت الذي اعتبرت فيه فرنسا الخليفة السلطاني مولاي المهدي بتطوان ممثلاً للسلطان، عملت إسبانيا على جعل اختصاصات الخليفة مطابقة لاختصاصات السلطان نفسه. وفي هذا السياق أحدثت الإدارة الإسبانية مخزناً خليفياً على شاكلة وهيئة المخزن في المنطقة السلطانية، كما تمتع الخليفة بالمنطقة الشمالية في مختلف أنشطته بالامتيازات المخولة للسلطان، وحتى تثبت الإدارة الإسبانية نفسها كشريك لفرنسا عملت على إحداث مؤسسات تُعبر عن حرية تصرفها بمجال نفوذها، وغيرت كلمة مجال النفوذ بكلمة الحماية، كما أصدرت طواع بريدية تحمل صورة الخليفة السلطاني، وسمّت النصوص القانونية للخليفة بالظواهر².

بالرغم من استياء الرأي العام الإسباني من حصته في المغرب، فإن إسبانيا تخبطت في الفترة ما بين سنة 1912 و1923 في عدة مشاكل داخلية، أثرت على الأداء السياسي للحكومات الإسبانية التي أصبحت تتساقط كالورق. إضافة إلى عوامل خارجية مرتبطة بشدة المقاومة المغربية، ومنها مقاومة الشريف الريسوني ومحمد بن عبد الكريم الخطابي. غير أن مرحلة الحرب العالمية الأولى كانت فرصة أمام الحكومة الإسبانية للانتقام من الفرنسيين، فقد احتضنت إسبانيا السلطان الأسبق مولاي عبد الحفيظ بعد عودته من زيارة الديار المقدسة سنة 1913.

وفي هذا السياق، أشار المختار السوسي إلى أن مولاي عبد الحفيظ «هرب» بعد اندلاع الحرب العالمية الأولى إلى إسبانيا ودخل في علاقات مع الجامعة الإسلامية وألمانيا والأتراك

1 - Ibidem

2- زين العابدين العلوي، المغرب في عهد مولاي يوسف، نشر IDGL، ط، 1، 2009، ص 111.

للتحضير لمناورة ضد الوجود الفرنسي في شمال إفريقيا عامة، والمغرب على وجه الخصوص. كما ربط علاقات مع زعماء المقاومة بالأطلس المتوسط وقدم لهم دعماً مادياً¹. ويشير علال الخديمي إلى أن هذه التحركات جعلته مثار مراقبة من طرف الحكومة الفرنسية². إضافة إلى ذلك، غضت إسبانيا الطرف عن الدعاية الألمانية المناوئة لفرنسا بالمنطقة الخليفية.

فما ردود الفعل الفرنسي تجاه إسبانيا خلال حدث معركة أنوال؟.

2. معركة أنوال يوليو 1921: السياق والتجليات

1.1) سياق المعركة

اعتمدت إسبانيا المنطق الفرنسي في احتلال المغرب القائم على الغزو العسكري، غير أن هذه الخطة كانت متباينة النتائج، ففي الوقت الذي نجحت فيه القوات الفرنسية في احتلال جزء مهم من المجال المغربي، خلال الفترة الممتدة من 1912 و1920 (فاس، تازة، زيان، مراكش...)، حققت القوات الإسبانية أمام شدة المقاومة الريفية بزعامة الشريف محمد أمزيان ومحمد بن عبد الكريم الخطابي تقدماً جزئياً في المنطقة الشمالية، بل وتعرضت لانتكاسات كبيرة، في عدة معارك منها، معركة أدهار أبران ومعركة أغريبين ومعركة أنوال.

تأتي معركة أنوال يوليو 1921 في سياق انهزام الجيش الإسباني في حرب «أدهار أبران» التي وقعت ما بين شهري ماي ويونيو 1921، والتي أعطت الانطلاقة الأولى للحرب الريفية، وحفزت القبائل الشرقية ومنها قبيلة تمسمان على الانضمام إلى حركة الزعيم الريفي محمد بن عبد الكريم الخطابي، وإعلان قبائل بني توزين وبني وليشك وتافرسيت التمرد والعصيان ضد السلطات الإسبانية، مما جعلها في حالة استنفار، وفي هذا الإطار كلفت حكومة مدريد المندوب السامي الجنرال داماسو بيرنكوير (Dámaso Berenguer) لدراسة الوضع بالمنطقة وإعداد تقرير حول أحداث المعركة، غير أن الجنرال مانويل فرنانديز سلفستري (Manuel Fernández Silvestre) القائد العام للمليية، الذي كان متحمساً لدعوة الملك الإسباني ألفونسو

1- المختار السوسي، حول مائدة الغذاء، مطبعة الساحل، الرباط، 1983، ص ص 104-105.

2- علال الخديمي، «مولاي عبد الحفيظ ومقاومة الاحتلال الفرنسي خلال الحرب العالمية الأولى 1912-1918»، ضمن: السلطة والمجتمع في عهد السلطان مولاي يوسف، الدورة الثالثة عشرة من ندوات جامعة مولاي علي الشريف، 2005، ص ص 97-103.

الثالث عشر للاستمرار في غزو الريف وتحقيق انتصار كبير في المنطقة الشرقية، أقنع بيرنكوير بأن الأحوال بالمنطقة هادئة ولا تدعو إلى القلق¹.

تزعّم حركة الثأر، الجنرال «سلفستر» الذي شرع في إنشاء مركز عسكري بمنطقة أغريبين الواقعة في الجنوب الغربي لأنوال، وبعث الإسبان إلى محمد بن عبد الكريم الخطابي رسالة قوية اللهجة حملت تهديدا بالانسحاب من قبيلة تمسمان، واسترجاع جثث القتلى الإسبان في معركة جبل أبران. تجاهل الزعيم الريفي الرسالة، وأرسل جزءاً من قواته في 14 يونيو 1921 إلى سفح هضبة سيدي إبراهيم، التي كانت تتخذها القوات الإسبانية مركزاً مؤقتاً لحماية الجنود الذين يسقون الماء ويزودون بها طاقم مركز أغريبين. وقد عازمت القوات الإسبانية على احتلال الهضبة، غير أنها منعت من طرف القوات الريفية. الأمر الذي أدى إلى وقوع معركة بين الطرفين في 16 يونيو 1921 بمنطقة ظهار بوريان الواقعة غرب أنوال، نتج عنها عدد من الجرحى والقتلى في صفوف الجانبين. ولم تستطع القوات الإسبانية زحزحة عناصر المقاومة الريفية، التي غنمت بالمناسبة كمية ضخمة من الأسلحة التي استعملتها في معركة أنوال².

مهّدت الانتصارات المتتالية للمقاومة الريفية أيام 18 و19 و20 يوليو، الطريق أمام المجاهدين لصد الهجمات الإسبانية بكل شجاعة وثقة. وبالرغم من الإمكانيات البشرية والعسكرية التي خصصها الجنرال الإسباني لخوض الحرب، تحقيقاً لأهدافه المتمثلة في ربط أنوال بالحسيمة، والوعد الذي قطعه على نفسه، بأن «يشرب الشاي في بيت بن عبد الكريم بأجدير سواء قبل أو لم يقبل»³، فإن المقاومة الريفية صمدت أمام القوات الإسبانية، مستغلة دقة الخطط العسكرية ومعرفتها بالشعاب الجغرافية.

تُوّجت الانتصارات الريفية، بانهزام الجيش الإسباني في معركة أغريبين يوم 21 يوليو 1921، التي خلفت خسائر كبيرة في صفوف الإسبان، وانتهت المعركة بهروب الحامية الإسبانية عن مركز أغريبين في اتجاه المركز العام بأنوال. وقد كتب الجنرال سلفستر برقية إلى القيادة

1- عثمان بناني، محمد بن عبد الكريم الخطابي ومقاومة الاستعمار الإسباني، نشر الجمعية المغربية للبحث التاريخي، ط 1، 2019، ص ص 157-158.

2 - نفسه، ص 159.

3 - مصطفى العلوي، الحرب الريفية المغربية الفرنسية الإسبانية 1906-1936، مطبعة النجاح الجديدة، ط 1، 1994، ص 329.

العليا بمديرد، بأسلوب مختصر، متحاشيا ذكر الخسائر ومعنويات الجنود المحطمة؛ «لقد انتهت عملية أغريبين وحالت كثرة جيوش الأعداء دون الوصول إلى أي نتيجة، واضطرت لإصدار الأمر بإفراغ المركز. وقد لقي حتفه بين الأسلاك، عدد كبير من الضباط والرؤساء، كما قام عدد آخر بالانتحار»¹.

أعطى انسحاب القوات الإسبانية صوب أنوال الفرصة للقيادة الريفية للتداول حول ما يجب عمله في الحرب ضد الإسبان، غير أن الذي وقع، هو انسحاب القوات الإسبانية عن المركز العام بأنوال والتحصن بمليلية. وقد شكل هذا الانسحاب مفاجأة لقيادة المقاومة الريفية، حيث «لم يصدق محمد بن عبد الكريم الخطابي ذلك، وأرسل رسلا لتحقيق الخبر، ثم سار بنفسه وراءهم، فوجد المعسكر العام قد تشتت شذر هذر، وقد أصابته الدهشة والعجب من ذلك، لأنه لم يكن في نيته في ذلك الوقت الهجوم على المعسكر الإسباني العام في أنوال»².

نتج عن الانسحاب الإسباني، هجوم المجاهدين على المراكز الإسبانية في المنطقة الشرقية، وثورة جل القبائل ضد الإسبان بما فيها تلك التي خضعت لإسبانيا منذ عام 1904، كما تمردت القوات الوطنية العاملة ضمن الجيش الإسباني وانضمت إلى المقاومة الريفية، وأمام هذا الهجوم أخذت القوات الإسبانية تنسحب من المراكز ذات الأهمية الاقتصادية والعسكرية وتراجع صوب مليلية³.

فما موقف السلطات الفرنسية من هذه الأحداث؟.

1.2) الموقف الفرنسي من الحرب الريفية

تميز الموقف الفرنسي تجاه الانهزامات المتتالية للإسبان أمام المقاومة الريفية في ظاهره بالحياد، ومراقبة التطورات من بعيد، وعللت فرنسا هذا الموقف السياسي، بأن «الاتفاقيات الموقعة من طرف المخزن توجب على فرنسا الالتزام تجاه الإسبان بالموقف السليم»⁴. أما على

1 - نفسه.

2 - عثمان بناني، محمد بن عبد الكريم الخطابي ومقاومة الاستعمار الإسباني، م، س، ص 161.

3 - نفسه.

4 - ماريا روسا ذي مادارباكا، محمد بن عبد الكريم الخطابي والكفاح من أجل الاستقلال، ترجمة، محمد أونيا، عبد المجيد عزوزي، عبد الحميد الرايس، منشورات تيفراز، مطبعة النجاح الجديدة، ط 1، 2013، ص 268.

مستوى الباطن فقد قدمت السلطات الفرنسية دعماً سياسياً للمقاومة الريفية ضد الإسبان، تمثل هذا الدعم في غض فرنسا الطرف عن تحركات الزعيم الريفي، وتسهيل تنقل أنصار المقاومة بحرية بين المنطقة الإسبانية والمجال الفرنسي. ولم تتدخل فرنسا في المنطقة وتفكر بجدية في عقد تحالف عسكري مع إسبانيا، إلا بعد أن أصبحت حركة بن عبد الكريم تهدد مصالحها بالمنطقة الحدودية.

وما دام أن الزعيم الريفي ظل يظهر صداقة لفرنسا، فقد ظلت العلاقات بين الإدارة الفرنسية وقيادة المقاومة الريفية طيلة السنوات الأولى من الحرب الريفية طيبة، فقد تعدد الزيارات التي قام بها مبعوثون ريفيون إلى كل من فاس وتاوريرت، ووجدة، كما سمحت السلطات الفرنسية بحرية تنقل أنصار المقاومة الريفية بين المنطقة الحدودية، والدخول إلى المجال الفرنسي لاقتناء ما كانوا يحتاجونه من مواد مختلفة¹.

كما غضت سلطات الحماية الفرنسية الطرف، عن تحركات زعيم المقاومة الريفية بين القبائل الحدودية للمنطقة الفرنسية، وربط علاقات مكثفة بقبائل حوض ورغة. وقد أدركت هذه السلطات بشكل جيد أهداف تحركات ابن عبد الكريم ولخصتها في ثلاث إجراءات هي²:

- رغبة ابن عبد الكريم في استقطاب القبائل الحدودية بالمنطقة الفرنسية.

- الحصول على الموارد المالية عبر إقامة مراكز جمركية لاستخلاص الضرائب.

- توفير هيئة منظمة بمعية القواد والشيوخ مهمتها التشجيع على تجنيد المقاتلين لمواصلة الكفاح ضد الإسبان.

كما سمحت فرنسا لزعيم المقاومة الريفية، من إحراز تقارب ظرفي مع عمر ولد احميدو الذي كان يتولى قيادة قبيلة مرنيسة، والذي ظل من جهة ثانية على اتصال مستمر بمصلحة

1 - محمد خرشيش، «التدخل الفرنسي في حرب الريف (1924-1926)»، ضمن كتاب: المقاومة المغربية ضد الاستعمار 1904-1955: الجذور والتجليات، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بأكادير، ط1، 1997، ص 159.
2- ماريا روسا، محمد بن عبد الكريم الخطابي والكفاح من أجل الاستقلال، ص ص 268-269.

المخابرات الفرنسية.¹ كما قدم الحزب الشيوعي الفرنسي دعماً سياسياً للمقاومة الريفية، وإن كان دعمه يصب في مناهضة الإمبريالية العالمية والتبديد القوي بالاستعمار.²

تراجع الدعم الخفي الذي قدمته فرنسا للمقاومة الريفية، عندما أحست الإدارة الفرنسية ببداية تعاظم قوة الزعيم محمد بن عبد الكريم الخطابي، والتعاطف الكبير الذي أصبحت تتمتع به حركته من مختلف القبائل، وفي مقدمتها قبائل المنطقة الحدودية. حيث أفرزت المقاومة الريفية ابتداءً من 1923 واقعا سياسيا جديدا بالمنطقة المذكورة، زاد من تخوف السلطات الفرنسية، خاصة بعد رغبة بن عبد الكريم الدخول إلى منطقة بني زروال ذات الأهمية الاستراتيجية والاقتصادية.

وقد اعتبرت القوات الفرنسية هذا التدخل خطرا، يمكن أن يشكل في المستقبل واقعا سيئا على الوجود الفرنسي في المنطقة السلطانية، فعملت على «تحصين المراكز الفرنسية في مقدمة الريف، وتعزيز حامياتها العسكرية من حوض ملوية السفلى شرقا إلى أعالي حوض ورغة غربا»³. وأيضا عملت على إثارة النزاعات القبلية ضد أنصار بن عبد الكريم، كما استعانت بالزاوية الدرقاوية بالمنطقة للحد من نفوذ المقاومة الريفية⁴.

فابتداءً من سنة 1924، توغلت القوات الفرنسية بأحد فروع قبيلة بني زروال وهي أولاد قاسم، وترتب عن هذا التدخل بروز تيار معارض للوجود الفرنسي ومساند لحركة المقاومة الريفية، وأضحى هذا التيار يشكل الأغلبية داخل المنطقة⁵. وفي 12 أبريل 1925 كبد رجال المقاومة الريفية أنصار الاستعمار الفرنسي خسائر جسيمة، حيث شنت مقاومة بن عبد الكريم ثلاثة حملات عسكرية على منطقة بني زروال؛

توجهت الحملة الأولى التي قدر تعدادها بـ «1500 بندقية» إلى أمجوط معقل الزاوية الدرقاوية بالمنطقة، والثانية وصلت إلى حدود زاوية بوبريح وقدر عددتها بـ «600 بندقية»،

1- محمد خرشيش، المقاومة الريفية، سلسلة شرع، العدد 22، دجنبر 1997، ص 13.

2- الطيب بوتبقالت، عبد الكريم الخطابي: حرب الريف والرأي العالمي، سلسلة شرع، العدد 24، أبريل 1997، ص 44-45.

3- المصطفى الريس، إضاءات حول الزوايا والطرقية زمن الحماية، منشورات الزمن، العدد، 74، 2016، ص 19.

4- نفسه.

5- نفسه، ص 26.

وتمكنت الحملة الثالثة التي بلغ تعدادها «800 بندقية» من التوغل في تازوغارت، واعتبر ليوطي أن هجوم القوى الريفية كان قويا ومفاجأ¹.

كان لهذه الحملات العسكرية الريفية نتائج سيئة على الاستعمار الفرنسي، ففي رسالته إلى الحكومة الفرنسية المؤرخة في 15 أبريل 1925 أشار ليوطي إلى أن المقاومة الريفية استولت على أمجوط ونهبت و«أحرقت كل شيء، بما في ذلك القرى المجاورة» كما غيرت الخريطة السياسية للمنطقة، حيث «تراجع حلفاؤنا من بني زروال إلى مراكزنا»²، وأصيب شيخ قبيلة أولاد قاسم الذي كان يحارب لصالح الفرنسيين، بجروح خطيرة نقل على إثرها إلى مستشفى فاس، أما شيخ الزاوية الدرقاوية فلجأ إلى تافرانت الخاضعة للنفوذ الفرنسي³.

وفي تقرير مؤرخ في 17 أبريل 1925 رفعه ليوطي إلى بانلوفي رئيس الحكومة الفرنسية ووزير الحربية، أشار إلى أن قوات بن عبد الكريم أصبحت تسيطر على مجموع بلاد بني زروال التي تشكل جزءا من المنطقة الفرنسية، ويضيف ليوطي إلى أنه «سبق أن حذرنا بن عبد الكريم مرارا بأننا إذا كنا قررنا عدم مواجهته بالريف، وخارج منطقتنا، فإننا بالمقابل لا يمكن الاعتراف باستقراره داخل القبائل المرتبطة بمنطقتنا»⁴، واعتبر المقيم العام الفرنسي أن هجوم بن عبد الكريم «عمل عدواني واضح، استهدف منطقة بني زروال بقوة قدرت ما بين 300 و400 ألف بندقية» وخلص في الأخير إلى أنه يجب مواجهة هذه الوضعية⁵.

ونسجل من خلال تطور الأحداث، أن الوضع السياسي الذي أفرزته المقاومة الريفية بمنطقة حوض ورغة، خلق هلعاً في صفوف الإقامة العامة الفرنسية، ففي 15 ماي 1925 رفع ليوطي رسالة إلى باريس أشار فيها إلى أن القوات الفرنسية تواجه: «خصما منظما ومسلحا على الطريقة الأوربية، إضافة إلى الامتيازات التي يحظى بها بفعل تفوق وتجدد أعضائه وخصوصية عرقه وانسجامه مع منطقته وتدينه وقوة تحمله»⁶.

1- ليوطي الإفريقي، نصوص ورسائل حول الثورة الريفية 1924-1925، ترجمة عز الدين الخطابي، نشر تيفراز، مطبعة النجاح الجديدة، 2013، ص 53.

2- نفسه.

3- نفسه، ص، 55.

4- ليوطي الإفريقي، نصوص ورسائل حول الثورة الريفية، م س، ص 56.

5- نفسه، ص ص 56-57.

6- نفسه، ص 7.

أمام هذه التطورات، أصبحت فرنسا تفكر جدياً في تشكيل تحالف عسكري مع إسبانيا ضد الخطر الريفي، خاصة بعد الصمود الذي أبدته المقاومة الريفية ضد الجيوش الفرنسية طيلة الشهور الأولى للمعارك (أبريل - يوليو 1925)، غير أن السلطات الفرنسية عارضت في البداية الدعوة، حيث تلقت بكثير من الغبطة والارتياح نبأ الحرب الريفية الفرنسية. ويجد هذا الموقف تفسيره في «مبدأ المعاملة بالمثل»، حيث عملت السلطات الفرنسية على دعم المقاومة الريفية طوال المرحلة ما بين 1921-1924، وأمام هذه الدعوة ذكّرت السلطات الإسبانية فرنسا بمواقفها المناوئة، والتسهيلات التي قدمتها للمقاومة الريفية¹. بل وصرح محمد بن عبد الكريم الخطابي، للصحافي «روجر ماثيو»، المحرر العسكري بجريدة «لومتان»، أن الإسبان حاولوا إقناع بن عبد الكريم بمهاجمة المراكز الفرنسية، ودعوته إلى عقد اتفاق مع إسبانيا لمهاجمة فرنسا².

لقد انتهى هذا الخلاف، بنجاح الحكومتين الفرنسية والإسبانية في عقد تحالف ثنائي ضد حركة المقاومة الريفية، والنجاح في إرغام محمد بن عبد الكريم الخطابي على الاستسلام سنة 1926.

خاتمة:

شكل حدث معركة أنوال في يوليو 1921، نموذجاً معبراً عن جانب من العلاقات الفرنسية الإسبانية بالمغرب خلال الفترة الاستعمارية. حيث بنيت أسس هذه العلاقات منذ بداية العقد الأول من القرن العشرين، وتبلورت مظاهرها بشكل واضح خلال بعض الأحداث التي شهدتها مرحلة الحماية.

شهدت الحكومة الفرنسية في بداية القرن 20 تحولاً على مستوى توجهها السياسي بخصوص قضية المغرب، حيث اتجهت إلى اعتماد منطق المفاوضات الدبلوماسية عوض الصراع العسكري. وفي هذا الإطار نجحت في إبعاد إيطاليا عن المغرب بموجب اتفاقية 1901 التي تخلت بموجبها فرنسا على طرابلس، مقابل موقف مماثل لروما بخصوص المغرب. كما أفلحت في أبريل 1904 في إبعاد خصم عنيد هو إنجلترا، بعد أن اعترفت الحكومة الفرنسية

1- محمد خرشيش، المقاومة الريفية، م، س، ص ص، 27-28.

2- روجر ماثيو، مذكرات بطل الريف الأمير محمد بن عبد الكريم الخطابي 1927، ترجمة: عمر أبو النصر، مطبعة فضالة، ط1، 2005، ص ص 54-55.

بالمصالح الإنجليزية في مصر، مقابل التزام فرنسا بالحفاظ على المصالح الاقتصادية لإنجلترا بالمغرب.

لقد عززت هذه الانتصارات الدبلوماسية، التي حققتها حكومة باريس مناعتها في التفاوض مع إسبانيا، التي اعترفت بمختلف القوى الأوروبية وفي مقدمتها إنجلترا بمصالحها السياسية في المغرب. غير أن المفاوضات الفرنسية الإسبانية في مختلف المحطات؛ نونبر 1902 وأكتوبر 1904 وحتى مفاوضات نونبر 1912، كانت مفاوضات القوي للضعيف. حيث فرضت فرنسا مختلف شروطها على الحكومة الإسبانية وألزمها بتقبل سياسية الأمر الواقع، مما جعل هذا السلوك يؤثر على طابع العلاقات الثنائية بين الجانبين طوال المرحلة الاستعمارية.

برزت سيمات هذه العلاقات في عدة مناسبات؛ منها حدث معركة أنوال 1921، حيث وقفت مؤسسة الحماية الفرنسية بالمغرب موقف المتفرج من الانهزامات المتتالية للإسبان أمام قوات محمد بن عبد الكريم الخطابي، بعد أن غضت إسبانيا الطرف من قبل عن نشاط الدعاية الألمانية بالمغرب خلال أحداث الحرب العالمية الأولى، وعن الأنشطة المناوئة لعبد المالك الجزائري ضد الوجود الفرنسي بالمنطقة السلطانية، مما جعل الفرنسيون أيضا يقفون موقفًا مماثلاً خلال أحداث انهزام الإسبان في معركة أنوال.

معركة أنوال بين التوثيق التاريخي والتخييل الأدبي

ذة. بدبعة لفضايلي

باحثة بجامعة ابن طفيل - القنيطرة - المغرب



لعل التناعم بين العبقرية والمجد أمر لا يخلو من صدق وإصابة، ولاغرو أن تغدو الآثار الأدبية سجلات مشهدية تضمن الخلود لوقائع حقيقية، فعلية الحدوث، ما تعتم أن تسمي وثائق محايدة تعضد كل ما يجله التدوين التاريخي ذو الموضوعية، وتضمن له الذبوع والانتشار.

في كتب الأدب العربي الأكثر عراقة، ظل صليل السيوف تسمع رنته، ودوي السهام المارقة يسكن أفئدة الكلم، وبسالة الفرسان يرفدها صهيل جيادهم، ومثارالنقع يغشى ساحات الوغى حين يحيى وطيسها، وبين الكر والفر، وبين الإقدام والإحجام، يعتلي الشجعان ذرى أمجادهم داخل قريض أئنع بأسا، وأزهر إقداما وطرح بطولة نصرا.

لقد ربا الشعر العربي واشتدت شكيمته بين حوافر الخيل المغيرة أو الغازية، يقول ابن سلام الجمعي: «وإنما كان يكثر الشعرُ بالحروب التي بين الأحياء، نحو حرب الأوس والخزرج، أو قوم يغيرون ويُغار عليهم»¹، ومن ثم أفرد دارسو الأدب أبوابا في متونهم خصوها لوقائع العرب وحروبهم، فقد أورد ابن قتيبة في كتابه عيون الأخبار فصلا خاصا سماه باب الحرب، ولم يغفل ابن رشيقي القيرواني في كتابه العمدة أن يفصل القول في أشهر وقائع العرب وأيامها مؤكدا «وكان الكلام كله منثورًا، فاحتاجت العربُ إلى الغناء بمكارم أخلاقها، وطيب أعرافها، وذكر أيامها الصالحة، وأوطانها النازحة، وفرسانها الأمجاد، وسَمَحَاتِهَا الأجواد؛ لَمْهَزْ أَنْفُسَهَا إِلَى الكرم، وتَدَلُّ أَبْنَاءَهَا عَلَى حَسَنِ الشَّيْمِ، فتوهموا أعرابِضَ جعلوها موازينَ

1 - محمد ابن سلام الجمعي، طبقات فحول الشعراء، تحقيق أبو فهر محمد أحمد شاكر، ص 261.

الكلام»¹. ولعل شعر الحرب أتى مضمخا بالحماسة مجللا بالفخر، تذكيه روح الحمية، وهو يستثير الهمم ويحث العزائم وينفث في النفوس ما يبعثها على الاستئساد، وينحو بها صوب جادة الاستبسال، مذكرا بالأمجاد مباهيا بالأحساب مفاخرا بالأنساب.

ومن الإغارة والسبي والعصبية القبلية التي أفضت إلى حروب ضروس نظير داحس والغبراء ووقعة البسوس، ومعارك بكر وتغلب التي سكنت مغاور المعلقات الجاهلية، سرعان ما سترتدي الهيجاء جبة الإباء، حين تصير الإغارة فتحا والموت استشهادا، والحرب جهادا لنشر الإسلام وإذاعة تعاليمه، فتبدو الأشعار مفعمة بدلالات التأزير مشيدة ببذل النفس فداء للدين تبشيرا بهدايته، ويشحذ الشعراء السنتم الحداد لوصف الفتوحات فتغدو قصيدة حسان بن ثابت في فتح مكة نموذجا لقريض يؤرخ لحدث جلل وهو يصف مواكب الفرسان وهم يقفون بشمم على مشارف أم القرى، متقلدين سيوفهم الصوارم يفيضون بالإيمان، قصد اجتثاثها من عتمة الجاهلية إلى ضياء الإسلام الذي سوف يغمرها.

ومن حضيرة الدين سوف نشهد ظهور قصائد حربية تولدت من مواجهة جيوش مسلمة لقوات غازية ذات أرومة وذمة مباينة، ولم يكن الهدف هو نشر الإسلام بقدر ما كان المبتغى هو إجلاء الغزاة صونا لهذا الدين وذبا عن الوطن وذودا عن وحدته، ومجاهة للعدو الجائر.

في أحداث التاريخ المغربي وأمجاده ظلت صحائف البطولات مرصعة بانتصارات استوطنت القصائد ورقشت مطالعها، وإذا كان المراكشي في كتابه المعجب وابن خلدون في تاريخه قد أشادوا بمعركة الزلاقة التي قضى فيها يوسف ابن تاشفين على ملك قشتالة في الأندلس في معركة مهيبه رهيبه، فإن الشعراء خلدوا هذا النصر في قريض حماسي مكسو بالفخر والمباهاة. قال الشاعر الأندلسي أبو طالب عبد الجبار الملقب بالمتنبي في أرجوزته:

وإذا أراد الناس نصرالدين استصرخ الناس ابن تاشفين²
فجاءهم كالصبح في إثر غسق مستدركا لما تبقى من رفق

1- ابن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الشعر وأدابه ونقده، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت لبنان، الطبعة الخامسة 1981 ص 20.

2- ابن بسام الشنتري، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق الدكتور إحسان عباس، دار الثقافة 1997، ق 1، ج 2، ص 944.

وواصل السير إلى الزلافة وساقه ليومها ما ساقه
 لله در مثلها من وقعة قامت بنصر الدين يوم الجمعة
 وحين اجتاز يعقوب المنصور الموحي إلى الأندلس وكبد الفونسو الثامن خسارة
 فادحة ودحره في عقر داره، دبح الشعراء القصائد الطوال للتغني بهذا المجد الأثيل، إذ قال
 أبو العباس الجراوي:

هو الفتح أعياء وصفه النظم والنثرا وعمت جميع المسلمين البشري¹
 لقد أورد الأذفونش شيعته الردى وساقهم جهلا إلى البطشة الكبرى
 وما إن خال سبستيان ملك البرتغال في العهد السعودي أنه قادر على الزحف على
 أرض المغاربة الأحرار حتى كان له الإذلال، حين مني بهزيمة نكراء وكان مثنواه قرارة نهر مكين
 على يد المعتصم عبد الملك في معركة وادي المخازن الذائعة الصيت، فألهم ذلك النصر الشاعر
 السعودي داوود بن عبد المنعم الدغوي حيث قال:

فشبت لظى الهيجاء ليس وقود هاسوى أنفس الشجعان وسطر الميادن²
 قد انقضت الفرسان منا عليهم انقضا ض صقور الجو فوق الفراشن
 وسبستيان كفته مياهه يما وماء النهر أفضع كافن

لقد ألفت المغاربة الحرية وتنشقوا عبيرها ملء صدورهم، لذلك حينما ران عليهم من
 شرع في الاستخفاف بوطنهم ثاروا، وحملوا السلاح واستحال صمودهم نضالا وكفاحهم جهادا،
 ولئن كان العدو الأجنبي قد استسهل المغرب بعد هزيمة معركة إيسلي، فإن المقاومة المسلحة
 في الجنوب على يد أحمد الهبيبة وفي الأطلس على يد موحى وحمو الزباني وفي الريف على يد
 ابن عبد الكريم الخطابي جعلته يدرك أنه أمام خصم ذي بأس وعناد، سلاحه إيمانه وقوته
 وطنيته، على راحتيه يحمل روحه يهديها فداء لبلده.

1- ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق محمد إبراهيم الكتاني وآخرون، دار الثقافة للنشر والتوزيع. دار الغرب الإسلامي بيروت. لبنان، الطبعة الأولى، 1985، ص222.
 2- عبد الحق المريني، أصداء معركة وادي المخازن في الشعر المغربي، مجلة المناهل، العدد53، دجنبر 1996، ص19.5.

وإذا كانت الهزائم قد أتت تثرى مذ صوّرت الأشعار الخيبة والهزيمة في معركة إيسلي أمام القوات الفرنسية والتي مني فيها المغاربة بخسارة كبرى سنة 1844، وأبدت الخنوع والتخاذل في معركة تطوان التي احتلتها إسبانيا سنة 1859 وظلت بها لمدة سنتين وثلاثة أشهر الى أن تم الصلح بين الطرفين وجلاء القوات الإسبانية مقابل ذعائر مالية. كما كان احتلال وجدة والدار البيضاء كليهما إيذاناً بوهن كبير أفضى الى وقوع المغرب تحت ظل الحماية الغاشمة، ولعل الاشتياق إلى النصر ساعتها بات ديدن المغاربة الذين أفوا ذواتهم إزاء عدو غاصب غاشم جردهم من الأرض واللغة والدين.

لاغرو أن معركة أنوال أتت لتروي غلة التعطش إلى الانتصارات بعد توالي النكسات، يقول أبوبكر القادري: «فقد استطاع ابن عبد الكريم أن يطوق الجيش الإسباني في منطقة أنوال وسقط هذا المركز فأصبح الطريق مفتوحاً نحو أنوال، وبدأ الهجوم على أغرين. فاستسلم الجيش الإسباني بعد أن تأكد من أن مصيره الفناء»¹.

وإذا كانت أقلام المؤرخين قد وثقت هذه الواقعة وسجلت الأعداد والخسائر وقيدت القتلى والناجين، يقول عبد الكريم غلاب: «قام الريفيون بهجوم عنيف عام على طول الخط، وحمي وطيس المعركة حول الحسيمة، وشاركت فيه المدفعية الريفية للمرة الأولى، ودامت المعركة كامل أسبوع فتك فيه الريفيون بالعدو فتكا ذريعاً، وتم لهم النصر، وقتل من جيش الجنرال برانجي 5 آلاف جندي وأسر 3 آلاف، وجرح الجنرال نفسه بجرحين خطيرين في صدره، وسافر إلى مدريد حيث قرر مع أركان حربه العدول عن خطة الهجوم على أجدير»².

فإن الشعراء استهوتهم الشهامة التي إليها حنوا والحماسة التي إليها هفوا، فرسموا بحروف منتقاة صخباً داخل قصائدهم سمعت له جلبة المواجهة وهتاف النصر والفرحة باندهار العدو، ولعل ما جلل هذه المعركة بهريق القدسية هو اندراجها ضمن النفس الجهادي باستنادها على الإسلام وشرعته والذي وحد بين أفئدة بني الوطن جميعاً، يقول أبو بكر القادري: «وهكذا قام البطل ابن عبد الكريم يحيي الأمل في النفوس ويحرك أوتار الإيمان في الأفئدة ويقاوم الخلافات والتطاحنات بين القبائل ويثبت الأخوة الإسلامية التي تعتبر الرابطة المقدسة بين المسلمين، وابتكر التنظيمات الحربية التي لم يسبق إليها، ويدفع إلى

1- عبد الكريم غلاب، معركة أنوال حفرت المغرب إسماً في ذاكرة التاريخ، جريدة العلم، يوليو 1977.

مقاومة المستعمرين الغاصبين الإسبانين أولاً، ثم الفرنسيين في الأخير¹. ومن أتون التاريخ ووثوقيته سوف نشهد كيف استحالت أنوال من نصر واقعي وحدث فعلي إلى متخيل منشود ومرمى مرغوب ورمز محبوب، وهي تبحر في سفينة الشعر تحملها ربح رخاء، فقد احتلت في الوجدان مكاناً علياً، وحيث أن الذي رص قلوب المغاربة في أعالي الريف وقادهم صوب الفوز كان هو الإسلام، ولأن العدو كان ذا ملة مغايرة فقد جللت أنوال ذرى القصاصد بميسم الجهاد. يقول الشاعر أبوبكر بناني في نفس حماسي يبتغي به استمهاض الهمم وحثها على الاحتذاء بالثورة الريفية:

يا بني المغرب ما هذا الرقاد	مالكم صرتم كأمثال الجماد ²
فدعوا النوم وقومو للجهاد	واسألوا الله انتصار المسلمين
يا بني المغرب ماهذا الفتور	أو لستم ذلك الشعب الغيور
طهروا الأوطان من كل كفور	واسألوا الله انتصار المسلمين
يا بني المغرب سيروا للأمام	وارفعوا راية غازينا الهمام
فخرنا عبد الكريم بن الكرام	واسألوا الله انتصار المسلمين

لا جرم أن التاريخ تسيجه أبدا الكتابة بصيغة الماضي الذي حدث، بيد أن هذه القصيدة تفتح على الآتي بصيغها الإنشائية الانفعالية التي أجلاها استعمال أفعال الأمر: طهروا. سيروا. اسألوا ارفعوا، وصيغ الاستفهام الإنكاري: ماهذا الفتور؟ أولستم ذلك الشعب الغيور؟ والتي تفتح على الآتي، ورغم التقريرية والخطابية والمباشرة فإن القريض يخلق صورة تسعى لأن تماثل الواقع لكنها لا تتطابق معه لأنها تنتقل مما تراه العين اللاقطة لتعبر عن الأحداث عبر منفذ التخيل الذي يؤثته الشعور والوجدان ويرفده معين اللغة الشعر.

لقد بدت أنوال داخل القريض تضاهي عروسا يرقشها الهباء، فقد انجلت من أعالي الريف متوهجة بسنا النضال. يقول الشاعر عبد الواحد أخريف مزهواً:

1- أبو بكر القادري، «حرب التحرير الريفية: حرب ضد العدو الغاصب للأرض والمحارب للعقيدة»، جريدة العلم، 22 يونيو 1977.

2- عبد الله كنون، أحاديث عن الأدب المغربي الحديث، دار الثقافة، دت، ص 73.

المجد في جنات الريف يعتصم
ربوعه حدثني عن ملا حمها
واسمعتني نشيدا من بطولتها
قد يعلم «المشرق الأقصى» شهامته
وما عنت من حياة الشرق واحدة
أنوال يا مريعتا ساد الجهاد به
أنوال ملحمة قد صاغها بطل
ويسحب الذيل مزهوا ويتسم¹
كما تحدث عن امجادها الأمم
لما حلا بعده نحن ولا نقم
رس من المغرب الأقصى به حكم
إلا إذا ذكرت أنوال بينهم
قد ارتوى من سناه العرب والعجم
السيف يخدمه والرمح والقلم

ونطرب مع الشاعر الكبير محمد الحبيب الفرقاني الذي نقر بحذق على وترالشاعرية
حين قال:

علمينا أنت²

يا «أنوال» ما معنى الشهادة

كيف تسموفي المجال الثوري

أفاق القيادة

...والبطولة

كيف فجرت بعمق الشعب

أنهارالإرادة

كيف يفدي الحر في ساحة التحرير

بلاده...برجوله

يا بلادي

1 - عبد الواحد أخريف، قصيدة «ذكرى أنوال»، جريدة العلم، 22 يوليو 1977.

2- محمد الحبيب الفرقاني، قصيدة «أنوال»، الركن الثقافي لجريدة أنوال، 10.11.1993.

ألمح الفجر بشط الأفق

نيرانا..ونار

يا بلادي

وأرى أنوال من خلف الربى

كالجلنار

في الوهاد

عطرها من عرق السوسن

من عين البهار

في زنادي

فتغنى الشعراء ببطولة المحاربين الأباة وأكبر وافهم إقدام الضواري. قال محمد بن

اليمني الناصري:

أسد إذا زأروا رأيت عدوهم متقهقرا متسللا خوفا¹
كيف السبيل إلى تقهرهم وقد ذاقوا من النصر المبين سلاف

وقد استأثر عبد الكريم الخطابي بطل هذه المعركة والمخطط لها وسر نجاحها بدلالات كثيرة داخل القريض الذي تناول هذه المعركة فهو المحارب الذي لا تقهر شوكته، وهو الهصور المغوار الذي يخشى جانبه. لذلك مدحه الشعراء وأشادوا به، يقول محمد بن اليمني الناصري منها:

بطل السياسة والحروب وسيفها ومديرها إن بذت العرافا²
سل عنه باب المروج وتازة وسلّاس والبيبان والأجرافا
وسل البرانس والتسول وجاية والسبت والكيفان والأكنافا

1- أحاديث عن الأدب المغربي، ص74.

2- نفسه.

وعن جسارة هذا البطل يقول حسن الطربيق:

سل حمى الريف كله عنه إن شيء ت لتصغي للمجد بين الرجال¹
كم به كانت الهزائم للبلغ ي مآلا في إثر ألف مآل
واجه الغزو في إباء منيف يتحدى المحال إثر المحال
لم يقف في ثنية دون نصر مغربي يسعى إلى استقلال
لم تزل منه في ذرانا بقايا زغردات الرصاص في أنوال

ويقول عبد الواحد أخريف مشيدا بمكانته العلية:

عبد الكريم على آفاقها علم كمارد حوله الأسد تزدحم²

ويقول محمد لحبيب الفرقاني في تصوير بديع:

كالقدر³

قائد الثورة في «أنوال»

في شط الظفر

صاغ لي الشمس

بارض الريف

واستاق القمر

ريان الطرر

لعل المجد الذي أتى أنوال يجزر أذياله فرحا، محبرا بعباءة النضال مجلوا بضياء الجهاد، مجلا بغلالة الوطنية، كان له من الذبوع ما حذا بثلة من الشعراء العرب إلى نظم غرر الأشعار للتغني بهذه الثورة الريفية وإكبار بطلها، وما كانت أنوال لتخلد لولا كياسة وخبرة

1 - حسن الطربيق، قصيدة بعنوان «البداية»، جريدة العلم، 22 يوليوز 1990.

2 - عبد الواحد أخريف، قصيدة ذكرى «أنوال»، جريدة العلم، ص 22، 9 يوليوز 1977.

3 - محمد الحبيب الفرقاني، قصيدة «أنوال»، الركن الثقافي لجريدة أنوال، 10.11.1991.

قائدها عبد الكريم الذي غدا بطلا لمقاومة شعبية ممجدة، يقول الشاعر الجزائري الكبير
مفدي زكريا:

أجبريل هلل بأي الظفر وكبر وخط جليل الخبر¹
ورف بأجنحة النصر فوقب ني الريف حول القنا والشجر
سلام بني الريف من مهج تكاد تطير ولا تصطب
هنيئا بني الريف قد فتحت لكم جنة الخلد، من يبتدر؟
وينشد شاعر العراق البليغ معروف الرصافي:

أعبد الكريم وأنت البطل وفيك الرجاء وفيك الأمل²
تهز البطولة اعطافها إذا ما دعلناك فيها المثل
سيخلد ذكرك في الناهضين وتثني عليك الظبا والأسل

وما يلبث إبراهيم طوقان أن يعدد في نشيد طويل مناقب هذا البطل الأبي:

في ثنايا العجاج والتحام السيوف³

بينما الجود اجوامنايا تطوف

يتهادى نسيم فيه أزي سلام

نحو «عبد الكريم» الأمير الهمام

ريفنا غابنا نحن فيه الأسود ريفنا نحمة

كلنا يعجب بفتى المغرب

1- مفدي زكريا، «أمجادنا تتكلم» وقصائد أخرى، جمعه وحققه: مصطفى بن الحاج بكير حمودة، الجزائر مؤسسة مفدي زكريا 2003م، ص 21، عن كتاب «المغرب العربي في فكر محمد بن عبد الكريم الخطابي ورؤاه التحريرية والوحدوية»، أعمال الندوة المغاربية تخليدا للذكرى 65 لتزول محمد بن عبد الكريم الخطابي بمصر، القنيطرة 21 يونيو، 2012 منشورات مؤسسة سيدي مشيش العلمي رقم: 28، ص 73.

2- ديوان معروف الرصافي، مراجعة مصطفى الغلاييني، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، ص 423.

3- إبراهيم طوقان، الأعمال الشعرية الكاملة، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، ص 279.

كلنا يطربلانتصار الأبي

أين جيش العدا إن دعا للجهد ؟

أصبحوا أعبدا بالسيوف الحداد

ريفنا غابنا نحن فيه الأسود ريفنا نحمة

طالما استعبدوا وأذلوا الرقاب

أيها الأيددء يوم الحساب

فليذوقوا الزعاف بالظبا والأسل

ولنعلم الهتاف للأمر البطل

ريفنا غابنا نحن فيه الأسود ريفنا نحمة

لقد ألقى الأدباء في معركة أنوال ملهما لهم صوب صوغ نصوص إبداعية ذات حماسة، فمن القصيدة ذات الصدر والعجز إلى شعر التفعيلة وإيقاعات النشيد المطربة، سننحو صوب كتابة مغايرة حيث سيدبج الشاعران محمد الحلوي وحسن الطربيق مسرحيتين شعريتين خلقا بهما عالما متخيلا وازيا به الوقائع والأحداث التاريخية لهذه المعركة، والأمر الأكيد هو أن التوسل بالمسرح كجنس أدبي قابل للتشخيص أتى من ارتكازه على الحوار كوسيلة لبناء النص، ولعل هذه الخاصية ستتيح للمبدع. حتما. إمكانية إسماع المتلقي أصوات شخوص مسرحيته، عبر تقنية التخاطب في ما بينها، مما يدنينا منها ويجلي الموضوع أكثر.

لقد أفسحت لنا مسرحية محمد الحلوي التي صاغها في ست لوحات المجال من أجل التعرف على هذه الواقعة بحذافيرها، حيث انطلق الكاتب من مشهد تهنئة الشعراء لابن عبد الكريم الخطابي عقب انتصاره، يقول الشاعر الأول:

يا يوم وقعة أنوال وقد تركت أشلاؤهم عندها لحما على وضم¹

لم يلبسوا قبلها خزيا كخزيم فيها ولم يذبخوا بالسيف كالغنم

1. عباس الجراري، تطور الشعر العربي الحديث والمعاصر في المغرب من 1830 إلى 1990 م، منشورات النادي الجراي 11، الطبعة الأولى 1997، ص 283.

نصر نكسنا به راياتهم كمدًا
ويتقدم الشاعر الثاني:
واختال منه بنو الإسلام في شمم

علمت من رسفوا في القيد أن يثبتوا
فالتف حولك منهم كل قسورة
وأن يسيروا إلى أعدائهم في دم¹
يعانق الموت في شوق وفي نهم
ويقول الشاعر الثالث:

أرسلتها صيحة في الريف عالية
وثرث في أطلس الأحرار تقدف من
هبت لروعها الدنيا على قدم²
أبراجه عصب الأعداء بالحمم
حرب بعثنا بها في العرب ماضيهم
ومجدهم مشرقا في سالف الأمم

أمامسرحية الطربيق التي نظمها في أربع لوحات شعرية تمثيلية، فقد انطلقت من التخطيط للمعركة، يقول ابن عبد الكريم الخطابي:

ألا فاجمعوا كل أقطابنا لنفرغ من موقف أوحد³

وندرس خطتنا علنا بأثمن أرائهم نهتدي

ونصنع معجزة في زمان فقير فما فيه من احد

فمن لا يدوذ عن الحوض فيه ويحيي السيادة في البلد

وقد أبدع الشاعر في تصوير هلع الإسبان وتخاذلهم حين حاقت بهم الهزيمة، عبر مادار بينهم من حوارقلق. يقول الكولونيل أوليباريس:

تدور رحى الحرب معجلة على غير مألوفها السابق⁴
تسرعها خطوات التواني فسابقها ليس كاللاحق

1 - نفسه، ص284.

2 - نفسه.

3. حسن الطربيق، «أنوال في مواكب الإشراف»، مسرحية شعرية في أربع لوحات، منشورات مجلة روافد ثقافية المغربية، الطبعة الأولى 2016 ص17.

4 - نفسه، ص28.

فيجيب القبطان خواكين:

تدوي انفجاراتهم بيننا بصوت رصاصهم الماحق
ويرد فرانسيسكو:

ميننا بما لا ينتهي من هزيمة ستجعلنا مرمى على كل ربح¹
وأعداؤنا في موقف متطامن مثير لما يرجونه ومريح

لقد خلدت كتابات أدبية كثيرة أنوال وأمجادها وأشادت ببطولة ابن عبد الكريم الخطابي وحنكته، بيد أنها ضاعا وتوطواها النسيان، فقد تلاشت المرددات الشعبية التي نظمت بالريفية ساعة النصر لأنها مادونت قط، كما أننا لا نذكر من قصيدة أبي عبد الله السليمان عن تنويته بالثورة الريفية إلا مطلعها الآتي:

دع الفتيات ترح في القصور ويمم مسعفا وادي النكور²

لا ريب أن معركة أنوال مرقت من التوثيق التاريخي إلى التخيل الأدبي عبر الأشعار التي تغنت بها والمسرحيات التي أحيت بطولاتها بشخصها التي ضاهت الواقعي وانفلتت أحيانا من عقاله لتخلق بانزياحاتها متعة وتشويقا لدى المتلقي.

لقد استطاع الأدب من حيث هو تمثيل جمالي، أن يصنع للبطولات وطنا تسكنه فخلدها حين وطأت ممالكه القريضية وحين رقصتها عباراته النثرية التعبيرية.

وحسبي هذه الأبيات إشادة بهذه المعركة المجيدة:

أنوال يامفخرة الأجيال

قبلة أنت على غرة الجبال

أبية شماء لم تشتربمال

دحرت الفرنجة بالأبطال

1 - نفسه، ص 29.

2- أبو عبد الله السليمان، اللسان المعرب عن تهافت الأجنبي حول المغرب، مطبعة الأمنية. الرباط، الطبعة الأولى، 1971، ص د.

وأزريتيم شرنكال
لافحة أنت كالوهج المتعال
متألأة صافية كالزلال
جهاد وصمود ونضال
درة المعارك يا أم الرجال
سنية بهية في كل الأحوال

المقاومة الريفية في التاريخ المدرسي ملاحظات ومقاربات منهجية

ذ. هشام مرزوق

باحث في التاريخ - جامعة ابن طفيل، القنيطرة/ المغرب



مقدمة:

يعد تاريخ المقاومة الريفية جزءاً أساسياً من تاريخ المغرب، فلا يمكن الحديث عن المقاومة المغربية دون أن يكون للمقاومة الريفية وأبرز زعمائها الأمير محمد بن عبد الخطابي حيزاً مهماً وأثراً واضحاً وبيننا فيها، وذلك نظراً لصداها المحلي والإقليمي وحتى العالمي، ففي فترة زمنية كانت الإمبريالية تستعرض قوتها على الدول المستعمرة، برزت مقاومة محمد بن عبد الكريم الخطابي كنبراس ودافع قوي وملهم لباقي حركات التحرر العالمية.

ترتكز إشكالية هذه المقالة حول واقع حضور تاريخ مقاومة الريف للاستعمار الإسباني والفرنسي من خلال أبرز زعمائها الأمير محمد بن عبد الكريم الخطابي والملحمة التاريخية لمعركة أنوال في مادة التاريخ المدرسي، حيث حاولنا الكشف عن الكيفية التي وظفت بها المقاومة الريفية في درس التاريخ وآليات تناولها. وقد اعتمدنا في ذلك على تحليل المتن المعتمد والمكون من الكتب المدرسية، من خلال تحليل المضمون للوقوف عند موقع مقاومة الأمير محمد بن عبد الكريم الخطابي ضمن برنامج مادة التاريخ.

هذه المساهمة، مقارنة لمضامين التاريخ المدرسي، وكيف تم توظيف ذكرى معركة أنوال على مستوى المضمون والمنهج، سنحاول من خلالها الإجابة على الأسئلة التالية:

ماهي التوجهات والمبادئ التي على أساسها تم انتقاء وبناء المضامين التي تخص معركة أنوال في مناهج التاريخ المدرسي بالثانوي التأهيلي والثانوي الإعدادي؟ وما طبيعة وخصوصيات هذه المضامين من حيث عدد الدروس والأنشطة التعليمية التي وردت فيها ذكرى معركة أنوال؟

وما هي نسبة المضامين المخصصة لتدريس هذه المعركة؟ وما هي الآليات التي قارب بها التاريخ المدرسي هذه المعركة باعتبارها حدثا تاريخيا رئيسيا في تاريخ المقاومة المغربية من حيث المنهج والمواقف الوجدانية؟

لقد حاولنا الإجابة على هذه الأسئلة من خلال رصد سياق حضور المقاومة الريفية من خلال المضامين والوسائل المعتمدة، مع تفكيك الصورة التي تم بها توظيف المقاومة الريفية بالكتاب المدرسي في كل من الثانوي التأهيلي والثانوي الإعدادي.

حسب التوجيهات التربوية والأطر المرجعية المنظمة والموجهة للعملية التعليمية التعلمية الخاصة بمادة التاريخ والجغرافيا، تمت برمجة الدروس التي تخص تاريخ القرن العشرين لثلاث مستويات: بالنسبة للسلك الثانوي الإعدادي حضرت دروس تاريخ المغرب الخاصة بالقرن العشرين لمستوى الثالثة إعدادي. أما الثانوي التأهيلي فتمت برمجة دروس القرن العشرين لمستويين هما: الأولى بكالوريا علوم تجريبية ورياضية واقتصادية، والثانية بكالوريا آداب وعلوم إنسانية.

قبل الخوض في تحليل مضامين الكتب المدرسية، ومقارنتها بمعركة أنوال والمقاومة الريفية، لابد من التطرق لمفهوم التاريخ المدرسي والمرجعيات الأساسية الموجهة له، ثم التعرّيج على النقل الديدكائكي أي تحويل وتجسير المعرفة التاريخية من معرفة عالمة أكاديمية إلى معرفة مدرسية تراعي مقومات المرحلة المدروسة، أي هي تلك العمليات الفكرية التي يخضع لها المحتوى المعرفي المهيأ للتدريس، والتي تجعل منه موضوعا قابلا للتدريس.

فحسب خديجة واهبي يمكن تعريف التاريخ المدرسي بأنه: «تلك المادة الدراسية التي لا تدخل ضمن التاريخ العالم. فهو ذلك الذي تم نقله أساسا من التاريخ العالم والمتمثل في دراسة الماضي بأبعاده المختلفة، مع استحضار التفاعلات بين الاقتصادي والاجتماعي والذهني والثقافي والديمقراطي والسياسي... قصد إعطاء معنى للحاضر وربما أيضا للمستقبل»¹.

أما فيما يخص المرجعيات الأساسية التي تؤطر وتوجه التاريخ المدرسي، فهي ثلاث اعتبارات موجهة لهذه العملية.

أولا: اعتبار التاريخ كمنتوج للبحث العلمي، وكمنتوج لمختلف المدارس التاريخية؛

ثانيا: التعامل مع التاريخ في ارتباطه مع القيم الحاملة، وذلك أن الأحداث لا تحكى بمجرد أنها وقعت، وإنما لكي تعبئ نسق القيم السائدة؛

ثالثا: تبني التاريخ في علاقته مع الثقافة المثقفة: أي أن التاريخ ثقافة لأنه يحكي الماضي والتجارب الماضية، والثقافة المثقفة تعين وتنظم وتعاشر من حيث الكيف أماكن وأحداثا خاصة في الماضي بطريقة حية ومنفتحة وموجهة¹.

كما أن التاريخ المدرسي يقترح معان أكثر من إقرار قوانين، فهو يعبئ الصورة والوجدان والمفهوم وإصدار حكم. فتفكير المتعلم في قسم التاريخ يوجهه للإجابة عن إشكالية بتجميع المعطيات وتعريفها وتفسيرها وتأليفها أو تفكيكها. وذلك بطريقة مقنعة ومعقولة في إطار ممارسة فردية أو جماعية.

ولا يتأتى هذا إلا عبر عملية النقل الديدانكتيكي، أي الانتقال من المعرفة التاريخية الأكاديمية إلى المعرفة التاريخية المدرسية، ويقتضي هذا من كل ممارس لعمليات التدريس استحضار أو التوصل إلى معالجة واقع تاريخي عبر ثلاث معطيات أساسية في إنتاجات التاريخ وهي:

أولا: الأحداث التاريخية: وهي تشكل المادة الأولية للتاريخ وتقدم كنتاج للمؤرخين وليست كحقائق تاريخية²، إذ يتم تناول الوقائع التاريخية بإعمال المنهج التاريخي، وبتعبئة المفاهيم الأساسية قصد التوصل إلى اقتراحات جديدة؛

ثانيا: المفاهيم التاريخية: وهي مفاهيم لها علاقة بعلم التاريخ وبعلم اجتماعية وإنسانية مجاورة، وهي إحدى أدوات التفكير تمكن المتعلم من التطور الفكري والارتقاء المعرفي نحو التجريد، و«إن تعلم المفهوم يفترض في التاريخ المدرسي معرفة «اسم» وربطه بصفاته الأساسية، واستعماله بنجاعة»³؛

1- خديجة واهبي، المرجع السابق، ص ص 22-23.

2- المصطفى الخصاصي، قضايا ابستمولوجية وديداكتيكية في مادتي التاريخ والجغرافيا، الطبعة الأولى، دار الثقافة، الدار البيضاء، ص 68.

3- خديجة واهبي، المرجع السابق، ص 75.

ثالثا: الاقتراحات المجردة: هي الإطارات النظرية والمرجعية المستعملة في سياق دراسة وقائع تاريخية. وقد عرفت الباحثة خديجة واهمي، بأنها بناء عقلي في أعلى مستويات التجريد والتركيب، في صيغة منظمة ومرتبة بالنسبة للواقع التاريخي المعقد والمركب. وقد تكون الاقتراحات المجردة الإطار النظري للبحث والتفكير والتأليف التاريخي، انطلاقا من تصور ومن مرجعية إيديولوجية معينة¹.

المطلب الأول: المقاومة الريفية في التاريخ المدرسي بالثانوي التأهيلي: الحضور وسياق التناول

المقاومة الريفية في الثانية بكالوريا: وثائق منزوعة السياق ونقل ديداكتيكي مشوه

في سلك الثانوي التأهيلي تم إدراج درسين من دروس تاريخ المغرب إبان عهد الحماية. الدرس الأول موسوم بـ «المغرب تحت نظام الحماية» بالنسبة لمستوى الثانية بكالوريا، أما فيما يخص الدروس المقررة للأولى بكالوريا علوم تجريبية فحضرت المقاومة الريفية من خلال الوحدة الثالثة «نظام الحماية بالمغرب والاستغلال الاستعماري» ضمن الجزء الثانية.

كما وجبت الإشارة إلى أن الوحدات الدراسية المقررة بالنسبة للمقاومة المغربية عموما، لا على المستوى الكمي ولا الكيفي، لا تخدم الأهداف الأساسية التي رسمتها التوجهات التربوية الموجهة للعملية التعليمية في تدريس التاريخ بالنسبة للثانية بكالوريا آداب وعلوم إنسانية بل ترسم أهدافها التعليمية بشكل لا يمكن أن يتحقق من خلال الوثائق المنتقاة لخدمة وتحقيق هذه الأهداف، «ترسيخ الوعي بأهمية دور المقاومة المسلحة لمواجهة نظام الحماية».

بعدها أسهبنا الحديث عن الوحدات الدراسية المقررة في المستوى الثانوي التأهيلي، الآن سنفكك سياق تناول التاريخ المدرسي بالثانوي التأهيلي² للمقاومة الريفية ومعركة أنوال

1- نفسه، ص 76.

2- نظرا لتعدد الكتب المدرسية المقررة بالنسبة للثانية بكالوريا مادة التاريخ والجغرافيا والتي يبلغ عددها خمسة كتب سنعتمد على كتابين وهما الأكثر اعتمادا في المغرب، هما «في رحاب التاريخ» و«الجديد في التاريخ».

على الخصوص. تم تخصيص بطاقة بيوغرافية¹ للأمير محمد بن عبد الكريم الخطابي، وحسب البطاقة التعريفية المختصرة المقتضبة متى ولد محمد بن عبد الكريم الخطابي وانتصر في أنوال، وفي الأخير تخصيص جزء مهم للاستسلام والمناطق التي نفي إليها.

كما تم تخصيص نص لغنائم معركة أنوال²، هذا النص يحمل إحالة مرجعية من كتاب الاستعمار الإسباني في المغرب لمؤلفه الإسباني ميكيل مرتين.

إذن لقد تمت مقارنة المقاومة الريفية وعلى وجه الخصوص معركة أنوال من خلال صورة مرفوقة ببطاقة بيوغرافية تحمل دلالات الاستسلام أكثر من الحديث عن صدى المعركة والانتصار. أما الوثيقة الثانية والتي هي عبارة عن نص منزوع السياق، نص بدون تأريخ لوقائع المعركة ولا لمكان المعركة وحتى صداها التاريخي، وهذا ما يعاب على عملية الترجمة، التي تفقد النص الأصلي مبناه ومعناه، هذا من جهة، ومن جهة ثانية، مقتطف من كتاب الاستعمار الإسباني في المغرب لصاحبه الإسباني ميكيل مرتين³ ومورس في حقه النقل الديداكتيكي، فتحول النص إلى جدول إحصائي، يعد الآلات والمعدات العسكرية التي غنمها المقاومة الريفية في معركة أنوال.

وفي الأخير، يمكن إدراج تدوينة تتضمن ملاحظة مهمة وهي أخذ النص من كتاب للمؤلف الإسباني مرتين ميكيل، وهو أقرب لكتب الحوليات الكرونولوجية، وهذا في الحقيقة ركوب على السهل بدل التنقيب عن نصوص في مظانها وهي متوفرة، تم الاعتماد على الجاهز وانطلاقاً مما يراه الآخر.

1- ضمن الكتاب المدرسي «في رحاب التاريخ»، السنة الثانية من سلك البكالوريا، مسالك الآداب والعلوم الإنسانية والعلوم الشرعية، ص 71. مع الإشارة إلى أنه تم إدراج نفس الصورة في الكتاب المدرسي «الجديد في التاريخ» مع إرفاق الصورة لبطاقة تعريفية لزعيم المقاومة الريفية محمد بن عبد الكريم الخطابي.

2- النص نفسه تم اعتماده في الكتابين، ونفس الإحالة المرجعية مع تسجيل ملاحظة بسيطة في كتاب «الجديد في التاريخ» تم التصرف أكثر في النص مما أفقده معناه.

3- ميكل مرتين، الاستعمار الإسباني في المغرب 1860-1956 ترجمة عبد العزيز الودي، منشورات التل، الطبعة الأولى، 1988، ص 89.

المطلب الثاني: احتفاء بذكرى معركة أنوال مع غياب أفق للمادة بهذا المستوى الأولى بكالوريا علوم - نموذجاً-

في محاولة رصد وتفكيك مقارنة الكتاب المدرسي بالنسبة للأولى بكالوريا علوم للمقاومة الريفية. نسجل شيئا من التعاطي الإيجابي مع المقاومة الريفية، في المقابل تهميش شبه كلي لباقي عناصر المقاومة المغربية، وسنوضح هذا الالتباس فيما هو أت. كما أشرنا إلى حد ما فإن القائمين على إعداد هذا الكتاب¹ قد وفقوا في انتقاء الوثائق والدعامات الأساسية التي تخدم الأهداف التعليمية لهذه الوحدة الدراسية، ومنها إبراز دور المقاومة الريفية في مجابهة الاستعمار الإسباني.

جاء سياق المقاومة المسلحة المغربية بالنسبة للأولى بكالوريا علوم ضمن المجزوءة الثانية، الوحدة الثالثة الموسومة بـ « نظام الحماية بالمغرب والاستغلال الاستعماري»، وذلك في سياق النشاط التعليمي الثاني المعنون بـ «أتبع مراحل الاحتلال العسكري للمغرب وأتعرف المقاومة التي واجهته».

انطلاقاً من عنوان الوحدة، فهي لا توجي بوجود مقطعا حول المقاومة، ذلك أن المقطع ركز أكثر على «نظام الحماية وظاهرة الاستغلال الاستعماري»، لذلك جاءت خانة الأهداف شبه خالية من أي إشارة تتعلق بالمقاومة المسلحة، باستثناء هدف واحد جاء على الشكل التالي:

«تعرف مقاومة المغاربة للاحتلال الاجنبي» وشكلت الخريطة وصورتان مرفقتان ببطاقتين بيوغرافيتين لكل من المقاوم موحى أوحمو الزباني والمقاوم محمد بن عبد الكريم الخطابي، ونصين الأول حول مقاومة قبائل زيان والثاني حول صيت وإشعاع مقاومة الريف.

وإذا كنا قد سجلنا شبه غياب لعنصر المقاومة المسلحة بالنسبة لمستوى أولى بكالوريا علوم، فالأمر لا ينطبق على مقاومة الريف، فقد تم انتقاء نص بعناية موسوم بـ «المقاومة بالريف» احترام فيه قواعد النقل الديدكتيكي، وهو عبارة عن مقتطف من كتاب «أصول حرب الريف» لصاحبه جيرمان عياش. يبرز النص صدى معركة أنوال في العالم ودورها في

1- أمام تعدد الكتاب المدرسي بالنسبة للأولى بكالوريا علوم تجريبية ورياضية واقتصادية سنعتمد على كتابين نرى أنهما أولى بالدراسة والتناول نظراً لاعتمادهما الواسع في التدريس بالمغرب هما: «مورد التاريخ والجغرافيا» و«منار التاريخ والجغرافيا».

إذكاء الحماس والأمال التي انبعثت من جديد لدى حركات التحرر في العالم، هذه الآمال التي خيبتها مبادئ الأربعة عشر للرئيس الأمريكي ويلسون. حيث جاء النص ليركز بشكل أساسي مدى تأثير المقاومة الريفية في المقاومة العالمية.

الدعامة الثانية التي تعبر عن المقاومة الريفية هي صورة محمد بن عبد الكريم الخطابي مرفوقة ببطاقة تعريفية له، خصصت هذه البطاقة حيزا مهما للتعريف بشخصه، وركزت على دوره في إلحاق الهزيمة الكبرى في أنوال بالجيش الإسباني وكيف استسلم بعدما تحالفت ضده القوى الإمبريالية الفرنسية والإسبانية.

وفي الأخير تم إفراد معركة أنوال بتعريف مفصل في آخر الصفحة، وهو الأمر الذي يتماشى مع التوجيهات التربوية الخاصة بالمادة أو الأطر المرجعية.

لقد جاء حضور المقاومة المغربية باهتا في هذا المستوى بالرغم من حضور مقاومة الريف، لكن على المستوى الكيف والكم. أي ان التلميذ بعد استكمال هذا المقطع التعليمي التعليمي يعتقد أنه قد اطلع على كل أشكال المقاومة التي واجهت الاستعمار الفرنسي والإسباني، كما جاء في النشاط الثاني، بحيث لم نطلع سوى على نموذجين من هاته المقاومة، وكان من الاجر التنصيص على ذلك ضنت العنوان، وكذلك أهداف التعلم، ليؤكد على أن سيتم التركيز على بعض عناصر المقاومة دون غيرها.

تغيب مناطق بكاملها وحذفها من خريطة المقاومة المغربية لتلاميذ في آخر مرحلة لهم لاجتياز الامتحان الإسهادي في مادة التاريخ يطرح أكثر من علامة استفهام.

هل الامر متعلق بتوجه مؤلفي الكتاب بحكم انه يندرج ضمن الشعب العلمية؟ وإذا كان كذلك ألا يعتبر هذا التوجه كارثي كونه يغفل أن هؤلاء التلاميذ في يوم ما سيصبح في مركز القرار ولا يفقه من تاريخ سوى ما علق بذهنه من تقييحات؟.

المطلب الثالث: معركة أنوال بالثانوي الإعدادي: احتشام في تناول وتكريس للغياب

قبل الخوض في مقارنة الكتاب المدرسي بالثانوي الإعدادي، لمعركة انول لابد من الحديث عن قراءة أولية لعناوين الأنشطة والمقاطع التعليمية، والتعريح على الأسئلة المذيلة

لكل وثيقة ودعامة التي تخص المقاومة المسلحة المغربية للاستعمار الاسباني والفرنسي، لكي نتمكن من الكشف عن سياق التناول وأبعاد التأريخ لقضية محورية للتعليم الناشئة.

هذه أهم المضامين التي وردت بالكتاب المدرسي¹ «التجديد في الاجتماعيات»

• تعرف مرحلة المقاومة المسلحة، وتمييز أهم معاركها من خلال:

- توطين مناطق المقاومة المسلحة ضد الغزو الاستعماري

- تعرف أهم المعارك التي عرفتها هذه المرحلة وقادتها، وسنوات حدوثها

- استنتاج بعض عوامل صمود المقاومة المسلحة

أما كتاب «المنار في الاجتماعيات» فإن المضامين المتعلقة بالمقاومة المسلحة وردت على هذه الشاكلة:

- رصد مراحل الاحتلال العسكري الفرنسي والاسباني للمغرب.

- إبراز المقاومة المسلحة للغزو الاستعماري الفرنسي والإسباني.

يمكن ان نستنتج من خلال قراءة أولية لهم عناوين المضامين الواردة بالكتاب المدرسي، سياق حضور المقاومة المسلحة، جاء في سياق إبراز موضوع الاحتلال، واستعمار المغرب، أكثر منه إظهار للمقاومة المسلحة، بمعنى تكريس قضية مغرب مغاربة الاستسلام على حساب مغرب المقاومة ورفض الاحتلال.

حضرت المقاومة الريفية بشكل لا يتناسب وحجم تضحياتها في الكتاب المدرسي بالثانوي الإعدادي. وقد خصص الكتاب المدرسي نشاطا تعليميا للمقاومة المسلحة بالمغرب، فإلى جانب صورة للجيش الفرنسي في معركة سيدي بوعثمان، ونص يتحدث عن قبائل زيان كان هناك نص يتحدث عن غنائم معركة أنوال. حاول من خلاله واضعي كتاب المنار في الاجتماعيات إبراز مقاومة محمد بن عبد الكريم الخطابي، من خلال نص مقتطف من الجريدة الرسمية سنة 1956، واعتمادا على المؤرخ ألبير عياش وكتابه «المغرب والاستعمار

1- ارتأينا اختيار كتابين مقررين للمستوى الثانوي الإعدادي بناء على حجم الانتشار بالمغرب وهما التجديد في الاجتماعيات والمنار في الاجتماعيات.

حصيلة السيطرة الفرنسية»¹ والكتاب هو عبارة عن حوار جرى بين برلماني فرنسي ووزير خارجية فرنسا حول وقائع مر على حدوثها أزيد من 40 سنة، وهي هزيمة القائد محمد بن عبد الكريم الخطابي أمام الترسانة الحربية الفرنسية والاسبانية.

وبالرغم ان النص يتحدث عن استسلام الأمير محمد بن عبد الكريم الخطابي زعيم المقاومة الريفية، إلا انه وبشكل ضمني النص يقدم صورة عن صمود المقاومة المسلحة وصعوبة التغلب عليها، بل يمكن القول أن إثارة هذا الموضوع من قبل النخب السياسية الفرنسية الرسمية بعد مرور أزيد من 40 سنة، يعكس قوة المقاومة المسلحة الريفية وزعيمها محمد بن عبد الكريم الخطابي.

كما ان الكتاب سيجعل من الاستعمار قضية أساسية ومركزية، والفضية الفرعية الثانوية كانت هي المقاومة باعتبارها رد فعل الشعب المغربي على حدث تاريخي تمثل في الهجمة الإمبريالية التي قادتها إسبانيا وفرنسا على المغرب.

أما كتاب التجديد في الاجتماعيات، وهو الأكثر انتشارا واعتمادا في تدريس مادة التاريخ بالثانوي الإعدادي، قد ركز في بناء التعليمات على إدراج جدول هدف من خلاله المؤلفين إلى إبراز التوزيع الجغرافي للمقاومة المغربية، وذلك عبر الوقوف على أهم النماذج للمقاومة المغربية في كل التراب الوطني، متبعين التسلسل الكرونولوجي للمقاومة المسلحة من 1912 إلى حدود 1930، فيمكن تسجيل ملاحظات عدة على الهدف من وضع هذا الجدول. أبرزها محاولة تدبيج قوالب جاهزة لقياس عدد انتصارات المقاومة وهزائمها كذلك. هذه الموازنة لا تصح معرفيا ولا منهجيا وحتى وجدانيا، فلا يمكن تقييم تضحيات المقاومة من خلال هذا المعيار، وإلا كيف نعبر عن نتائج معركة بوكافر التي لا زالت تخلدها الذاكرة الجماعية للمغاربة²، ونفس الامر ينطبق على المعطيات الخاصة باستسلام عسوأوبسلام، فالجدول طرح مسألة الاستسلام دون الإشارة أن المقاوم عسوأوبسلام قد اشترط على الفرنسيين مجموعة الشروط

1- ألبير عياش، المغرب والاستعمار حصيلة السيطرة الفرنسية، دار النشر، دار الخطابي، الطبعة الأولى، 1985.

2- حول هذه المعركة انظر: محمد الكتاني، زايد أوحامد ومقاومته للاحتلال الفرنسي في جنوب الأطلس الكبير الشرقي، مجلة تاريخ المغرب، العدد5، 1994، ص ص 106-107. ولعل رمزية هذه المعركة في الذاكرة الجمعية المغربية، هي إحياء ذكراها سنويا من قبل المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير.

من بينها أنه لا يمكن ان يحكم قبيلة أيت عطا إلا واحد من أبنائها، مع احتفاظ أهل القبيلة بالأسلحة واحترام عادات وتقاليد القبيلة¹.

انطلاقا من الملاحظات الأولية يبدو أن هناك غيابا أو تغييبا لرموز المقاومة المسلحة، سواء المغربية ككل أو الريفية كذلك، في دروس التاريخ المدرسي الثانوي الإعدادي. أما بالنسبة لآلية التوظيف فلا يعدو الأمر أن يكون شبه عشوائي في انتقاء الوثائق والدعامات الأساسية، وفق مبدأ التنوع والتدرج. فبدون مراعاة الشروط السابقة، يصبح تدريس المادة بالتعليم الثانوي التأهيلي والإعدادي مجرد استخراج مجموعة من المعلومات والأفكار عن حقبة زمنية معينة أو حدث ما، ولا يستهدف إكساب المتعلم مهارات وتقنيات تمكنه من إنتاج المعرفة وتنظيمها. هذا من جهة، ومن جهة ثانية إكساب المتعلم قيما وجدانية تتعلق بوطنه وتاريخه.

المطلب الرابع: حضور المقاومة الريفية من خلال الصورة الفوتوغرافية بالتاريخ المدرسي

تم توظيف دعامة الصورة بشكل غير مفهوم، وخصوصا زعماء المقاومة بالمغرب، حيث جاءت الصور الفوتوغرافية الموظفة لا تخدم عنصر المقاومة والمجاهة والرفض للاحتلال الأجنبي، فمثلا بالثانوي التأهيلي تم اعتماد نفس الصورة لزعيم المقاومة الريفية محمد بن عبد الكريم الخطابي بالأبيض والأسود، ولم يتم إضافة صور تخص معركة انول أو مقاومين من الريف. ونفس الامر لباقي عناصر المقاومة المغربي فتم اعتماد صورة فوتوغرافية لجنود الاستعمار الفرنسي، وهم واقفون خلف مدفع احمد الهبة تم الاستيلاء عليه. مجلة زمان أدلي بالملاحظات التي تسترعي انتباهي، بغض النظر عن صحتها أو خطئها، ودون التأكيد على الأخذ بها أو تركها، كما جرت العادة.

إذن، في سياقنا هذا، نقف عند أهم دعامات الصور التي تخص المقاومة المغربية وعلى وجه الخصوص المقاومة الريفية، وكيفية توظيفها ضمن الكتاب المدرسي الثانوي التأهيلي؛ تم اعتماد نفس الصورة الفوتوغرافية لمحمد بن عبد الكريم الخطابي، في كل من

1- انظر: جريدة الاتحاد الاشتراكي، عدد 15 ماي 1998 ص 6.

الكتاب المدرسي الجديد في التاريخ¹ للثانية بكالوريا وكذلك كتاب مورد التاريخ والجغرافيا² للأولى بكالوريا علوم تجريبية ورياضية. صورة فوتوغرافية بالأبيض والأسود لزعيم مقاومة الريف وهو يجلس على كرسيه وبجلبابه الريفي. أما حجمها ففي كتاب الجديد في التاريخ فهي لا تتعدى ثلاث سنتمترات، باهتة وجودة ضعيفة جد، واختلفت في حجمها بالنسبة لكتاب مورد التاريخ والجغرافيا للأولى بكالوريا علوم. ودرج نفس شكل الصورة لمحمد بن عبد الكريم الخطابي بالنيلة لكتاب في رحاب التاريخ³ للثانية بكالوريا وهو يجلس في مكتبه.

انطلاقاً مما سبق، ولما عرضناه حول الكيفية التي تم بها انتقاء الصور التي تخص زعيم المقاومة الريفية، كان على لجان التأليف أن توافق الإيكونوغرافيا⁴ المرفقة مع النصوص المنشورة ضمن ثناياها، وكان من الجيد انتقاء صورة تخدم صدى انتصار الريفيين في ملحمة أنوال 1921، وكان بالإمكان توظيف صورة للمقاوم محمد بن عبد الكريم الخطابي وهو يركب حصانه أو في لحظة استراحة محارب.

- 1 - الجديد في التاريخ، السنة الثانية بكالوريا من سلك البكالوريا، الآداب والعلوم الإنسانية والعلوم الشرعية واللغة العربية بالتعليم الأصيل، العلوم الاقتصادية وعلوم التدبير المحاسباتي والعلوم الزراعية. كتاب التلميذ والتلميذة، المؤلفون محمد شجيع وآخرون، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 2012، ص 77.
- 2 - مورد التاريخ والجغرافيا، السنة الأولى من سلك البكالوريا، مسلك العلوم الشرعية بالتعليم الأصيل، مسلك العلوم التجريبية، مسلك العلوم الرياضية، مسلك العلوم الاقتصادية والتدبير. كتاب التلميذ والتلميذة، المؤلفون محمد بن يعقوب وآخرون، طبعة جديدة ومنقحة 2016، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، ص 95.
- 3 في رحاب التاريخ، السنة الثانية من سلك البكالوريا، مسالك: الآداب والعلوم الإنسانية والعلوم الشرعية واللغة العربية بالتعليم الأصيل، العلوم الاقتصادية وعلوم التدبير المحاسباتي والعلوم الزراعية. كتاب التلميذ والتلميذة، تنسيق محمد عزالدين الدرعاوي وآخرون... طبعة 2012، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط 2012، ص 71.
- 4- الأيكونولوجيا لغوياً، الأيقونولوجيا أو الأيقونوغرافيا مُصطلح مشتق من كلمتين يونانيتين قديمتين يمكن ترجمتهما حرفياً إلى كتابة الصورة. أما موضوعياً، فالأيكونولوجيا فرع من فروع تاريخ الفن يُعنى بدراسة الرموز الفنية، بمعنى أنه يهتم بتعريف ووصف وتفسير محتويات الصورة.

يرى العديد من مؤرخي الفن أن الأيكونولوجيا كعلم بدأت في القرن التاسع عشر من خلال دراسات وكتابات عدد من مؤرخي الفن أمثال الفرنسي أدولف نابوليون ديدرون والتشييكوسلواكي أنتون هاينريش سرينغر والفرنسي إميل مال، إلا أن الدكتور ثروت عكاشة صاحب «المعجم الموسوعي للمصطلحات الثقافية» الصادر عام 1990، يعود بتلك الجهود إلى عصر الدولة البيزنطية حيث يذكر أن راهباً بيزنطياً يدعى بانزليونوس وضع كتاباً في هذا المجال بعنوان أيكونوغرافيا، أوضح فيه التوجهات التي يجب على المصورين البيزنطيين أن يلتزموا بها في أعمالهم.

المطلب الخامس: من أجل بديل يفتح أفقا جديدا لدرس التاريخ المدرسي

بناء على مجموعة من الملاحظات وأثناء الممارسة الصفية تبين أن فلسفة المناهج الدراسية الخاصة بتدريس مادة التاريخ يعترضها العديد من الإشكالات المعرفية والمنهجية. نكتفي بالإشكال الذي نراه جوهريا، وهو الدروس التي تخص تاريخ المغرب على العموم. دروس في الحاجة إلى إعادة الصياغة والبناء من أجل خدمة أهدافها السامية، أي العمل على ترسيخ القيم والاتجاهات، وذلك عبر تعزيز قيم المواطنة والاعتزاز بالانتماء للوطن وامتداداته الحضارية ومساهماته التاريخية، أو بالعكس، اتخاذ مواقف سلبية من بعض الأحداث، والمظاهر كالاستعمار، والعنصرية، والديكتاتورية.

تصنف مادة التاريخ دون غيرها، كونها المادة الأكثر ارتباطا بمنظومة القيم والمواطنة والهوية، وبالتالي فهي تكون فلسفة المجتمع، حتى إن هناك من يعتبرها القناة الأساسية التي يتم من خلالها بناء وجدان التلميذ¹ ونظرتة إلى وطنه، وماضيه، واستشراف حاضره، ومستقبله. كما أن التاريخ هو أساس الذاكرة المشتركة.

لقد سبق وأنجزنا دراسة² حول التاريخ المدرسي، ومما خلصنا إليه أن الأحداث التاريخية المقررة من أواخر العصر الوسيط وإلى حدود الاستقلال يهيمن عليها تاريخ العبء والهزيمة، مما يرسخ لدى المتعلمين نوعا من العلاقة المتشنجة بتاريخهم وماضهم.

كما وجب التنبيه لطبيعة الأسئلة التي ذيلت بها الدعوات التي وردت فيها المقاومة الريفية (نصوص، جداول، صور...) فهي ترتبط فقط بعملية بسيطة تتمثل أساسا في استخراج الوقائع والأحداث التاريخية، بينما سجلنا غيابا للجوانب المنهجية والفكرية. من هنا وجب إعادة النظر في النصوص التاريخية الواردة في الكتب المدرسية، كونها نصوص تاريخية منزوعة السياق، ولا يمكن لها أن تساهم في تكوين فكري ومنهجي لدى المتعلمين.

1- أوبلا، عبد اللطيف، تدريس الاجتماعيات بالسلك الأول من التعليم الأساسي، سلسلة التكوين التربوي، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، عدد 9، ط 98-99، ص 19.

2- هشام مرزوق، أي دور لتاريخ العبء والهزيمة في ترسيخ قيم المواطنة قراءة في التاريخ المدرسي الثانوي التأهيلي، ضمن مجلة هيسستورياس مجلة دولية محكمة، نصف سنوية، تصدر عن مركز فاعلون، تعنى بالدراسات التاريخية والأثرية، المجلد الأول العدد الأول أبريل 2021. ص 83.

على سبيل الختم

كانت الغاية من هذه الدراسة، هي محاولة استكشاف الكيفية التي قارب بها التاريخ المدرسي في المقاومة الريفية باعتبارها حدثا تاريخيا شهده المغرب إبان صراعه مع المحتل الاسباني والفرنسي.

لقد حاولنا في هذه الورقة إبراز ومقاربة الكتاب المدرسي للمقاومة الريفي خصوصا، في إطار عام لمقارنته المقاومة المغربية، ثم السياق الذي تم فيه طرح موضوع المقاومة المغربية المسلحة في الكتاب المدرسي الذي يخص مادة التاريخ على وجه الخصوص. ولا يمكن بأي حال من الأحوال أن تكون هذه الملاحظات نهائية وقطعية، وإنما هي بمثابة تساؤلات ومنطلق لفتح حوار ونقاش جاد بين الفاعلين في المجال التربوي والأكاديمي، من أجل إثارة هذه القضايا للتفكير فيها مستقبلا لما يمكن ان تلعبه مادة التاريخ على مستوى إنماء الشخصية الوطنية.

في الأخير، وبعد ربح من الزمن تجاوزت الستة سنوات في تدريس التاريخ بالثانوي التأهيلي أقف على التباس كان في الحاجة إلى التدارك، فهو يطرح إشكالا معرفيا ومنهجيا ووجدانيا لدى المتعلم إذ نسجل:

غياب تام لحيثيات وأسباب استسلام محمد بن عبد الكريم الخطابي، وهي قضية تطرح العديد من التساؤلات حول هذا الامر لذا المتعلم. فكيف وهو الذي يدرس صدى معركة أنوال في العالم؟ سيطلع هكذا على خبر مفاده استسلام محمد بن عبد الكريم الخطابي، كتب بالبنط العريض أسفل البطاقة البيوغرافية لزعيم المقاومة الريفية.

كان لزوما ومن باب الإنصاف التعرض لقضية الاستسلام بنوع من التوضيح، كون محمد بن عبد الكريم الخطابي استسلم دون أن يدعو إلى توقف المقاومة بالريف والشمال، والتي استمرت لأزيد من سنة. أستسلم قائد مقاومة الريف من أجل انقاذ المنطقة من إبادة قادها الجيش الفرنسي والاسباني.

كما أن التاريخ المدرسي لم يشر ولو في إطار الاستثناس لمسألة التحالف الفرنسي الاسباني سنة 1925 ضد المقاومة الريفية واستعمال الأسلحة الكيماوية ضد المقاومة الريفية، مما ساهم في بتر سياق الأحداث التاريخية وكثرة المساحات البيضاء.

الانكسار الحضاري وسؤال الإصلاح عند محمد بن عبد الكريم الخطابي من خلال مقدمته لكتاب «أشرف الأمانى بترجمة الشيخ سيدي محمد الكتاني»

ذ. إلياس الهاني

باحث في التاريخ - جامعة محمد الأول، وجدة/ المغرب



مقدمة:

تعددت الدراسات والأبحاث التي تناولت وضعية المغرب وأسباب سقوطه في برائث الاستعمار الفرنسي والإسباني ابتداء من القرن التاسع عشر؛ «مما جعل ظروف مواجهة الغرب الاستعماري، تكشف عن مدى انحطاط السياسة العسكرية، وسوء تنظيم الجند، وفراغ بيت المال، واهتزاز نظام المخزن، وقد ابتدأ التدهور في أواخر المولى سليمان، وتفاقم بشكل حاد في عهد المولى عبد الرحمن، وخاصة بعد الاصطدام مع فرنسا في معركة إيسلي التي انفضح فيها سر الجيش المغربي، وهشاشة سلطة المخزن، وهذه الصدمة فتحت باب المغرب على مصراعيه أمام الأطماع الأجنبية في صيف 1844»¹؛ مما شكل بداية انحدار المغرب، واضطراره لخوض سلسلة من التنازلات، وعقد جملة من الاتفاقيات التي بموجبها أضحي المغرب بين فكي الجيوش الاستعمارية الأوروبية التي استقت مرجعيتها الفكرية من النظريات الكولونيالية التي راحت ترسل بعثاتها للمغرب لتكشف أوضاعه السياسية والعسكرية والاقتصادية والاجتماعية، وتساهل مأمورية الاستعمار الفكري والاحتلال الأرضي؛ فقد «كونت أوروبا صورتها عنا بالتدريج وحسب المصلحة، فاهتمت أولاً بحضارتنا، وأخذت منها ما احتاجت إليه، وعندما أفرغتها من مضمونها، ابتعدت وتركت وراءها تيارا حقودا مشوها للأحداث ومؤسسا لأيديولوجية جديدة، صار يهدف من ورائها إلى استكشاف السبل والوسائل التي تمكنه من الهيمنة ومن

1- عبد السلام الطاهري، الفكر الإصلاحى بالمغرب الخطاب السلفى المخزنى نموذجاً من 1757 إلى 1894، طبعة طوب بريس، المغرب، ط1، 2008، ص18.

تركيز التجاوز وتعميقه»¹، ومن السيطرة على العقول، وتبرير التدخل الأجنبي تحت مسمى الحماية والحضارة والنهضة المغربية؛ وقد جاءت عدة مؤتمرات بين الدول الاستعمارية لترسخ الأمر؛ ففي سنة 1880 عقد مؤتمر في مدريد حضره مندوب سلطان المغرب لمنح امتيازات للقناصل الأجنبية ولكل راغب في ذلك، وبعد سنتين ظهرت منظمة استعمارية باسم «رابطة الإفريقيين الاستعماريين الإسبانية»² لتبرير كل أشكال التوسع والهيمنة والخضوع، لتسقط فعليا منقطة الساقية الحمراء في يد الإسبان. وفي سنة 1885 عقدت الدول الأوروبية مؤتمر برلين لتقسيم إفريقيا إلى مناطق نفوذ، لتستقر بعدها البوارج الألمانية على سواحل المغرب، لتنال ألمانيا نفس الامتيازات الأوروبية من خلال اتفاقية مبرمة بينها وبين السلطان سنة 1890، لتبدأ بعدها إسبانيا في شن سلسلة من المناوشات ابتدأت من شرق الريف سنة 1893 بمدينة مليبية معلنة أن سبتة عاصمة لإفريقيا الإسبانية³، مهددة بذلك للاحتلال بجملة من الأحداث والفوضى بواسطة عملائها والقناصل الأجانب، لترسخ قدمها مع فرنسا بعد اتفاق على تقسيم المغرب بينهما سنة 1902. وفي سنة 1906 انعقد مؤتمر الجزيرة الخضراء لتمزيق المغرب والسيطرة عليه؛ وأمام هذا التحول «حاول المخزن المغربي أن يراوغ الدول الأوروبية لتأخير النتيجة الحتمية التي تتجلى في فرض حماية فرنسا وإسبانيا على المغرب إلى أن تحقق ذلك سنة 1912»⁴، فكانت أقلام ثلة من الإصلاحيين المغاربة الذين عنوا بدراسة أسباب هذا السقوط المدوي، وتشخيص الهوة والتجاوز الحاصل بين أوروبا والمغرب، واستجلاء الغمة التي أصابت المغرب لاستجداء عوامل النهوض والرقى الحضاري، ولم يكن محمد بن عبد الكريم الخطابي وهو المصلح الكبير والرجل الذي عايش هذا المآل والنتيجة ليرعوي عن القيام بما توجيه اللحظة التاريخية، وتبيان ذلك الانكسار الذي وجد نفسه تحت ضغوطاته؛ وهو الخبير بأساليب الاستعمار والمناهض له، والدارس لأوضاع المغرب وتاريخه، حتى عُدد من أبرز رواد الإصلاح والتغيير في القرن العشرين؛ وإن عالما مثل الشيخ محمد الكتاني الشهيد الذي

1- عبد المجيد القدوري، المغرب وأوروبا ما بين القرنين الخامس عشر والثامن عشر مسألة التجاوز، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط 3، ص 22.

2- عبد السلام الغازي، مقال محمد عبد الكريم الخطابي الطموح المؤجل وتطلعات الأمل ضمن أعمال يوم دراسي احتفائي، 5 فبراير 2005 محمد عبد الكريم الخطابي وقضايا مغرب اليوم، ندوات تشرف عليها فاطمة الجامعي الحبابي، دار أبي رقرق للطباعة والنشر، الرباط، ط 2013، ج 1، ص 286.

3- المرجع نفسه، ص 286.

4- جمال عاطف، إسبانيا وحرب سيدي ورياش 1893/1894 من خلال الوثائق الإسبانية، منشورات بيت الحكمة، تطوان، ط 1، 2019، ص 7.

اضطلع بدور سياسي مهم بعد عقد مؤتمر الجزيرة الخضراء، والذي سيؤول أمره إلى السجن والجلد حتى الموت سنة 1909 من طرف السلطان المولى عبد الحفيظ بعد أن قام بمناهضة الاستعمار ومجاهمة شروطه؛ وهو ما اعتبره الخطابي أحد أهم رموز الوعي الحضاري للمغرب الحديث في كتاب نشر من طرف ابنه بعنوان: «أشرف الأمازي بترجمة الشيخ سيدي محمد الكتاني»، والذي عمل الخطابي على التقديم له والاحتفاء بمضمونه؛ عارضا فيه أهم الأحداث التي عرفها المغرب، ولم يكتفي بذلك وإنما ساق رؤيته الإصلاحية لانبثاق شمس الحضارة والتقدم على المغرب، فما هي الانكسارات الحضارية التي عرفها المغرب في رؤية الخطابي؟ وما سبل تحقيق رؤية إصلاحية مغربية؟.

لقد حاولنا من خلال اعتماد المنهج الوصفي والتحليلي لهذه الوثيقة إبراز معالم الإصلاح الحضاري لمغرب الاستقلال عند الخطابي، وأهم الانكسارات التي عرفها، وفق ثلاث نقاط:

النقطة الأولى: مظاهر انكسار المغرب وأسبابه

لقد استشر محمد بن عبد الكريم الخطابي وضعية المغرب وهو طالب بجامع القرويين في فاس؛ ومن هناك نعى وعيه السياسي وتفتقت ذهنيته على الحركات والجهود الإصلاحية التي قام بها رجال القرويين الذين درس على ثلثة منهم كالعلامة التهامي كنون والعلامة محمد القادري وغيرهم؛ بل «عايش عن قرب فصول تخطيط المنظومة المخزنية في ظل سلطان ضعيف تتلاعب به حاشيته، هذا ما دفعه مع طلبة آخرين وبعض الأساتذة، إلى التخطيط لتغيير الوضع¹، وذلك بعد تأمل عميق ودراسة متأنية للوضع المزري الذي آلت إليه البلاد، مما ينبئ على وعي مبكر ورغبة متوقدة لإصلاح الوضع، يقول في مذكراته:» في أروقة الجامعة وفي غرف المدارس التي نقيم فيها كبيوت للطلبة المغتربين؛ وهي مدرسة العطارين وفيها أقيم أنا، ومدرسة الشراطين لأبناء الريف، ومدرسة الصباحية لأبناء الشياظمة ودكالة والرحامنة والشاوية، ومدرسة البوعنانية لأبناء الريف الغربي والأطلس؛ فيها أخذنا ندرس المصيبة وأسبابها وعناصرها ونتائجها، فوجدنا أن المصدر الحقيقي لها هم الحاشية وكبارها على رأسها²، ولم تكن قضية محمد الباقر الكتاني ليغفل عنها وهو بفاس؛ إذ اعتبرها قضية

1- محمد أمزيان، عبد الكريم الخطابي التاريخ الآخر، مطبعة الخليج العربي، تطوان، ط1، 2021، ص143.

2- المرجع نفسه، ص144.

المغرب كله، عليها انكسرت حريته وبها شدت أغلاله بنير الاحتلال؛ فقد جاء في الوثيقة قوله: «فقد اقترن استشهاد هذا العالم الجليل باستشهاد أمة كاملة، وهي أمة المغرب كما هو معلوم عند كل أحد من المغاربة المعاصرين»¹، ويضيف مؤكدا استئثار قضيته باهتمامه الشخصي: «وقد تصفحت كل ما دونه في تاريخ هذه القضية ووجدت في الكتاب غالب ما كنت أعرفه عن هذه القضية، وما عرفته وأنا في مدينة فاس أيام دراستي، وما سمعته وقرأته عنها وأنا في الريف»²، إذ لم تقتصر قضيته بمناهضة الاحتلال فقط وإنما بمنهج إصلاحى كفيل باستئناف المغرب لدوره الحضاري السابق تمثل في شروط البيعة الحفيظية التي اعتبرت بمثابة «برنامج في الإصلاح السياسي كانت تتبناه المعارضة المتمركزة بفاس ونخبة العلماء القرويين، وكان يروج ويدعو له محمد بن عبد الكبير الكتاني منذ عودته من مكة والقاهرة سنة 1904، وتأثره بالأفكار الإصلاحية والسياسية للجامعة الإسلامية والمشاريع والتجارب الدستورية في المشرق وتركيا العثمانية التي كانت تهدف إلى تقييد سلطة الحاكم بالشورى وبالمجالس التمثيلية»³، وهو الأمر الذي سيؤول إلى إجهاض الفكرة وصاحبها بعد أن عمل على بثها ونشرها وموافقة السلطان عليها، وذلك لعدة عوامل جعلت المغرب ينأى عن استدراك الخلل ويسقط في براثن الاستعمار وهي:

- وجود نخبة تقليدية لم تراعي التطورات الحاصلة في العالم الأوروبي على مستوى التقنيات الحديثة، وطرق تسيير الحياة السياسية والاقتصادية كالبرلمانات ونظام البنوك، وهو ما جعلها تكتفي بالسلوك الروتيني دون اعتبار التحولات الطارئة.

- نظام المركزية المخزنية التي اعتمدها في تسيير وتدبير شؤون البلاد؛ إذ لما سقط المركز سقطت معه كافة أنحاء البلاد باستثناء تجارب المقاومة التي عرفتها البلاد في الجنوب والأطلس والريف وغيرها من المناطق، وهو ما ساهم في إيقاد روح اليقظة.

- تفشي الظاهرة الطرقية التي آلت الركون إلى الزوايا، غير مباليين بالوضع القائم ولا بخطورة السيطرة الأجنبية، بل ساهمت في الكثير منها في ممالئة الاستعمار ومساعدته، ووقفت ضد المقاومة الريفية، واعتبرها الخطابي السبب المباشر في تقويض نهضته بالريف.

1- محمد باقر الكتاني، ترجمة الشيخ محمد الكتاني الشهيد المسماة أشرف الأماني بترجمة الشيخ سيدي محمد الكتاني، تحقيق عبد الرحمن الكتاني، تقديم محمد بن عبد الكريم الخطابي، دار ابن حزم، بيروت، ط1، 2005، ص 52.

2- المصدر نفسه، ص 52.

3- ابراهيم أعراب، سؤال الإصلاح والهوية من السياق السلفي إلى مشروع الحداثة، إفريقيا الشرق، المغرب، 2007، ص 73.

- ضعف الجهود الإصلاحية التي شهدتها المغرب سواء ما تعلق منها بالبعثات التعليمية والطباعة والصحافة، واقتصار الوعي السلفي على جانب التنظير أكثر منه بالجانب العملي، وهو الأمر الذي سينبئ إليه رواد الحركة الوطنية بعد عقود من الاحتلال.

- التجاوز الحضاري الذي جعل المغرب مطمعا لكل المحاولات الاستعمارية واكتفاء المغرب بالجانب الديبلوماسي، وسداد الديون الناتجة عن البذخ وسوء التدبير المالي مما شكل عجزا في الميزانية العامة، وعدم القدرة على مواكبة التطورات.

- ضعف مؤسسة العلماء وتقليديانيتها المفرطة، وتقادم وسائل العمل والاعتماد على نظام الحشو والحفظ والتلقين عوض النقد والابتكار والإبداع، في مجالات التدريس والتأليف والمحاضرة.

هذه الأسباب التي سينكسر عليها ظهر المغرب ستجعل الخطابى ينذر بخطورة الوقوف ضد برنامج الإصلاح الذي سار عليه محمد الكتاني، وينعت كل من وقف ضدا عليه بالخذلان وممالة الاحتلال؛ يقول الخطابى: «كان واضحا في أن الشيخ الشهيد على حق، وأن خصومه كانوا على الباطل وكانوا على خطأ في حقه وحق البلاد، وليس من الغريب في حق مثل هذا الشيخ الشهيد أن يقف مثل هذا الموقف من الفرنسيين ومن السلطان عبد الحفيظ، ومن العلماء الذين كانوا يقفون في وجهه ويعاكسونه في دعواه للكفاح على الرغم من الخطر الذي كان يهدد ببلادهم، إنما الغريب هو موقف العلماء وعبد الحفيظ الذين كانوا مسؤولين كل المسؤولية في التهاون بقضية الدفاع عن البلاد وعدم استجابتهم لما يدعو إليه الشيخ من الكفاح؛ وكان معنى هذا كله التأمير على الوطن وإتمام رغبة الفرنسيين الذين كانوا أخذوا في غزو المغرب»¹. فرغم أن فكرة الإصلاح كانت سائدة من قبل إلا أن اشتداد الأزمة وتفاقمها كانت تطرح بحددة، وكان في مقدمة من يتولى عملية ذلك فئتي العلماء والتجار، إلا أن ذلك لم يحل دون سقوط المغرب في براثن الانكسار، وهو ما جعل الخطابى يعتبر تجربة الكتاني نموذجا يحول دون هذا السقوط لما امتازت به من رؤية نظرية نابغة من العمق المغربي الأصيل، وتراكم للتجربة البشرية والاستفادة من تقنياتها في السياسة والتدبير، واليات منهجية عملية لتزليلها؛ والهدف جلاء الاستعمار وبناء مغرب حر؛ يواصل الخطابى القول: «لو توفق السلطان واهتدى علماء المغرب الذي كانوا يخاصمون الشيخ ويخالفونه، لكانت الأمة المغربية كلها من ورائهم بلا

شك ولا جدال، وما كان يجوز لعلماء المغرب أن يختلفوا في أداء هذا الواجب المقدس والنضال ضد المحتل الغاصب الذي كان بداخل البلاد يصول ويجول، ويهدد بزحف جديد والتوغل في داخل البلاد، لو كان هؤلاء كلهم متفقين لاتحدت الأمة المغربية كلها معهم في أداء هذه المهمة، مهمة الدفاع عن الوطن ولا نهزم الفرنسيين، ولا تجرأ بعد ذلك على احتلال فاس العاصمة ثم احتلال المغرب كله، ولكانت هذه الأحداث والكوارث التي حلت بالمغرب وبأبناء المغرب ما وقعت وما حدثت¹.

لقد كان الوعي بالاستعمار الأجنبي ومخاطره أعظم الأثر في بلورة رؤية الخطابي الإصلاحية؛ فمن مجموع ما درسه وما وقف عليه من مخططات واستراتيجيات عمل الاستعمار وعملائه والمتخدين به على بثها في المغرب؛ ظهرت معالم الانبعاث الحضاري التي وجدت أن أسباب الانهزام والانكسار لا يمكن جبره سوى برؤى إصلاحية واقعية كما حدث مع الكتاني، واكتمل مع الخطابي.

النقطة الثانية: الرؤية الخطابية لفكرة الإصلاح

إن اهتمام الخطابي بفكرة الإصلاح وضرورته تملحها الظروف والمتغيرات الحاصلة في العالم، وقد لاحظ التجاوز الحضاري الحاصل بين أوروبا والمغرب وعموم العالم الإسلامي؛ فما كان منه سوى أن شمر على ساعد البناء والنهضة لمنطقته لما امتاز به من فكر واطلاع واسع ألهمه لمعرفة مجريات الأحداث، ف«كان فضوله الفكري الكبير وحبه للاطلاع والمعرفة وشغفه بالقراءة، مظهرًا آخر من مظاهر شخصيته، ويعود اهتمامه الكبير بمعرفة كل ما يحدث في أوروبا والعالم بشكل عام إلى مرحلة إقامته بمليبية حيث شغل من بين وظائف أخرى، مهنة الصحافة، فكثيرة هي المجالات والصحف التي كان يشترك فيها، أو كان يرسلها إليه بعض أصدقائه، وعندما دخلت قوات اللفيف الأجنبي إلى بلدة أجدير، وقامت جريا على عاداتها، بنهبها وإحراقها، وجدت في منزله من بين أشياء أخرى، مكتبة تتألف من ست مائة كتاب باللغة الإسبانية، فميله وتحمسه للتعلم كان عظيما، ولم يجد أي حرج في تقليد ممارسات وأساليب العدو إذا ما رأى أنها ستؤدي إلى الرقي والتقدم²»، وقد تابع الخطابي بشدة ما كانت

1- المصدر نفسه، ص 53.

2- ماريا روسا دي ماداريكا، محمد بن عبد الكريم الخطابي والكفاح من أجل الاستقلال، ترجمة وتقديم: محمد أونيا، عبد المجيد عزوزي، عبد الحميد الرايس، مطبعة النجاح الجديدة، المغرب، ط1، 2013، ص 391.

تنشره الجرائد والأقلام التي انبرت تدافع عن الاستعمار، وتعادي كل الجهود الإصلاحية، كما كانت تفعل «جريدة السعادة» لسان حال الاستعمار؛ من نقمة على الكتاني ورؤيته التي رأى فيها الخطابي؛ أحد المعالم الإصلاحية المتمثل في القيام بالواجب وسؤال الضمير، وهو نفس المنحى الذي سيتخذه الخطابي في خطته الإصلاحية بمنطقة الريف التي عرفت بالتقاتل والتنافر الذاتي، جاء في مذكرات la reunion على لسان الخطابي: «كان الريفيون وقت وفاة الوالد كما كان قبله في حالة الفوضى والتقاتل والنهب والتعدي وضياع الحقوق وعدم الأمن على النفس والمال»¹، فكانت رؤيته التي وجد نفسه أمام واقع مستلب وخطاب قدرتي يدفع إلى الوراثة والقبول بمعادلة المركزية الأوروبية وتفوقها العسكري، أملت عليه القيام بالواجب، و«صار يتصل برجال القبائل وأعيانها يبث فيها روح الوطنية الحقيقية (...) وكان شغله الشاغل هو المصالحة والتوفيق بين الناس المتعادية ليتحدوا ويتصالحوا وينسوا الأحقاد والعداوة التي كانت عمّت وترعرعت بين الأفراد والجماعات في جميع المداشر والقرى، وكانت تذهب ضحية هذه العداوة عدة أرواح منذ عشرات السنين»²، ونتيجة لهذا الجهد الأصيل يحكي عمر القاضي في مذكراته عن حرب الريف: «استطاع الخطابي في مدة قصيرة جدا أن يفهم الناس، ووقع الاتحاد فيما بين المتعادين الذين ذاقوا مرارة تلك الحروب الثائرة، وذهب ضحيتها عدد غير قليل من المواطنين، فأبدل الله تلك العداوة التي كانت بالأمس بالمحبة والأخوة والتسامح، فجمع قادة القبائل كلها على مائدة واحدة لمحاربة العدو الوحيد وهو الاستعمار المهاجم، وذلك بحكمته وإيمانه، واجتهاده وإخلاصه لوطنه، واعتماده على النفس رغم ما كان يحاوله الإسبان والفرنسيون لعرقلة أعماله بالأموال الباهضة التي كانت تتدفق على المرتزقة لأجل عرقلة عمله وإفساد خطته»³، وهو نفس ما قام به الكتاني، يقول الخطابي في نص المقدمة: «كان الواجب الوطني وواجب الشرف والكرامة والرجولة، يقضي على خصوم الشيخ بتلبية نداء الواجب الوطني؛ وقع العكس، (...) وكانت الكارثة، باستشهاد الشيخ ظلما، وفتح الباب على مصراعيه لاحتلال الفرنسيين لبلادنا، ومما يؤيد تأييدا واضحا قاطعا أن الحق كان في جانب الشيخ، والباطل كان في جانب الآخرين: ما كانت تنشره جريدة السعادة لسان حال الاستعمار التي كنت

1- محمد بن عبد الكريم الخطابي، مذكرات لارينيون، تحقيق وتعليق وتقديم: عبد المجيد عزوزي، محمد أونيا، عبد الحميد الرايس، جمال أمزيان، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط، ط1، 2017، ص82.

2- محمد عمر بلقاضي، أسد الريف محمد عبد الكريم الخطابي مذكرات عن حرب الريف، مطبعة سلى، الرباط، ط2، 2006، صص 96-97.

3- المصدر نفسه، صص 97-98.

أقرأها، تنتقد الشيخ الشهيد، وتطعن في أنصاره من كبار المغرب الذين كانت الغيرة الوطنية لا تسمح لهم بالتهاون في القضية، وكتبت تنسب للشيخ القصور وعدم المعرفة والاطلاع، أما خصومه؛ فكانت تنتعهم بأنهم عقلاء متزنون.. كانت هذه الحقيقة الواقعة، وكان ما كتبناه أمرا لا يمكن أن يختلف فيه اثنان، لأن وقائع التاريخ تشهد بذلك، والمنطق السليم يؤيده، وقد وقع ما وقع، والواقع لا يرتفع، وكانت الكارثة¹، إنها نفس المساعي التي تقف دون إتمام المشاريع الإصلاحية؛ فالنهضة الفتية التي عرفتها منطقة الريف بقيادة الخطابي والتي شكلت نموذجا إحيائيا لقيم التحرير والتنوير والتحديث؛ اصطدمت هي الأخرى بواقع التخلف والجهل الذي قضى على هذه التجربة؛ وإذا كان مصير الكتاني هو القتل فإن مصير الخطابي هو النفي؛ وهي نفس الأساليب التي وقفت صيدا ضد إصلاح الكتاني ونهضة الخطابي؛ صرح بذلك الخطابي لجريدة الشورى بتاريخ 7 أكتوبر 1926 بالقول: «قد أفرغت قصارى جهدي لتحرير بلادي من نير مشايخ الطرق هؤلاء الذي هم عقبة في سبيل كل حرية وكل استقلال، وكان مشايخ الطرق ألد أعدائي وأعداء بلادي كما تقدم، فلم يجمعوا عن شيء في سبيل إحباط مساعي حتى أذاعوا في طول البلاد وعرضها أنني أريد الاقتداء بتركيا وأن ذلك يقضي حتما بتغيير عادات البلاد وتقاليدها وإطلاق حرية المرأة فتخرج سافرة بالبرنيطة وتلبس كنساء الإفرنج وتقلدهن في عاداتهن إلى غير ذلك مما عزوه إلي، ويجب أن أعلن أنني لم أجد في الريف أقل عضد في مساعي الإصلاحية وأن فريقا قليلا فهموني وأيدوني ووافقوا على خطتي لأنهم على احتكاك بالأجانب، ولأنهم يعرفون أين هي مصلحة بلادنا الحقيقية، وخلاصة القول أنني جئت قبل الأوان للقيام بمثل هذا العمل ولكني موقن بأن آمالي ستحقق كلها عاجلا أم آجلا بحكم الحوادث وتقلبات الأحوال»². وهو الجهد الذي ستعمل كل القوى الوطنية على مدار عقود ومخاض عسير للمقاومة لأجل نيل الحرية والاستقلال، وقد عمل الخطابي جاهدا على ذلك وهو في منفاه، وفي القاهرة حيث حرر مقدمة كتاب «أشرف الأمانى» وبث فيه شجواه ورؤاه التي جعلت من المغرب لقمة بين فكي الاستعمار، ولم يكتفي بما جرى، وإنما ضمنها ما ينبغي السير عليه في مغرب الاستقلال، ومنخرطا في الأحداث التي سعت لتحقيق التطور والرفاه للمغرب؛ منجذبا نحو المستقبل، متجاوزا لثقافة الخضوع والخنوع والاستسلام للمقولات السياسية التي أضحت تشكل المشهد السياسي لفجر الاستقلال؛ فرصده لتاريخ المغرب وأسباب سقوطه تعينان في

1- أشرف الأمانى، ص53.

2- محمد أونيا، عبد الكريم الخطابي وأسطورة الانفصال (1921-1926) حفريات نقدية في خطاب الجمهورية الريفية،

معرفة مكامن الخلل والاحتفاظ بأمل البناء والنهضة والتطور، وهو الشيء الذي استشعره قبيل استقلال المغرب؛ وهو إذ بعد في رئاسة لجنة التحرير العربي بالقاهرة؛ ففي استجواب به مع جريدة الزهرة التونسية قال الخطابي: «إن الضعف الذي اعترانا ناتج عن وهم، وقد أن الأوان لنعرف الحقيقة وهي أننا أقوياء، علينا أن ننهي هذه المأساة بنهضة شعارها الاتحاد وجعل الهدف الأسى فوق كل هدف مع اعتقادنا اعتقادا جازما بأننا أكفاء لنيل استقلالنا استقلالا تاما بأنفسنا، لقد وصلنا إلى هذه الحالة لأننا آمنة بضعفنا وغلبننا اليأس فأخذ كل واحد منا يبحث عن معيشتة وينهج إلى ذلك أقرب الوسائل، ولا دناءة أفدح من الاحتراف على حساب الشرف والكرامة»¹، ولا شك أن وثيقة التقديم شكلت منهجا إصلاحيا بوسائل عملية لمغرب الاستقلال الذي عرف تحولات سياسية واجتماعية واقتصادية غير التي عرفها مغرب الكتاني ومغرب الخطابي بالريف.

النقطة الثالثة: مظاهر الإصلاح ووسائله

لم يكن من بد من تبيان المنهاج الذي سار عليه محمد بن عبد الكريم الخطابي وهو يدي بشهادته عن وضعية المغرب التاريخية، إذ أضحت تمثل عصارة التجربة الخطابية كونها من أواخر ما حُرر، وذلك سنة 1962، إنها تعبر عن شعور مضني بواجب الوقت والضمير للحيلولة دون السقوط مرة أخرى في مساوئ التسيير الإداري للمغرب؛ معلنا عن وسائل عملية للقيام بذلك؛ إذ يؤكد على ضرورة المشاركة الجماعية للمغاربة ومسؤوليتهم اتجاه الأحداث والتطورات التي ستعرفها البلاد من خلال أعمال المبادئ والقيم وانتخاب مجلس شرعي يمثل الأمة، يقول: «إن الأمة المغربية ما فتئت بعيدة كل البعد عن المشاركة في إدارة شؤون البلاد رغما عن المشاكل الكبيرة التي تجتازها بلادنا، ولم يفكر أحد من المسؤولين في إنشاء مجلس شرعي يمثل الأمة تمثيلا صحيحا نزيها، لتحل المشاكل المتراكمة الخارجية والداخلية للبلاد، ولا يزال القانون هو المتحكم، كما لا يزال العلماء في سباتهم العميق، ولا يفكرون في واجهم على الإطلاق، كأنهم غير مسؤولين عن شيء مما تتخبط فيه البلاد من الفوضى والفساد، بل لا يزال كل شيء يدعو إلى اليأس لولا النظرية القائلة: ليس في الدنيا شيء اسمه المستحيل...»²،

1- زكي مبارك، محمد الخامس وابن عبد الكريم الخطابي وإشكالية استقلال المغرب، مطبعة فيديبرانت، ط1، 2003، ص73.

2- أشرف الأماني، ص54.

إنها نفس المعادلة تطل من جديد على المغرب؛ الغفلة عن واجب الوقت من طرف النخبة، والفضوى بين الشركاء والمهتمين بشأن التدبير، بينما الأصل هو المشاركة الجماعية من الجميع بالآليات الديمقراطية النزيهة، وهو ما يحفز الجميع بالقيام بذلك عن طريق إنشاء مجلس نيابي بصلاحيات حقيقية لا التخبط العشوائي الذي امتاز به فجر الاستقلال، وهي نظرة بعيدة المدى تنبئ عن خبرة بمجريات التاريخ وبأفق للمستقبل، وأول ذلك تغيير البنية الذهنية التي صيرت المغاربة في وهدة التحديات المتراكمة، يقول في هذا الصدد: «فيا أبناء المغرب؛ عليكم أن تعلموا أنكم أنتم وحدكم المسؤولون عما جرى في الماضي وفي الحال وفي المستقبل، فعليكم أن تعلموا هذه الحقيقة وتعالجوا الأمور بما تستحقه من الاهتمام، وتحملوا القيام بواجبكم، وتعملوا وتعجلوا في التفكير بما يجب عمله وأول شيء هو: إنشاء "مجلس للأمة" لحل المشاكل المتراكمة المستعجلة، والقضاء على الفساد والفضوى التي حلت بالبلاد، وكالتى كانت السبب فيما مضى للاحتلال الأجنبي الذي دام على البلاد خمسين سنة (...) ولا يزال هذا الاحتلال بكل معانيه قائما، والذي يجب أن ينتهي بسرعة (...) ويجب أن يمضى من عقولنا أيضا، قبل أن يقضى علينا تماما كما قضى على اللغة العربية، أما بقاء الوضع كما هو الآن، فمعناه: انتحار، ومعناه: العار والشنار، ومعناه: مخالفة شريعة الإله ومبارزته بالمعاصي»¹.

إنها إشارات قوية لما ينبغي فعله من مصلح رائد يجد الداء الذي أصاب المغرب منذ عقود قد أضحى جائما على الصدور، وكأن القدر قد حتم على المغرب أن يجد نفسه من جديد في ركود وتخلف وأزمات متواصلة مع عجز في ابتكار وإبداع الحلول، إن الانطلاق الفعلي لعملية الإصلاح تبتدئ من الإحساس بالوطنية المغربية التي تتخذ من العمق المغربي وحضارته منطلقا، وفي رفعة المغرب هدفا ومن تحرك المغاربة سبيلا للنهضة؛ وهو الأمر الذي يلزم منه محاربة الفساد والفضوى وتغيير ما بالعقول والذهنيات وتدريبها على الممارسة السياسية الجماعية، فطمس الهوية الثقافية والغزو الفكري والنفسي من أشد ما يجده الخطابى واقعا في مغرب الاستقلال، ليستنهض الهمم ويحثها على ضرورة التضامن والوحدة من خلال مجلس الأمة لرفع التحديات وبناء التصورات التي تمكن من بلورة استراتيجية ذات أبعاد عملية لتجاوز الجهل والفساد والاستيلاء الحاصل، إذ أن «الوعي بالمسؤولية التاريخية، المقرون بإدراك واقع الضعف الاجتماعي والاقتصادي الناجم عن الانسحاب منذ قرون من حركية التاريخ، يتطلب البحث عن أساليب جديدة لإعادة الاعتبار للذات ودرح القوى الاستعمارية؛ هذه

القوى التي وظفت تفوقها الصناعي والتقني والعسكري والتنظيمي لغزو الشعوب المتأخرة، أو الأقل تطورا، لتنهب موادها الخام، وتستغل يدها العاملة الرخيصة، وتفتح أسواقها لمنتجاتها الصناعية»¹؛ وكان من الضروري التفكير في وسيلة للقضاء على ذلك الفساد القائم، وهو نفس النداء الذي سيختم به الخطاب نص الوثيقة للاعتبار بتجربة الاستعمار وعدم الركون إلى حاضر مليء بالسلبية والأنانية والظلم، ينادي الخطاب: «إن الوطن - يا أبناء المغرب - يناديكم بالتعجيل لتخليصه من الحالة السيئة التي مرت عليها أكثر من قرن وهو يعانيها.. وأنتم - وأعني الجيل الحاضر - قد شاهدتم بأنفسكم هذه المآسي (...). وهي نفس المآسي عاشها آباءكم وأجدادكم، وذلك بسبب التخاذل والتواكل الذي كان ولا يزال يعيشه المغرب وأبنائه.. إن الواجب يقضي على الرجال والنساء الموجودين في هذه الدنيا أن ينتهوا ويعملوا بسرعة لإنقاذ المغرب من الحالة التعسة والمظالم التي يعيشها أبناء المغرب بسبب تفريطهم وتواكلهم، وعدم اهتمامهم (...). وإذا كان كل واحد منهم - فيما مضى كان ولا يزال - يعتقد أنه غير مسؤول، وغير مكلف بالاهتمام بشأن أمته.. وكل منغمس في البحث عن العيش فقط، من غير أن يهتم بالآخرين، ومن غير أن يفكر في الحالة العامة.. وهذا هو السبب في هذه الحالة التعسة»²؛ إنها معالم منهجية إصلاحية عملية تقتضي ما يلي:

- بث روح المسؤولية والاهتمام بأمر الوطن، من خلال إرادة قوية للتغيير والإصلاح تنبني على محاربة روح الاتكالية والانهزامية المستشرية بين صفوف السياسيين والعلماء والنخبة المغربية.

- المشاركة الفاعلة والجدية للمؤسسات، وتجاوز منطق المركزية الذي كان سببا في سقوط المغرب في الاستعمار، وبث روح الديمقراطية بين صفوف المغاربة كآلية للتحكيم عند الاختلاف.

- الاعتبار بالمرحلة الاستعمارية التي أودت بالمغرب إلى واد التخلف وانسداد الأفق مما ساهم في إطالة أمد الظلم والانغماس في الفوضى، وسهل من الاستلاب الثقافي والسياسي للمغرب وجعله لقمة سائغة لكل التيارات.

1- علي الإدريسي، عبد الكريم الخطابي التاريخ المحاصر، مطبعة النجاح الجديدة، المغرب، ط2، 2010، ص173.

2- أشرف الأماني، ص55.

- التحذير من مغبة السقوط في الحالة التي لا يمكن معها النهوض، وهي ما سماها بالحالة التعسة؛ لخطورة ما آل إليه المغرب من التقاتل والتنافر والتفرق، وهو ما يشبه الحالة التي سبقت الاستعمار.

- بث روح الأمل والثقة في عموم المغرب كونهم أمة لها جذورها وتاريخها وحضارتها التي جعلت منها على مر العصور قبلة ونموذجا للتكاتف والاتحاد ومواجهة القوى الاستعمارية رغم قوتها وجبروتها وتقنياتها المتطورة.

إن هذا المنهج العملي الإصلاحي لمحمد بن عبد الكريم الخطابي هو الذي بث آمالا عريضة في العالم الإسلامي ولجميع من يتوخى نيل الحرية والكرامة لغد أفضل وأجمل؛ كونه يمثل نموذجا المصلح المتفاعل مع بيئته وعصره، يسمع ويجيب، وينتظر من يستجيب؛ فلم يقدّم مجرد حرب دفاعية بل حاول بناء هيكل جديد للدولة، وبث الروح في مجتمع كان متعطشا لفكر النهضة الذي يبشر بالدخول إلى العصر بروح جديدة مع التسليح بالثوابت التي يحضنها المجتمع، كان ذلك بشيرا بفكر وطني جديد ينزع إلى بناء دولة من نمط جديد¹، ورؤية جديدة لبناء وطن يتسع للجميع؛ غايته العيش في سلام وأخوة، «لقد كتب محمد بن عبد الكريم صفحة مشرقة في تاريخ المغرب، وفي تاريخ حركات التحرر الوطني، يحق لكل محب للعدل والسلام والحرية أن يفتخر بها، وكان الزعيم الريفي بحق قائدا وطنيا نموذجيا، اعتبر مصلحة الوطن والتضحية في سبيل تحرره وازدهاره من أولى الأولويات²»، ومن أفضل ما يقضي به الإنسان جهده ووقته.

خاتمة:

مثلت وثيقة التقديم لكتاب «أشرف الأماني» المترجم لأحد أعلام المغرب الحديث، وهو الشيخ محمد الكتاني من طرف محمد بن عبد الكريم الخطابي منهجا إصلاحيا قائما، عمل الخطابي بنفسه لتزليل معالمه في الريف أثناء قيادته لهضته التي أرساها بين سنتي 1921 و1926 والتي قوض معالمها الاستعمار الإسباني والفرنسي بالغازات السامة والأسلحة

1- محمد العربي المساري، محمد بن عبد الكريم الخطابي من القبيلة إلى الوطن، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، 2012، صص 14-15.

2- عز الدين الخطابي، محمد عبد الكريم الخطابي القائد الوطني، مطابع ميثاق المغرب، الرباط، 2003، ص 74.

الفتاكة، ولينفى بعيدا عن وطنه لأزيد من عشرين سنة، ستجعل منها السنوات تجربة لبلورة إنتاج فكري مدرج في عدد من المجلات والجرائد والحوارات وجملة من المذكرات المنشورة وغير المنشورة؛ يبتث من خلاله خلاصاته وتجاربه وأفكاره. ونص الوثيقة محل الدراسة شكلت هي الأخرى رؤية إصلاحية لقضية الانكسار والتجاوز الحضاري الذي عرفه المغرب في العصر الحديث، والذي تجلى في زحف وتكالب الدول الأوروبية على نهب خيراته وثرواته، إنها صيحة نذير للاعتبار من هذا المآل حتى لا يتكرر، وليجعل من بناء الوطن هدفا إصلاحيا، ومن ترسيخ المؤسسات وتحمل المسؤولية ونبد الفرقة والتعصب ونبد كل أشكال الاستعمار والاستلاب الثقافي والعسكري والسياسي وسيلة لتحقيق ذلك، في سيرورة تاريخية تعيد للإنسان طبيعته وقيمته الفطرية النازعة إلى الحرية، مما جعل من شخصيته عابرة للزمان والمكان؛ وذلك ما توضحه الخلاصات التالية:

- لقد تقاطعت عدة عوامل في صنع شخصية الخطابي؛ فالبيئة المحتضنة، والتربية الأسرية التي تلقاها، وسعة اطلاعه على مجريات الأحداث مع تجربته في جامع القرويين صبغت شخصيته بنزوع إلى فكرة الإصلاح والتغيير.

- مكنت تجربة العمل مع الإسبان أثناء إقامته في مليبية مدرسا وصحافيا وقاضيا من معرفة أساليب الاستعمار واستراتيجيات التمرد والسيطرة، مما جعله في يقظة تامة من كل حركة له، بعد الانفصال الكامل والرجوع للريف لبنائه وتطويره.

- المشروع النهضوي الذي عمل على الاشتغال عليه وإرساء مؤسساته في الريف، بدءا بمعركة أنوال مرورا بمرحلة التوسعة وطرد الاحتلال وانتهاء بالاجتماع الأوروبي لغزو الريف وتقويض التجربة الخطابية، جعلت منه نبها لطرق التعامل مع الاستعمار ومع الذهنية التواكلية التي عرفها المغرب طيلة القرون الماضية.

- لقد شكلت مرحلة النفي التي دامت أزيد من عشرين سنة نقطة تأمل وتفكر واطلاع واسع ومكثف للأحداث ولمعاودة استكشاف قوانين التاريخ والاجتماع الإنساني، وهو الأمر الذي ستؤول نتيجته إلى تسطير جملة من المقولات التأسيسية التي أضحت مصدرا لحركات التحرر العالمي.

- استقرار الخطاب في القاهرة وتوارد الشخصيات عليه من كل الدول كانت فرصة لبث أفكاره ورؤاه ومنهجه الإصلاحية، كما أن قيادته لمكتب المغرب العربي مستأنفا عمله النضالي ضد الاستعمار جعل من الكثير يلتقط إشارات له للعمل بها والسير على مقتضياتها.

- مقدمة كتاب «أشرف الأمانى بترجمة الشيخ سيدي محمد الكتاني» هي حلقة ضمن سلسلة من المقالات التي أدلى بها الخطابى لكل من رام معرفة منهجه، وخططه لجلء الاستعمار وبناء الدولة الحديثة بمؤسساتها.

- النزعة الوطنية والإنسانية للخطابى، ومنهجه الإصلاحى النابع من مجموع ما ذكر أضحى محل دراسات وأبحاث، ومصدر إلهام لعدد من المراكز والمؤسسات التي تعمل على جمع ونقد وتحليل وتطوير الرؤية الخطابية في الفكر والإنسان والمجتمع والتغيير.

- تحرير الأرض وتنوير العقل وتحديث المجتمع وتمدين المؤسسات وتنظيم شؤون الناس وتوحيد الرؤى قيم أصيلة في منهج الخطابى الإصلاحى، وهي من القواعد التي اشتغل عليها عدد من الإصلاحيين المغاربة أثناء خوض معركة الاستقلال.

- الفساد والانتمازية وانتشار الروح التواكلية أمراض نخرت المغرب، واستمراريتها يجعل منها أمرا يحول دون بناء الدول والأمم بشكل سليم، وهو ما يحتم على النخبة السياسية والثقافية الوقوف ضدها بكل السبل والإمكانات.

المجاهد محمد بن عبد الكريم الخطابي والمقاومة الريفية (1921-1926م) في مرآة الصحافة العربية والإسلامية «مجلة المنار القاهرية أنموذجا»

ذ. زوارقة علي

جامعة ابن خلدون - تيارت/ الجزائر



مقدمة:

ساهمت الصحافة العربية الصادرة في الربع الأخير من القرن 19م وبداية القرن 20م في صياغة كثير من التوجهات والرؤى الفكرية والسياسية في البلاد العربية، إذ شكلت تلك الصحافة عاملا تنويريا هاما لدى الكثير من المثقفين على اختلاف مشاربهم وتوجهاتهم وأداة لنقد الأوضاع ومحاولة إصلاحها. وقد شكلت مجلة المنار التي أصدرها الشيخ محمد رشيد رضا في القاهرة سنة 1898م، رافدا هاما من روافد التواصل والتضامن بين جناحي الوطن العربي، لا سيما حين تعرض جزء منه للاعتداء أو الاحتلال أو المؤامرة، وما أكثر ذلك خلال المرحلة التي اشتد فيها التنافس الاستعماري حول البلاد العربية مغربا ومشرقا، ليفتح بذلك المثقفون جبهة من جبهات مقاومة الاحتلال عبر صفحات المجلات والصحف.

ومن القضايا التي حظيت باهتمام مجلة المنار في الجزء الغربي للوطن العربي حرب الريف (1921م-1926م) بقيادة الأمير محمد بن عبد الكريم الخطابي، كواحدة من أبرز الأحداث التي شهدتها المغرب الأقصى خلال تلك الفترة، مما أعطى لهذه التغطية ملمحا من التنوع في الآراء والتحليلات، يعد هاما من وجهة نظر تاريخية ودراسية. ومن هنا يمكن التساؤل حول مدى حضور قضية الحرب الريفية بقيادة محمد بن عبد الكريم الخطابي في مجلة المنار القاهرية، وعن خصوصية التوجهات والرؤى الفكرية الواردة بالمجلة والمتعلقة بشخصية محمد بن عبد الكريم الخطابي وحربه ضد المستعمر.

1- فكرة تأسيس مجلة المنار وصدورها:

شكل ظهور مجلة المنار سنة 1898م حدثا صحفيا وفكريا هاما في تاريخ الصحافة العربية الإصلاحية، وذلك في وسط كثر فيه ظهور المجلات الثقافية ذات النزعة العلمانية كمجلة «المقتطف» 1876م، والتي كان يصدرها يعقوب صروف وفارس نمر، وجريدة «الأهرام» 1875م للأخوين بشارة وسليم تقلا، أو مجلة «الهلال» 1892م لجرجي زيدان، وبروز بعض الصحف السياسية الحزبية التي لا تُعنى بشؤون الفكر الإسلامي والإصلاح الديني كصحيفة «المؤيد» 1889م لصحابها علي يوسف، وجريدة «اللواء» 1900م الناطقة باسم الحزب الوطني الذي كان برئاسة مصطفى كامل، وصحيفة «الجريدة» الناطقة باسم حزب الأمة بزعامة لطفي السيد.

كل ذلك أفرز فراغا واضحا، كان يبدو جليا بسبب غياب الصحافة الإصلاحية الدينية خاصة بعد توقف مجلة «العروة الوثقى»، لتكون مجلة «المنار» الوريث الشرعي لها والاستمرار الطبيعي لتوجهاتها وأفكارها، لتشيع بظهورها تيارا فكريا موازيا لبقية التيارات الفكرية ولتتبعكس جزءا من الثقافة العربية الإسلامية.

وبالعودة لفاتحة العدد الأول من المنار الصادر في 15 مارس 1898 يبرز لنا ما كان يحز في نفس رشيد رضى من ألم على الواقع الإسلامي والرغبة في إصلاح الأمة الإسلامية والوقوف في وجه ما يهددها من أخطار وتحديات خارجية، فيقول: «... لقد حل من لساني عقدة الاعتقال والسكوت، وأطلق قلبي من عقال الدعة والسكون استغراق بعض إخوتي وإخوتك في النوم، وغرق بعضهم في بحار الوهم، وجهل المريض بدائه، ويأس العالم بمرضه من شفائه، فأنشأت هذه الجريدة لرغبة من تنهت نفوسهم لإصلاح الخلل ومشايعة للساعين في مداواة العلل، الذين أرشدتهم التعاليم الدينية وهداهم النظر في الآيات الكونية إلى أن اليأس من روح الله والقنوط من رحمته جل علاه هو عين الكفر والضلال وآية الخزي والنكال فأحبوا أن يعملوا لأمتهم ويقوموا بخدمة ملتهم، فالجريدة تكون وصلة بينهم وبين الأمة تبعث بإرشادهم روح الهمة في أفرادها، وتعي ميت الغيرة من نفوس أحادها وتجاري الحداة لدى السير في مناهج الترقى، وتنتصب (منارا) في أخرات الشبهات ومجاهيل المشكلات»¹.

أبرز محمد رشيد رضا منذ البداية أن إصداره للمجلة لم يكن يهدف من وراءه الثراء أو الجاه، إنما يعتبر ذلك فرضاً من الفروض الذي يرجى النفع من إقامته، وتأنم الأمة كلها بتركه كما يقول، وأنه لا هم له سوى قول الحق والدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فيقول: «إنني لم أنشأ المنار ابتغاء ثروة أتأتلها، ولا رتبة من أمير أو سلطان أتجمل بها، ولا جاه عند العامة أو الخاصة أباهي به الأقران، وأباري به أعلياء الشان، بل لأنه فرض من الفروض يرجى النفع من إقامته، وتأنم الأمة كلها بتركه، فلم أكن أبالي بشيء إلا قول الحق والدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»¹.

وقد كشفت المنار منذ عددها الأول عن هدفها الذي يتمثل في العناصر الآتية:

- الإصلاح الديني والاجتماعي لأمتنا الإسلامية.

- اتفاق الإسلام مع العلم والعقل ومواقفه لمصالح البشر في كل قطر وكل عصر.

- إبطال ما يورد من الشبهات عليه وتنفيذ ما يعزي من الخرافات إليه.

- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر².

بعد أن سكنت فكرة إنشاء المجلة مخيلة رشيد رضا، وأصبح شديد الاقتناع بتنفيذ مشروعه، كان رسو الباخرة التي نقله إلى مصر في ميناء الإسكندرية في 03 يناير 1898م بداية مرحلة جديدة من حياته وهي مرحلة المنار. وكان رشيد رضا مدركاً أنه لا يمكن أن يقوم بمشروعاته ما لم يحض بمؤازرة الشيخ محمد عبده وهو صاحب الباع الطويل في العمل الصحفي من خلال جريدة «العروة الوثقى». لذلك وجدناه بمجرد وصوله إلى القاهرة، قام بزيارة الشيخ محمد عبده. وقد تحدث رشيد رضا عن هذا اللقاء قائلاً: «فلما بلغناها (دار الإمام محمد عبده) أرسلت إليه بطاقة الزيارة فما لبث أن نزل وهي بيده وطفق بعد السلام يسألني عن أصحابه في طرابلس الأستاذ حسين الجسر ودروسه وجريدة طرابلس التي تنشر فيها مقالاته»³.

1- محمد رشيد رضا، «مقدمة الطبعة الثانية للمجلد الأول من المنار» المنار، م1، ج1، (15 مارس 1898م)، ص ص 2-3.

2- أنور الجندي، تاريخ الصحافة الإسلامية (المنار)، دار عطوة للطباعة، القاهرة، 1983، ص 30.

3- إبراهيم أحمد العدوي، رشيد رضا الإمام المجاهد، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والإنشاء والنشر، (د ت ن)، ص

وبعد إصرار رشيد رضا وشرحه للشيخ محمد عبده عن تصوره للإصلاح وخطته فيه والتي من ضمنها إصدار جريدة إصلاحية تقاوم الجهل والفساد والخرافات، وافقه الشيخ شرط أن يلتزم بمنهاج يجب مراعاته في خطة الجريدة، وحدده في ثلاثة أمور، وهي:

أولاً: أن لا تتحيز لحزب من الأحزاب.

ثانياً: أن لا ترد على جريدة من الجرائد التي تتعرض لنا بدم وانتقاد.

ثالثاً: أن لا تخدم أفكار أحد من الكبراء¹.

واستشار رشيد رضا الشيخ محمد عبده عن اسم الجريدة، وعرض عليه عدة أسماء، كان من بينها «المنار»، فاختار هذا الأخير؛ وهو الاسم الذي أعلن رشيد رضا أنه ارتاح له، ليبدأ بعد ذلك مباشرة إعداد المادة العلمية بعد أن تلقى منه شيخه الكثير من التوجيهات العلمية والعملية. كما أنه توسط له في الحصول على أسماء بعض المشهورين من القراء لمجلته.

وعكف رشيد رضا على إعداد العدد الأول، وأذهل أقرب المقربين إليه بما استطاع إنجازه من عمل كبير. ففي أسبوع واحد، انتهى من تبويب العدد، فضلاً عن كتابة افتتاحية ذلك العدد وهي أهم شطر فيه. وكتب رشيد رضا تلك الفتحة الرائعة بقلم الرصاص في جامع الإسماعيلي المجاور لدار الأستاذ الإمام محمد عبده بالناصرية، وذهب بها إلى داره فعرضها عليه، فأعجبته أيما إعجاب².

وقد صدر العدد الأول من المنار كصحيفة أسبوعية في ثمان صفحات كبيرة في الثاني والعشرين من شوال 1315 هـ الموافق لـ 17 مارس 1898 م. ولم تأخذ الشكل المعروف الذي انتهت إليه إلا في المجلد الثاني، فكانت في البداية أقرب للجريدة منها للمجلة. وقد طبع من العدد الأول 1500 نسخة، أرسل أكثرها إلى الأسماء المعروفة في مصر وسوريا وغيرها من البلاد، فأعيد أكثر ما أرسل، ولكن ذلك لم يضعف عزم وإرادة رشيد رضا لتحقيق المجلة بعد ذلك نجاحاً باهراً حتى أنه قد باع بعد ذلك الأعداد التي استردها بأضعاف ثمنها. وقد حمل العدد الأول مقدمة غاية في الروعة كما سبق الذكر، وكان من أبرز ما جاء فيها: «أما بعد فهنا صوت صاخر بلسان عربي مبين، ونداء حق يقرع من سمع الناطق بالضاد مسامع جميع الشرقيين،

1 - نفسه، ص 131.

2 - نفسه، ص 135.

ينادي من مكان قريب يسمعه الشرقي والغربي ويطير به البخار فيتناوله التركي والفارسي». ويقول: «أيها الشرقي المستغرق في منامه، المبتهج بلذيد أحلامه، حسبك حسبك، فقد تجاوزت بنومك حد الراحة وكاد يكون إغماء أو موتا زؤاما، تنبه من رقادك وامسح النوم عن عينيك وأنظر إلى هذا العالم الجديد، فقد بدلت الأرض غير الأرض ودخل الإنسان في طور آخر خضع له به العالم الكبير... لا يهولنك ما تسمع ولا يروعنك ما ترى، واعلم أن هذا العصر عصر العلم والعمل فمن علم وعمل ساد ومن جهل وكسل باد، وما أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد»¹.

وقد استفاد رشيد رضا كثيرا من انتقادات ونصائح شيوخه وقراءه وهو ما أنجح تجربة المنار الرائدة. فبعد أن انطلقت المجلة أسبوعية، صارت نصف شهرية ثم شهرية. فقد تغيب أحيانا عن الصدور لكنها في الغالب كان مجلة شهرية، كُتبت تواريخ أجزاءها في السنوات الأولى لصدورها بالتأريخ الهجري ثم صارت تُكتب بعد ذلك بالتاريخ الهجري والميلادي معا. أما مكان صدورها فكان بمطبعة المنار، شارع الإنشاء بالقاهرة. كما أن هذه المطبعة عكفت بعد ذلك على طبع جل مؤلفات رشيد رضا. وقد صدر أول عدد لها بتاريخ 22 شوال 1315 هـ الموافق لـ 15 مارس 1889م، أما آخر عدد صدر في حياة مؤسسها، فكان بتاريخ 30 محرم 1354 هـ الموافق لـ 30 يوليوز 1938م، فهو العدد 10 من المجلد 34. وإجمالا صدر من مجلة المنار 34 مجلدا بمعدل 900 صفحة للمجلد الواحد سنويا².

2- توجهات المجلة وموضوعاتها:

انطلاقا من الرؤية الفكرية لـ«مدرسة المنار»، فقد اعتنى رشيد رضا بعرض فتاوى الشيخ محمد عبده ونشر فكره الإسلامي، لذلك حملت صفحات المنار الكثير من الوثائق الفكرية ذات الطابع الإصلاحية لإصلاح المؤسسات كالأزهر أو القضاء الشرعي والتعليم. ولا شك أن المنار بذلك تقدم الصورة الكاملة لتطور فكر رشيد رضا والذي هو جزء من التيار الفكري الإسلامي الإصلاحية المعاصر. وعلى صفحات المنار التي كتب رشيد رضا جل مادتها نتعرف على منهجه في تفسير القرآن، كما نقف على منهجه في الفتوى، فقد خصص من المنار

1 - محمد رشيد رضا، «فاتحة السنة الأولى للمنار»، المصدر السابق، ص 9

2- محمد صالح المراكشي، قراءات في الفكر العربي الحديث والمعاصر، الدار التونسية للنشر، تونس، 1992، ص ص55-

بابا أسماه «فتاوى المنار»، ولا شك أن المنار شكلت للباحثين «منجما» غنيا يتيح متابعة شيء من العطاء الفكري لعدد من رموز الفكر والإصلاح، مثل رفيق العظم، شكيب أرسلان، عبد الحميد الزهراوي، محمد الخضر الحسين، وغيرهم.

ومن ناحية أخرى، فإن القارئ لصفحات المنار، يلحظ ما تضمنته من مساجلات ومعارك فكرية، دون أن ننسى ما قدمته من تراجم هامة لعدد من الأعلام والرموز الفكرية والسياسية العربية والإسلامية شملت أكثر من ثمانين علما، عمد رشيد رضا إلى التعريف بهم وبمسيرتهم العلمية والدينية. كما أن المنار لم تغفل عن تتبع بعض الإصدارات والكتب وتعريف القراء على ما تحويه من معلومات وآراء مما يعطي صورة عن نوعية الكتب التي كان يهتم رشيد رضا بدراستها ومناقشتها¹.

وبذلك فإن المنار شكلت جبهة لمواجهة أقلام وتيارات سلفية وحدائية، فقد أشرك رشيد رضا الكثير من الأقلام المميزة في مواضيع المجلة نذكر على سبيل المثال لا الحصر: أحمد الإسكندري، حفي ناصف، مصطفى صادق الرافعي، المنفلوطي، حافظ إبراهيم، عبد المحسن الكاظمي، محمد روجي الخالدي، عبد القادر المغربي، شكيب أرسلان، رفيق العظم، محمد الخضر حسين، دون أن ننسى محمد عبده².

3- محمد بن عبد الكريم الخطابي من خلال المنار:

واكبت مجلة المنار الكثير من أحداث وشؤون المغرب منذ أعدادها الأولى، فتوقفت عند الاضطرابات والتمردات الداخلية وكذلك الضغوط الاستعمارية، وبينت وجهة النظر فيها، كما واكبت عملية فرض الحماية على المغرب سنة 1912م، وبداية المقاومة ضد الاحتلال، وجاء الاهتمام بحرب الريف من موقع تعدد القراءات وتنوع الرؤى؛ فنجد على سبيل المثال مقالا للأمير شكيب أرسلان يشيد فيه بالانتصارات الحاصلة في «أنوال» ويقارن بين البطل عبد الكريم وأبطال معاصرين له. وهناك مقالة أخرى لأحد المشاركين في الحرب وهو الإسباني أنريك دي ميناس، يقر فيها بشجاعة الريفيين، لكنه في ذات الوقت يدعو الأوروبيين للتحالف

1 - أنور الجندي، المرجع السابق، ص 294.

2 - Nadia elissa-mondeguer, «al-manâr de 1925 a 1935: la dernière décennie d'un engagement intellectuel» (revue des mondes musulmans et de la méditerranée (en ligne N° 95-98 avril 2002, P13).

ضدهم. ولم يغفل رشيد رضا - من خلال المنار- عن إبداء رأيه في هذه الحرب وقائدها «محمد بن عبد الكريم الخطابي».

3 - 1 / مولده ونسبه ونشأته:

ولد محمد عبد الكريم الخطابي سنة 1882م بمدينة أجدير التابعة لمدينة الحسيمة بكرة لأبيه. أما عن نسبه، فإنه ينتهي إلى أسرة الخطابي، وهي واحدة من بيوتات الريف الكبيرة وصاحبة الزعامة في قبيلتها بني ورياغل، وقد اشتهر كثير من أفراد هذه العائلة في قتال الإسبان شهرة عظيمة، نخص بالذكر السيد أحمد أمزيان قائد معركة مليبية التي وقعت سنة 1911م ضد الإسبان. فقد أبلى السيد أحمد المذكور في تلك الواقعة بلاءً مجيداً، وجشم الأعداء الخسائر الفادحة، وقبيلة الأمير- أي بني ورياغل- تقطن في الشمال الشرقي من بلاد الريف، وهي أكبر قبائله عدداً وأعظمها نفوذاً وأشدها شجاعة¹.

وكانت قبيلة بني ورياغل تسكن الإقليم المواجه لميناء الحسيمة، وهو ما جعلها أكثر انفتاحاً على الآراء الغربية وأكثر قوة من غيرها، نتيجة لامتلاكها الأراضي الزراعية، وكان وجود ميناء الحسيمة في أيدي رجال الريف وتمكنهم من الإحتفاظ به نافذة مفتوحة على العالم، يزيد من قوة هذه القبيلة وأهميتها وخاصة في علاقتها بالخارج، وكانت قبيلة بني ورياغل قد اختارت الأمير عبد الكريم الخطابي رئيساً لها في السنوات الأولى من القرن العشرين، وكان يمتاز بالحكمة والحزم في نفس الوقت الذي امتاز فيه بالانفتاح على الآراء الغربية، ورغبته في تقدم البلاد².

ويذكر أحمد سكيح في كتابه «الظل الوريث»، قائلاً: «...وأصله من جزيرة العرب وورد على الريف منها جده الأعلى السيد زرة الينبوعي، فاستوطن قبيلة بني ورياغل، وباسمه اشتهرت فخذة بأجدير بآيت زرة، وأجدير على ثلاث فخذات (...). وهذه الفخذات تضاف لها في النسبة لآيت خطاب، فينتسب الأمير إلى آيت خطاب المذكور فهو خطابي»³.

1- رشدي الصالح ملحس، سيرة الأمير محمد بن عبد الكريم بطل الريف ورئيس جمهوريتها، (د ط)، المطبعة السلفية، القاهرة، 1343هـ، ص 25.

2- يحيى جلال، عبد الكريم الخطابي، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، مصر، 1968، ص 27.

3- أحمد سكيح الخزرجي، الظل الوريث في محاربة الريف، (كتب سنة 1926م)، إعداد محمد الرازي كنون، (دون طبعة)، (دون تاريخ نشر)، (دون مكان نشر)، ص 54 - 55.

3 - 2 / إشتغاله بالسياسة ومعارضة الأطماع الاستعمارية:

حفظ محمد بن عبد الكريم الخطابي القرآن الكريم مبكرا، ولما بلغ سن العاشرة سنة 1892م إنتقلت عائلته إلى تطوان ليدرس اللغة العربية والشرع الإسلامي، لينتقل سنة 1905م إلى فاس ليطلب علما أوفر في جامعة القرويين، وهي من أقدم مناهل العلم في المغرب الأقصى، فمكث فيها أربع سنوات وقد أهلتة للإطلاع على السياسة الخارجية للمغرب والمشاكل التي كان يواجهها وبعد رجوع محمد بن عبد الكريم إلى منطقة الريف عين في مدينة مليلية مدرسا للغة العربية، ومارس بعد ذلك مهمة القضاء، كما زاول الصحافة في بعض الجرائد الإسبانية المحلية كجريدة « تلغراف الريف»، وبعد أن أتم محمد عبد الكريم دراسته وذهابه إلى مليلية وشروعه في التدريس إنفجرت الحرب العالمية الأولى سنة 1914 ومع اندلاعها اتصل أحد سكان مليلية يدعى فرنشيسكو فابري (Francesco Fabre) الذي أصله ألماني (...) عرض عليه أن يقوم بعملية تشويش وبلبله ضد فرنسا مقابل مال وأسلحة كثيرة، ووصل خبر هذه المقابلة ومحتواها إلى المارشال ليوطي المقيم العام الفرنسي في المغرب فطلب من السلطات الإسبانية التي كان يخضع لها الريف أن تلقي القبض على عبد الكريم، فسجن الشاب اليريفي¹.

وقد ثبت أن السلطات الإسبانية كانت تراقب هذه الأسرة. ففي أحد المراسلات للسلطات الإسبانية في منطقة الريف بتاريخ 1 يوليوز 1915م إلى مركز القيادة بمليلية جاء في نصها: «إن معلومات ذات ثقة تؤكد بأن الفقيه عبد الكريم [يعني الأب] ينتظر مجيء ابنه السي محاند قاضي مليلية، للعمل سويا ضد مصلحة إسبانيا، ولذلك فإن رجوع الإبن إلى مليلية يعتبر أمرا غير وارد بالمرة، وقد أكدت لي مصادر الخبر، خطورة مجيء السي محاند إلى قبيلة بني ورياغل لما يكون له من تأثير قوي على المتعصبين اليريفيين...»².

وقد وردت عدة روايات وقراءات لأسباب اعتقاله وسجنه سنة 1915م كتذرع الإسبان بعمله في السياسة مما يتناقض مع منصبه الرسمي كقاضي قضاة وبأوراق ضبطت في بيته فيها منشورات عثمانية تدعو المغاربة لمحاربة الفرنسيين ورسائل من إسبان يعارضون حكومتهم ورسائل منه إلى الوطنيين اليريفيين ووثائق عن نشاط عبد المالك حفيد الأمير عبد القادر الجزائري، (...) وعمل على مقاومة محاولات الإسبان بسط حمايتهم على الريف الأوسط، بعد

1- مسعود معداد، عبد الكريم الخطابي، مجلة التاريخ، النصف الثاني من السنة 1985، الجزائر، ص 126.

2- محمد سلام أمزيان، عبد الكريم الخطابي وحرب الريف، مطبعة المدني، القاهرة، 1971، ص 23.

أن فشلوا في إغرائه كعرضهم عليه أن يعينوه حاكما على الريف ونائبا للسلطان ووزيرا في حكومة تطوان فرفض كل هذه العروض¹.

وقد واصل محمد بن عبد الكريم سياسة أبيه الراضية للمساومات فبعد خروجه من السجن التحق بوالده الذي كان بصدد تحضير دفاعاته عن المناطق التي كانت تابعة له، وإثر وفاة والده قرر ابنه محمد بن عبد الكريم الذي خلف والده في قيادة القبيلة، وبالإتفاق مع أخيه الأصغر وعمه عبد السلام الخطابي أن يستمروا في عمليات الجهاد وإن كانت عملياتهم الأولى قد ظهرت وكأنهم يحاولون فيها أن يقفوا على الحياد تجاه النشاط الإسباني في أراضي القبائل المحيطة بهم، والإمتناع عن تشجيع القبائل الأخرى على الخروج عن طاعة الإسبان، إلا أن هذا الموقف قد تغير نتيجة لزحف الجنرال سيلفستر القائد الإسباني لقطاع مليبية وتوغله بقواته نحو الداخل، لينتقل محمد بن عبد الكريم الخطابي إلى مرحلة المواجهة والهجوم².

4 - شخصية محمد بن عبد الكريم الخطابي من خلال كتابات المنار:

لم تكتف المنار في حديثها عن حرب الريف بمجرد القراءات السطحية ونقل الأخبار، بل كانت المقالات مشبعة بالأفكار المختلفة المتباينة حسب طبيعة كتابها ومشاربهم. والملاحظ أيضا أنها مزجت أحيانا بين معالجتها للحرب نفسها كحدث عسكري محض، وبين الحديث عن شخصية محمد بن عبد الكريم كشخصية قائدة وصانعة لهذا الحدث، وهذا ما يفسر أحيانا طول المقالات التي عالجت الموضوع، وهو ما يؤكد أن الحرب ومفجرها قد كانت في حينه مادة دسمة تناولتها الصحف والأقلام وإن كان موقف المنار سيختلف لا محالة عن تغطية الصحف الأوروبية والأمريكية للحدث باعتبار أنها كانت تمثل جزءا من الصحافة العربية الإسلامية.

4 - 1 / محمد بن عبد الكريم في نظر الأمير شكيب أرسلان:

كتب الأمير شكيب أرسلان مقالا تناول فيه قائد حرب الريف، وبدأه بتقديم صورة موجزة عما حدث في المغرب من تنافس استعماري أوروبي ووضح فيه كيف أن فرنسا اقتسمت مع إسبانيا مملكة المغرب الأقصى، كما اقتسمت مع إنجلترا سوريا، وأن منطقة الريف كانت من حصة إسبانيا وها قد قيض الله تعالى لأهل الريف زعيما منهم نجح في تنظيم جيش من

1- نفسه، ص 50.

2- مسعود معداد، المرجع السابق، ص 127.

أبناء الريف وقد «أتى في قتاله لهذه الدولة بما يكاد يكون من خوارق العادات التي أيد الله بها سلف هذه الأمة في صدر الإسلام»¹، وأبرزت المنار في هاته المقدمة أنها كانت عازمة على كتابة ما تنوه به لما قام به محمد بن عبد الكريم منذ ثلاث سنوات خلت.

ومنذ بداية المقال قدم شكيب أرسلان موقفه الواضح في شخص محمد بن عبد الكريم الخطابي مبرزاً بأنه لم يسبق له أن استعمل كلمة بطولة لأنه لم يجدها في المأثور من كلام العرب الأولين أو المخضرمين، لكنه أمام هذا الرجل سيغير رأيه فيقول: «أما الآن فأريد أن استعملها لهذا الأسد الزائر، والفحل الصائل، المسمى بمحمد بن عبد الكريم الخطابي المتولى كبر تحرير قومه في شمالي مراكش، فأقول بطل محمد بن عبد الكريم الخطابي بطولة وبطالة فهو بطل، لا بل هو بطل الأبطال وفذ الأفضاد، وعلم الأعلام...»².

إلا أن شكيب أرسلان لم يكتفي بالإطراء اللغوي لنعته محمد بن عبد الكريم الخطابي بل أدخل القارئ في مقارنة مطولة ومثيرة بين محمد بن الكريم ومجموعة من الشخصيات البارزة، التي جعلته حسب رأيه أعظم من جميع أبطال العصر الحاضر، البادي منهم والحاضر، فيقول: «وكل من ينظر في قضية الأمير محمد بن عبد الكريم، ويتأمل فيها ويرى موقفه المدهش المحير للعقول في وجه إسبانيا مع الفرق الشاسع والشقة الهائلة بين درجتي كل من إسبانيا والمنطقة التي تقاتلها من شمال المغرب، يحكم بأنه لو كان في الدنيا إنصاف لما كان أحد اليوم أولى من محمد بن عبد الكريم بأن يوضع في مقدمة أبطال العصر، ويكتب تاريخه وتدون مسيرته وتعرض مسيرته»³.

أي أن شكيب أرسلان يؤكد أن عبقرية هذا الرجل وأحقيته في البطولة تكمن في الإختلاف الكبير والواضح فيما تملكه إسبانيا من إمكانيات وقدرات عسكرية ومادية في وجه هذا الرجل وجيشه ببسيط الإمكانيات، ويرى شكيب أرسلان عند قيامه بالمقارنة أن كفة محمد بن عبد الكريم الخطابي ترجح في مجال البطولة لا محالة على فوش وهندنبرغ، ومصطفى كمال ودانوسيو وموسوليني ولينين، ثم واصل شكيب أرسلان التوضيح قائلاً: «إن فوش عندما أحرز النصر كان رأساً على 15 مليون جندي من عساكر الحلفاء عدا جند أمريكا

1- شكيب أرسلان، بطل العرب والإسلام العظيم القائد الكبير محمد بن عبد الكريم، المنار، م 24، ج 9، (11 سبتمبر 1923).

ص ص 684-691.

2- نفسه، ص 684.

3- نفسه، ص 687.

التي كان وصل منها إلى فرنسا مليوناً ونصف مليون وبقي منها مثل هذا العدد في أمريكا، وإن هندنبرغ كان قائداً لستة ملايين ألماني هم أحسن جنود العالم بدون نزاع، وإن مصطفى كمال وإن صح أن يقال أنه بعث تركيا من قبرها، كان في تركية عساكر منظمة وجند مدربة وضباط أركان حرب معدودين من الطبقة الأولى، وبقايا أسلحة وآثار دولة مبنية من أصلها (...). وإن سائر من ذكرنا من الرجال المعدودين في هذا العصر كانوا في حركاتهم متوكلين على أمم عظام وأعداد لا تحصى وتشكيلات إدارية تامة، فأستوسق لهم من الأمور ما أستوسق وظهر من شأنهم ما ظهر»¹.

فلا عجب إذن أن تسند هذه الشخصيات رغم عبقريتها غير المشكوك فيها انتصاراتها بما يقف خلفها من دول عظمى تمتلك من مقومات القوة والتفوق الشيء الكثير، أما الأمر بالنسبة لمحمد بن عبد الكريم الخطابي، فيرى شكيب أرسلان أن أنصاره لا يزيدون عن المليون إلا قليلاً، فكتب قائلاً: «ومع هذا فإن هذين الثلثين من المليون أو فلنقل هذا المليون واقف في وجه دولة إسبانية التي عدة أهلها عشرون مليوناً...»².

ويتضح مما سبق أن شكيب أرسلان أراد أن يوضح بالأرقام الصريحة مدى التفاوت بين العدد والعدة لدى الجيوش الإسبانية وجيش محمد بن عبد الكريم موحياً للقارئ أن يستنتج من وراء ذلك وجود عوامل تفسير لصمود انتصارات الريفيين تتجاوز العوامل المادية ولا شك أنه يقصد العوامل الدينية وطبيعة أهل الريف الراضين للاستعمار وكفاءتهم القتالية التي اكتسبوها من أسلوب حياتهم.

وفي أثناء هذه المقارنة كتب شكيب أرسلان ليوضح أن إسبانيا ليست وحدها في عدوانها ضد الريف والمغرب بل حضيت بدعم إنجليزي، وقال في هذا الصدد: «وإنه في كلتا المرتين تطوع في الجيش الإسباني ألاف مؤلفة من أصناف الإفرنجية لا سيما من الإنجليز الذين لا يتركون فرصة يظهرون فيها فرط محبتهم للإسلام إلا ولجوها، وهذه المرة يقال أن أكثر الإلحاح على الدولة الإسبانية في استئصال شأفة المقاومة من الريف واقع من دولة بريطانيا العظمى»³.

1- شكيب أرسلان، المصدر السابق، ص 685.

2- نفسه، ص 685 - 686.

3- نفسه، ص 682.

ولعل في هذه الأمثلة والأرقام تأكيد للطرح الذي قدمته المنار وكتابتها عن وجود تحالف أوروبي استعماري يجب مواجهته والتوحد في مقاومته

أكد شكيب أرسلان أنه سبق له أن تابع حركة محمد بن عبد الكريم الخطابي وأنه أعجب به وبإنجازاته العسكرية ضد الإسبانيول إذ قال: «في تموز سنة 1921 استأصل الريفيون بقيادة هذا البطل الغشمشم 25 ألف بندقية وأعتادا حربية لا تحصى وعددا من الطائرات وسبق لها العاجز - المعجب بمحمد بن عبد الكريم المتحسر على أن ليس في سورية مثله- مقالات متعددة عن تلك الطوائل التي طال بها، والوقائع التي انتصر فيها منها ما نشرناه « بالبيان» ومنها في « الصباح» الذي كان يطلع بفلسطين، لأن حرية المطبوعات... في سورية لم تكن تسمح بنشر شيء عن قوم يدافعون عن استقلالهم ولو كانوا من أقصى البلاد عن سورية.»¹

ويتضح من خلال ما سبق أن حرب الريف حظيت منذ بدايتها باهتمام شكيب أرسلان وأن جزءا من الصحافة العربية الإسلامية كان يتابع تطوراتها، وبعد أن عرض شكيب أرسلان إنهم إنهم إسبانيا في تلك المعارك فسرعان ما أبرز لنا وجهها آخر لتلك الحرب واستعمال الإسبان لوسائل جديدة بعد عجزهم في المواجهة العسكرية، باللجوء إلى التآمر وسياسة فرق تسد لمواجهة الريفيين، حيث قال: «وبعد هاتيك الهزيمة عول الإسبانيون على سياسة التفريق والشقاق بين الريفيين، تلك السياسة التي طالما نجحت بها الدول المستعمرة ونالت مأربها من الشرق من ثنايا منافسات الشرقيين بعضهم مع بعض، فعقد الإسبانيون الصلح مع الريسوني، وأعملوا الهمة في التضريب بين القبائل الريفية وخذروا أعصاب كثيرين منهم وبذلوا المواعيد ومنوا الأمانى، حتى خيل لهم أن الحركة قد همدت وأن حزب بن عبد الكريم قد ضعف جدا عن ذي قبل، وأنهم إن صمدوا إليه وجدوه في هذه المرة في قلة من قومه وقضوا منه وطهرهم»².

ولا عجب أن تستعمل إسبانيا أو غيرها من الدول الاستعمارية كفرنسا أو بريطانيا هذه السياسة الخطيرة لأنها تدرك أن قوة الشعوب في وحدة صفها الداخلي ولذلك كثيرا ما كانت دعوات المنار وكتابتها ترفع لواء الوحدة الإسلامية والعربية، وبعد إبرازه خصال محمد بن عبد الكريم العسكرية يلتفت شكيب أرسلان إلى أخلاقه الحربية فيروي نقلا عن صحيفة

1- شكيب أرسلان، المصدر السابق، ص 685.

2- نفسه، ص 687.

سويسرية قصة شباب من سويسرا أجبرتهم إسبانيا على التجنيد في حربها في الريف ولكنهم عندما وقعوا في أسر محمد بن الكريم الخطابي قام بإعادتهم إلى بلادهم في الوقت الذي قامت إسبانيا بإعدام سويسريين بعد أن فروا من جيشها حين أجبرتهم على الإنخراط في صفوفه وهم عمال قصدوا إسبانيا لعمل مدني.

4 - 2/ بطل العرب والإسلام وأندلسهما الجديدة الأمير محمد بن عبد الكريم وقول كاتب إسباني فيه:

هو ثاني مقال مطول خصصته المنار لشخصية محمد بن عبد الكريم. وتخبر بأن نشره جاء بعدما «ركدت عاصفة المعارك بين الدولة الإسبانية والأمير محمد بن عبد الكريم وخمد لهيها فبقي جل جمرها تحت الرماد من حيث اشتعلت نارها بينه وبين الدولة الفرنسية في منطقة حكومة المخزن الواقعة تحت حمايتها»¹.

وبذلك تؤكد المنار بأنها لا تهتم كثيرا بتفاصيل الأحداث الميدانية من معارك وغيرها: أولا لصعوبة الحصول عليها من مصادر يوثق بها، وثانيا لأن المنار تهتم أكثر بقراءة دلالات الأحداث والإعتبار منها، ولذلك نشرت مقالا لكاتب إسباني اسمه (أنريك دي مناس) نشرها في جريدة (هارلدتريبون) النيويوركية²، قدم من خلاله شهادته قائلا: «وقد قدر لي أن حاربت عبد الكريم بنفسه من عهد غير بعيد فأنا لذلك أعرف بعض الشيء عن نشاط الريفين وشدة مراسهم، وأشهد علنا بالقلم واللسان ببطولتهم، رأيت بعيني أولئك العرب الشجعان يواجهون المدافع الرشاشة ويهاجمون رجالها غير مبالين بنيرانها الاكلة، حتى كأنها ليست موجودة أو أنها عديمة الأذى، ومن أجل هذا أقول أن دعوى الفرنسيين بأن مثل هؤلاء الأبطال يتراجعون إلى الوراء بسبب خمسين رجلا من الأقوال المضحكة»³.

وبعد أن أبرز هذا الكاتب ذكاء محمد بن عبد الكريم الخطابي في مهاجمة المواقع العسكرية التي أنشأتها إسبانيا، عاد الكاتب الإسباني ليعزز بعضها من صفات عبد الكريم، حيث اعتبره ليس مجرد رجل مقاتل بل له اطلاع واسع، ويتمتع بكثير من الذكاء والدهاء فهو

1- نقلا عن: محمد رشيد رضا، بطل العرب والإسلام وأندلسهما الجديدة الأمير محمد بن عبد الكريم وقول كاتب إسباني فيه، المنار، م 26، ج 2 (21 جوان 1925م)، ص 148.

2- نفسه، ص 149.

3- محمد رشيد رضا، بطل العرب والإسلام وأندلسهما الجديدة... المصدر السابق، ص 149.

يجمع بذلك بين العلم والشجاعة، وقال في ذلك: «ومما هو جدير بالذكر أن عبد الكريم ليس بطلا مجربا فقط، فقد حدثته في مواضع كثيرة وحدثه غيري كثيرون فهو رجل واسع الإطلاع وفيه ذكاء وتعقل بمقدار يندر وجود مثله في رجل واحد، والرجل يعتقد أن عليه واجبا وطنيا، وهو يعرف كل الحوادث المتعلقة بمدة السبعمئة سنة التي ستسيطر فيها العرب على إسبانيا، هو وأخوه الذي تلقى فن الهندسة في مدريد قد جالا في كثير من البلدان المتمدنة وسكنا زمتا طويلا في جنوبي إسبانيا»¹.

ولكن ذكر الكاتب لهاته الصفات النبيلة ذو هدف عكسي لا يريد من ورائه إبراز خصال الرجل وبطولاته بل لإبرازه كخطر محقق بأوروبا. كيف لا وهو يسعى إلى استعادة أمجاد أجداده في إسبانيا، فيقول الكاتب: «وفي مدة إقامة عبد الكريم في ذلك الجانب من إسبانيا شاهد آثار أمجاد العرب الباقية في كل مكان من تلك البلاد ولا سيما في غرناطة، فآثر ذلك فيه أيما تأثير وولد فيه نزوعا إلى محاولة إستعادة أمجاد الأجداد، وهو أمر نبيل يشكر عليه الرجل مهما قيل عن مساوئه وأخطاره، وقد بث هذه الدعوة العربية في كل مكان بواسطة المشايخ والأئمة الذين يتجولون من مكان لآخر ولهم سلطة معروفة على العامة»².

ويبقى هذا الكاتب الإسباني في نفس الإتجاه بإتهام محمد بن عبد الكريم الخطابي بأنه يتجاوز مجرد تحرير منطقة الريف وحتى المغرب إلى محاولة إدخال العالم الإسلامي والمسيحي في صراع يهدف من ورائه محمد بن عبد الكريم إلى استعادة أمجاد أجداده في أوروبا، ولما لا إستعادة الأندلس، ولا شك أن الهدف واضح من وراء ذلك ألا وهو تصوير محمد بن عبد الكريم الخطابي بذلك الخطر الزاحف على أوروبا والغرب والذي يتطلب مواجهة حاسمة من كل أوروبا.

وفي آخر مقاله يرى الكاتب الإسباني أن جملة قوله أن مراده توضيح ما يقوم به عبد الكريم الخطابي من حركة «تتطلب اهتماما خاصا ودراية وتدبيرا عظيمين لاتقاء غوائلها (...)» إنه إذا كان عبد الكريم قد نجح في مساعيه بغرس البغضاء في أذهان مواطنيه للأوروبيين فليس في الدنيا ما يقوى على إزالتها ومهما أتى الفرنسيون من آيات القتال ومهما جردوا من

1- نفسه، ص 152.

2- نفسه، ص 153.

الجيش فإنهم يعجزون عن استئصال هذه الفكرة القومية التي ستكلف فرنسا على تمادي الزمن أنهارا من الدماء وأنهار من الذهب كما كلفت إسبانية»¹.

وبوضعنا لمقالي «شكيب أرسلان» و«إنريك دي ميناس» أمام مرآة التاريخ لكي نتمكن من الحصول على معلومات قيمة تكشف لنا مواقف المثقفين والصحافة شرقا وغربا من حرب الريف، فبينما كان شكيب أرسلان يدافع عن قيم التحرر وأهمية الوحدة ونيل الاستقلال، كان إنريك دي ميناس يغذي الحقد والتعصب الديني للغرب على الريفيين ليحرمهم من أبسط حقوقهم الإنسانية وهي أن يعيشوا أحرارا في أرضهم.

5- بلاد الريف مهد ثورة:

تطلق بلاد الريف على الإقليم الشمالي من المغرب الأقصى الممتد من حدود الجزائر في الشرق إلى مضيق جبل طارق وطنجة في الواجهة الغربية، وله واجهة على المحيط الأطلسي تمتد إلى ميناء العرائش، ويغلب على بلاد الريف الطابع الجبلي. لذلك أخذت من تلك الجبال الشاهقة إسما لها، إذ يصل بعض قمم الريف لما يزيد عن ثلاثة آلاف متر، تتميز بسفوح شديدة الانحدار نحو البحر الأبيض المتوسط مما يقلل من إمكانية إنشاء الموانئ على تلك السواحل ولذلك فإن أهمها أربعة موانئ فقط وهي ميناء مليلية والحسيمة وتطوان وسبتة وهو ميناء ذو أهمية إستراتيجية بالغة. والواقع أن قلة الموانئ في الساحل الشمالي للمغرب قد أعطى لهذه الموانئ أهمية كبيرة².

لقد تطلبت ظروف الصراع غير المتكافئ في الإمكانيات العسكرية والمادية بين الإسبان والريفيين بروز شخصية مؤهلة وواعية بمعطيات الصراع لتواصل المقاومة المسلحة فبرزت أسرة الخطابي وقبيلته بني ورياغل.

إذ وبعد وفاة والده استلم محمد بن عبد الكريم زمام المقاومة في هذا الوسط التي وصفته المنار كما يلي: «ريف المغرب الأقصى بقعة صغيرة اشتهر أهلها بعزة النفس، وشدة البأس، ورسخ فيهم حب الإستقلال أو غريزته فلم يذلوا لفتاح ولا خنعوا لمقاتل»³.

1- محمد رشيد رضا، بطل العرب والإسلام وأندلسهما الجديدة... المصدر السابق، ص 153.

2- يحيى جلال، المرجع السابق، ص 7-8.

3- محمد رشيد رضا، حرب الريف أو الأندلس الجديدة - مساعدة منكوبها - وضروب من العبر فيها، المنار، م 26، ج 3، 21 يوليو 1925، ص 217.

بدأ الأمير عبد الكريم ثورته ضد الإسبان بعدة إشتباكات إنتصر الإسبان في معظمها بسبب عدم جاهزية الريفيين ونقص إمكانياتهم لا سيما من السلاح والذخيرة. وحاول الإسبان بعد ذلك إبعاد محمد بن عبد الكريم الخطابي عن مواجهتهم عن طريق إغراءه بـ 20 مليون بزطاس وأسلحة وعتاد ليحارب فرنسا لتتلخص بذلك من منافسين لها في آن واحد لكنه رفض هذه المساومة.

وأمام رفض محمد بن عبد الكريم الإنصياع لإدارة إسبانيا ومخططاتها في المنطقة دفع الإسبان بقواتهم «بقيادة الجنرال سلفستر إلى الهجوم على قرية واد بارة في منطقة التنسمان، فرد الأمير عبد الكريم بهجوم مضاد عنيف ولم تكن لديه سوى 300 رجل أمام فيالق سلفستر الذي خسر في المعركة حوالي 400 جندي ومدافع وذخيرة (...) عاد الجنرال سلفستر مرة ثانية وهجم على عبد الكريم في ناحية سيدي بوعيان فانهزم من جديد تاركا وراءه 314 قتيل، حينئذ قرر الجنرال الإسباني التلخص من عبد الكريم مهما كلفه ذلك من خسائر فجمع ما لديه من قوات عسكرية في المنطقة ونصب قيادة عامة قرب قرية أنوال، على أن يتم تموين القوات الإسبانية من قرية تبرى عزة وهذا الوضع جعل الأمير عبد الكريم يقطع كل المواصلات بين القريتين تاركا الإسبان في عزلة تامة، ثم تمركز في هضبة بين أنوال وأغربين، فهجم عليه سلفستر بـ 10.000 جندي يوم 1921/07/21 ولم تكن القوات الريفية آنذاك تتجاوز الألف مقاتل إلا أن وجود الشعب من ورائها مؤيدا ومشجعا زادها ثباتا فدامت المعركة 5 أيام تحركت خلالها الفيالق الإسبانية بثقل بسبب حجمها بينما كانت القوات الريفية تتحرك بسهولة فوق رؤوس الجبال، وفي يوم 1921/07/25 تخلى سلفستر عن حصن أغربين الذي تحصن فيه مدة وبدأ يتقهقر تاركا وراءه عتادا ضخما وأسلحة كثيرة¹.

وفي يوم 26 من نفس الشهر فرت القوات الإسبانية من أنوال والجندي الريفي يلاحقها، في الوقت الذي تدخلت فيه شتى القبائل لنصرة عبد الكريم، فانهزم الجيش الإسباني كليا وقتل الجنرال سلفستر مع ما يقرب من 10000 جندي وأسرة 700 آخرين، كما غنم عبد الكريم 200 مدفع من عيار 75 و65 و77 و20000 بندقية وعتادا لا يحصى مع شاحنات وأدوية كثيرة وغير ذلك»².

1- مسعود معداد، المرجع السابق، ص 129.

2- نفسه، ص 130.

ولا شك أن هزيمة الإسبان في معركة أنوال قد أبرزت حجم مقاومة الريفيين وما يمكن أن يلحقه بالإسبان من خسائر في ظل ما يعتمدونه من حرب عصابات ناجحة يقول يحيى جلال: «وعلينا أن نعتز بأن هذه الهزيمة التي لحقت بالإسبانيين في أنوال على أيدي رجال عبد الكريم الخطابي كانت أكبر وقعا من الناحية النفسية عنها من الناحية المادية، ولم يكن أي جيش أوروبي قد ذاق مثل هذه الهزيمة الساحقة على أيدي الوطنيين فيما وراء البحار منذ هزيمة القوات الإيطالية في عدوة 1896م»¹. وقد برهن محمد بن عبد الكريم فعلا بعد هذه المعركة أنه أكبر من جنرالات إسبانيا وعلى رأسهم الجنرال سلفستور.

6- مجلة المنار وحرب الريف:

بعد أن بدأت المنار الاهتمام بحرب الريف من خلال المقالات المخصصة لمحمد بن عبد الكريم الخطابي عبر وجهات نظر مختلفة، عادت للموضوع مرة أخرى ابتداء من الجزء الثالث للمجلد السادس والعشرون في مقالها بعنوان «حرب الريف أو الأندلس الجديدة، مساعدة منكوبها وضروب من العبر فيها»، وكعادتها ركزت المنار على ضرورة الإعتبار من كل ما يصيب البلاد العربية والأمة الإسلامية وأن عدم الإعتبار لدى الحكام والأمم هو واحد من أبرز أسباب الحالة الكارثية التي يعيشها العالم الإسلامي ولذلك فإنها تدعو دائما للإعتبار بما يحدث مثلا في طرابلس الغرب أو في مراكش وحتى غيرها.

وقد بدأت المنار هذا المقال بإبراز التخوف الفرنسي من الإنتصارات التي حققها محمد بن عبد الكريم على الفرنسيين وإن يكون في جهاده نموذجا للجزائريين والتونسيين ليثوروا ضد فرنسا فقالت: «خافت فرنسا أن يستفحل أمره فيستولي على فاس ويفضي ذلك التي تحيز جميع القبائل له، فيتجرأ أهل الجزائر فتونس على الإنتفاض عليها وإلقاء نير العبودية الثقيل من أعناقهم»². وقد سعت المنار إلى إبراز تلك الروابط التي تجمع هاته الأقاليم الثلاثة وأن مصيرها يجب أن يكون مشتركا في مواجهة الإحتلال الذي لا ينظر لها في مخططاته الاستعمارية التوسعية إلا على أنها شيء واحد.

1- يحيى جلال، المرجع السابق، ص 48.

2- محمد رشيد رضا، حرب الريف أو الأندلس الجديدة...، المصدر السابق، ص 217.

كما كان للمجلة موقف واضح من الاستعمار الأوروبي حيث كشفت لقراءها بشكل متواصل الوسائل المختلفة التي مهدت بها أوروبا لإحتلال العالم الإسلامي والبلاد العربية وأبرزت في الكثير من المرات أثر الفساد لدى الحكام والجهل لدى العامة في تسهيل عملية الاستعمار لبلدانهم. يقول كاتب: « فهؤلاء المستعمرون من الإفرنج يسلبون من أهل البلاد التي يستولون عليها أكثر ثمرات كسبهم ويجعلونهم أذل من غير الحي والوتد في بلادهم، ومن لم يرض مع الذل والعبودية بخيانة أمته ووطنه والخدمة الصادقة لهم يسومونه سوء العذاب، ولا يساوون أحد منهم بأبناء جنسهم، وإن هو دخل في مدينتهم»¹.

6 - 1/ دعوة المنار لدعم الريفيين وإعانة منكوبيهم:

بدأت المنار دعوتها للتضامن مع محمد بن عبد الكريم الخطابي والريفيين مع كتابات شكيب أرسلان حول محمد بن الكريم الخطابي. فبعد أن أشاد ببطولاته وخصاله واصفا إياه بأسى صفات البطولة ثم توضيحه لما يوجد من روابط مع محمد بن عبد الكريم توجب وتفرض التضامن معه والوقوف إلى جنبه قال: «إن الذي يربطنا بعبد الكريم وقومه ليس أنهم مسلمون فقط ولا أنهم معدودون من الأمم الشرقية ولو كانوا من الغرب، بل لكوننا مقيدين وإياهم بسلسلة طويلة فهي متصلة الحلقات لا خرم فيها من أولها إلى آخرها، ومن المحال أن يفوز المغربي في الريف أو في أي مكان آخر بدون أن يتدشق أخوه المشرقي أريج الفرج، ولو على بعد ألوف من الفراسخ، وهذا أمر يعرفه الأوروبيون جيدا لذلك نجدهم متضامنين متكافلين في وجهنا مهما اشتدت الشحنةاء بينهم في بلدانهم»².

وقد قدم لنا بعد ذلك موقف المندوب الإسباني في جمعية الأمم من الإستقلال السوري كمثال لموقفه وموقف بلاده من تحرر البلاد العربية والإسلامية حين قال: «وأخيرا فصل السياسي الإسباني الخطاب بأنهم هم أي الأوروبيون لا يجدر بهم أن يساعدوا أمة شرقية على الإستقلال ولو كان فيها مسيحيون»³.

1- محمد رشيد رضا، الفتح الأوروبي والفتح الإسلامي والاستعمار البريطاني والفرنسي، المنار، م31، ج2، (24 أوت 1930)، ص148.

2 - شكيب أرسلان، بطل العرب والإسلام...، المصدر السابق، ص 690.

3- نفسه، ص690.

ثم يستعرض بعض أشكال الدعم الممكن لتقديمه للريفيين أولها إرسال المتطوعين ليقاتلوا في صفوف الريفيين فقال: «ولو كنا أحياء كالإفرنج الذين يتعاونون على استعبادنا، ويتكافل المتنازعون منهم فيما بينهم في كل ما يقضون به علينا، لكننا أجدد بإرسال المتطوعين إلى الريفيين، من الإنكليز بالتطوع مع الإسبانيين»¹.

وبذلك فإنه يبرز أن الدعم البشري مهم لنصرة محمد بن عبد الكريم ورجاله إذا كان الإسبان والفرنسيون رغم قوتهم وعددهم يتلقون دعماً من الإنكليز ولكنه يلاحظ بأن القطر المصري قد دخل أطواراً من النهضة شملت عدة مجالات إلا طور الجهاد بالنفس ولا شك أنه طور متقدم فهو يصل إلى حد التضحية بالنفس من أجل الشقيق المستعبد المحتاج للدعم وللنصرة.

ويواصل محمد رشيد رضا في مقاله: «حرب الريف أو الأندلس الجديدة، مساعدة منكوبها، وضروب من العبر فيها»، تعجبه من موقف جمعية الهلال الأحمر المصرية قائلاً: «قد إهتمت بإرسال بعثة طبية إلى جدة لمساعدة جيش الشريف علي بن حسين في قتاله للنجديين والحجازيين المشايعين لهم بالفعل (.....) ومساعدتها الحكومة المصرية على ذلك بجمع الإعانات من الأهالي ولكنها لم تتصدر لإرسال بعثة طبية إلى الريف وهو أشد احتياجاً إليها من جنود الشريف علي في جدة»².

كما بين رشيد رضا في إطار مجهوداته لدعم الريفيين أنه اقترح في اجتماع لجمعية الرابطة الشرقية أن تقوم هذه الرابطة بإرسال بعثة طبية إلى الريف وأن اقتراحه قد لاقى إستحساناً وأنها شكلت فعلاً لجنة لتحقيق ذلك، وقد نشرت عبر عدد من الصحف دعوات للتبرع ولكن الإستجابة لذلك لم تكن في المستوى فيقول رشيد رضا: «ولكننا لم نرى الإقبال عليها من الشعب كما يجب ولا كما يليق بصيت بلادنا هذه وبثروتها وبنجدها ولا كما يعهد من تاريخها»³.

1- نفسه، ص 691.

2- محمد رشيد رضا، حرب الريف أو الأندلس..... المصدر السابق، ص 218.

3- نفسه، ص 219.

6 - 2 / نداء جمعية الرابطة الشرقية لإعانة جرحى الريف في المغرب الأقصى:

كتب محمد رشيد رضا قائلاً: «لنكوبي الريف وجرحاهم في المغرب الأقصى على ما يعلم الجميع من عدم وجود الأطباء والجراحين والممرضين في تلك المنطقة ومن فقد للأدوات الطبية التي لا بد منها لمواساة الجرحى ومعالجتهم فكأن هذا الشعب المنكوب ليس من البشر فهو يقاسي جميع نكبات الحرب منذ سنين ولم يعطف عليه أحد من الشرقيين ولا من الغربيين»¹.

أبرزت الرابطة في بيانها أنه إذا كانت الجامعة الإنسانية تفرض على كل الشعوب مساعدة الريفيين فإن هناك روابط أقوى تجعل من الشرقيين أي العرب والمسلمين أولى بمساندة الريفيين كالجامعة الشرقية والجامعة الجنسية والجامعة اللغوية والجامعة الدينية، وها هي الجمعية العامة للرابطة الشرقية تبادر بجمع الإعانة والتبرعات لهؤلاء المنكوبين عندما وجد صعوبة في إرسال فرقة طبية لمنطقة الريف، كما أكدت الرابطة أنها «تنادي كل شرقي كريم الخيم رقيق القلب سخي النفس من مصري وسوري وعراقي وإيراني وهندي وجاوي وتركوي وقوقاسي وياباني وصيني، قائلة: «إن شعباً صغيراً من أكرم شعوبكم منبتاً، وأعزهم أنفساً وأسوئهم في الحياة حظاً، يعاني على فقره وقله ذات يده، حرباً عاتية يدافع فيها عن نفسه فيتجندل أبطاله في حومة الوغى بقذائف الطيارات والمدافع»².

كما نشرت المنار مقالة متميزاً حول حرب الريف، هو في أصله حديث أجرته جريدة الشورى الأسبوعية مع محمد بن عبد الكريم الخطابي في منفاه³ ونشرته بعض الصحف الغربية كما أنه يبرز خلاصة تجربة القائد الريفي.

عرف هذا المقال منذ بدايته تحاملاً كبيراً على الطرقية وكيف أنها أفسدت على المسلمين في الشرق والغرب أمور دينهم وديناهم «ولم يكفهم تشويه الإسلام بالبدع الذي يعد

1- نفسه، ص 219.

2- محمد رشيد رضا، حرب الريف أو الأندلس... المصدر السابق، ص 222.

3- نفي الأمير محمد بن عبد الكريم الخطابي إلى جزيرة لارينيون في المحيط الهندي حيث عاش أكثر من عشرين سنة، وبمناسبة تحويله إلى فرنسا 1947، استطاع بمساعدة عدد من أبناء المغرب الوطنيين مثل الحبيب بورقيبة وعلال الفارسي أن يهرب في بور سعيد ويدخل مصر، حيث سيبدأ مرحلة جديدة من النضال، للمزيد ينظر: مسعود معداد، المرجع السابق، ص 135.

كثيرا منها إرتدادا على الإسلام، بل صاروا أعوانا للفتحين السالبيين لملك المسلمين وأولياءهم على المسلمين»¹.

يبدأ محمد بن عبد الكريم حديثه موضحا أنه أراد أن يجعل من «الريف بلادا مستقلة كفرنسا وإسبانيا وأنه أنشأ فيها دولة حرة ذات سيادة، لا إمارة خاضعة لأحكام الحماية أو الوصاية»².

وهو بذلك يعلن منذ البداية أن هدفه الأساسي هو الإستقلال ورفض الإحتلال بمختلف أشكاله، ويتضح أن محمد بن عبد الكريم كان يدرك بخبرته ومستواه العلمي ما كانت عليه أوضاع مراكش عامة ومنطقة الريف خاصة من فوضى وانقسام داخلي إذ يقول: «فحاولت في بداية الأمر أن أفهم مواطني أنهم لا يستطيعون البقاء إلا إذا كانوا متضامنين كالبنيان المرصوص وعملوا بصدق وإخلاص على تأليف وحدة قومية من القبائل المختلفة الأهواء والنزعات، أي أردت أن يشعر مواطني بأن لهم وطنا كما لهم دين»³.

وبذلك أدرك محمد بن عبد الكريم الخطابي أهمية الإلتزام القومي والوطني. أما الإلتزام القبلي الذي كان يسود منطقة الريف في حينه كان عامل ضعف وانقسام يجب مواجهته قبل مواجهة المحتل. ثم وضع محمد بن عبد الكريم كيف أن تلقى انتقادا لأنه عند تفاوضه مع الإسبان والفرنسيين طالب بتحديد دقيق لمعنى الاستقلال فيها هو يقول: «انتقدي المنتقدون كثيرا لأني في مفاوضات (وجدة) طلبت بإلحاح تحديد معنى الاستقلال، فإن هذا التحديد كان ضروريا جدا لأن غرضنا كان الاستقلال الحقيقي الذي لا تشوبه شائبة، الاستقلال الذي يكفل لنا الحرية التامة في تعيين مصيرنا وإدارة شؤوننا الاستقلالية وعقد الاتفاقات والمحالقات التي نراها موافقة لنا»⁴.

ثم أبرز محمد بن عبد الكريم الخطابي كيف أنه وأخوه قد أطلقا سنة 1923 م على المناطق الخاضعة له إسم «جمهورية الريف» وإنه وإن اتخذ بعض الإجراءات المرتبطة، وقد ثبت أن ذلك لم يكن خطوة انفصالية من محمد بن عبد الكريم بقدر ما كان خطوة تكتيكية،

1- محمد رشيد رضا، جهل زعماء المسلمين ومفاسد أهل الطرق والشرفاء وكونها سببا لفشل زعيم الريف المغربي، المنار، م 27، ج 8، (05 نوفمبر 1926)، ص 630.

2- نفسه، ص 631.

3- نقلا عن محمد رشيد رضا، جهل زعماء المسلمين ومفاسد أهل الطرق....، المنار، ص 631.

4- نفسه، ص 631.

وقد ترافق إعلان جمهورية الريف مع بناء جهاز منظم سياسيا وعسكريا له علاقة وطيدة بالبنية الاجتماعية والاقتصادية لمنطقة الريف¹.

وليبرز عبد الكريم عدم تنكره للسلطات وعدم تطلعه لعرشه فقد منع أنصاره من الدعاء له في خطبة الجمعة كحاكم مستقل عن المغرب، وكانت بالفعل تجربة شذت عما سبقها من المقاومات. فقد أعلن الخطابى أن أهداف حكومته تتمثل في عدم الإعتراف بالحماية الفرنسية على المغرب وجلاء الإسبان وإقامة علاقة طيبة مع جميع الدول والإستعانة بالخبراء الأوربيين في بناء الدولة، وأنشأ إدارة استفاد فيها من علمه بالقانون والتشريعات ومد البرق والهاتف لتسهيل الإتصال، كما أرسل وفودا إلى العواصم العربية للحصول على تأييدها وطلب من فرنسا وبريطانيا والفايكان الإعتراف بدولته².

كما دعا محمد بن عبد الكريم الخطابى إلى وضع دستور تلتزم به الحكومة، وتم تشكيل مجلس عام عرف باسم (الجمعية الوطنية)، كان أول قراراته إعلان الإستقلال الوطنى وتأسيس حكومة دستورية لقيادة البلاد، وقد أثبت المؤرخ جرمان عياش في كتابه أصول حرب الريف تلك التبعية والولاء للعرش عندما قام بنشر لائحة بأسماء عمال مخزنيين تمتد من 1900 إلى 1935 تشهد عن وجود ممثلين عن المخزن في الإقليم³.

لكن ولسوء الحظ، يرى ابن عبد الكريم أنه لم يفهمه «غير أفراد قلائل يعدون على أصابع اليدين، بل كان أخلص أنصاري وأكثرهم علما وذكاءا يعتقدون أنى بعد إحراز لنصر سأترك لكل قبيلة حريتها التامة مع علمهم بأن ذلك يعيد البلاد إلى أشد حالات الفوضى والهمجية»⁴.

إلا أن محمد بن عبد الكريم وفي ذكره لهاته العوامل والأسباب التي أفشلت مقاومته يعتبر أن أخطرها على الإطلاق هو التعصب الديني، وعن ذلك تحدث وقال: «وكان التعصب الديني أعظم أسباب فشلي إن لم أقل إنه السبب الوحيد، لأن مشايخ الطرق أعظم نفوذا في

1- محمد سلام أمزيان، المرجع السابق، ص 72.

2- عبد العزيز خلوq التسماني، مقالات ووثائق حول تاريخ المغرب المعاصر، ط1، منشورات سليكي إخوان، الرباط، 1981، ص 92.

3- نفسه، ص 93.

4- نقلا عن محمد رشيد رضا، «جهل زعماء المسلمين ومفاسد أهل الطرق...»، المصدر السابق، ص 631.

الريف منهم في المغرب الأقصى وفي سائر بلدان الإسلام، وكنت عاجزا عن العمل من دونهم ومضطرا إلى إلتماس مساعدتهم كل حين»¹.

ويبدو أن محمد بن عبد الكريم كان يقصد بالتعصب الديني تلك السلطة الروحية التي كانت تتميز بها بعض الطرق الدينية أو الأسر الكبيرة في منطقة الريف، والتي تضمن لهم وجود نوع من التبعية الروحية لدى الكثير من أبناء القبائل.

ثم أكد الخطابي إدراكه وقناعته بأن الإسلام ليس دين تعصب، حيث: «والحقيقة أن الإسلام عدو التعصب والخرافات وأنا أعرف من قواعده ما يجعلني أؤكد للملأ أن الإسلام الذي أعرفه في المغرب والجزائر بعيد جدا عن الإسلام الذي جاء به النبي العظيم»².

ويبدو أنه يقصد في ذلك الإختلاف، ما كانت عليه الكثير من الطرق الصوفية غير المنخرطة في مقاومة الإحتلال، والإنتشار الواسع لكثير من البدع والخرافات والتي كان للجهل والإحتلال دور في توسعها وانتشارها ورفضها المتواصل لفكرة التجديد والإصلاح الديني خوفا من أن يهز ذلك تلك السلطة الروحية التي كانت تعيش وتحكم المجتمع من خلالها.

ثم يبرز الخطابي كيف أن هنالك ممن يدعي أنه من السلالة النبوية خطأ أو صوابا وأنهم يستغلون ذلك لأغراضهم الشخصية فجعلوا من أنفسهم «... طرقا دينية حولوها إلى جيش منظم لخدمة أغراضهم الشخصية، مع أن الإسلام أبعد ما يكون عن تقديس الأشخاص»³.

فيما أن الإسلام يدعو إلى الإخاء والإتحاد لا سيما في وجه العدو ويؤكد واجب التضحية في سبيل الله والوطن، قائلا: «مع أن الإسلام أبعد ما يكون عن تقديس الأشخاص لأنه يأمر بالإخاء والإتحاد في وجه العدو ويحض على الموت في سبيل الحرية والإستقلال لكن مشايخ الطرق ورؤساء الدين عبثوا بكتاب الله وسنة رسوله إرضاء لشهواتهم وسدا لأطماعهم ولم يشتركوا في الثورة بحجة أن القتال في سبيل الوطن لا يعينهم وأنهم لا يقاتلون إلا في سبيل الله»⁴.

1- نفسه، ص 631.

2- نقلا عن محمد رشيد رضا، جهل زعماء المسلمين ومفاسد أهل الطرق...، المصدر السابق، ص 632.

3- نفسه، ص 632.

4- نفسه، ص 633.

وكل ذلك يوضح صعوبة الوضع السياسي والإجتماعي والفكري الذي كان يواكب بعض حركات المقاومة وعلى رأسها المقاومة الريفية مما كان يستدعي العمل على عدة جهات لإصلاح المجتمع لإنجاح الفعل العسكري المقام للمحتل وإبراز أن الفعل العسكري ليس الهدف بحد ذاته.

وختم الخطابي حديثه مع جريدة (الشورى): «وخلاصة القول أني جئت قبل الأوان للقيام بمثل هذا العمل، ولكني موقن بأن آمالي ستتحقق كلها عاجلا أو آجلا بحكم الحوادث وتقلبات الأحوال»¹.

خاتمة:

من خلال ما سبق، نخلص إلى ما يلي:

- لقد أكدت المنار بتغطيتها بتتبعها لحرب الريف وقضايا المغرب بشكل عام أنها فعلا من أكثر الصحف اهتماما وتناولا لقضايا هذه المنطقة من بين الصحف العربية والإسلامية في حينه، وهو ما يفسر الجماهيرية والاحترام الذي حظيت به هذه المجلة في الجزء الغربي من الوطن العربي في وقت حارب فيه الاستعمار الصحافة العربية والإسلامية.

- أكدت الكتابات حول الريف وغيرها، مدى اهتمام كتاب بارزين وأقلام مشرقية بارزة على غرار أمير البيان شكيب أرسلان بقضايا المغرب العربي في وقت كان الاستعمار يريد فيه سلخ هذا الجزء من الوطن العربي والعالم الإسلامي عن امتداده الحضاري والتاريخي.

- إن وجود مقالات كاملة وطويلة حول شخصية محمد بن عبد الكريم الخطابي ومقاومته وبأقلام مختلفة تؤكد ثقل هذه الشخصية في تلك المرحلة واستقطابها للأضواء في العالمين الشرقي والغربي على السواء، وأن حرب الريف لم تكن حدثا عابرا بقدر ما كانت حدثا حظي بالكثير من الاهتمام الإعلامي.

- لقد شغل الريفيون بانتصاراتهم الكبيرة على أكبر القوى الاستعمارية آنذاك أذهان وأفواه وأقلام الكثير هنا وهناك، فكانت بذلك من أكثر الأحداث المغربية التي فرضت نفسها

1- نفسه، الصفحة نفسها.

على الصحافة ونقاشاتها ولم تكن المنار لتشد عن هاته القاعدة وهي التي كانت واحدة من الصحف الأكثر انتشارا والأكثر تناولا للقضايا المثيرة في العالمين العربي والإسلامي.

الذكرى المئوية لمعركة أنوال الخالدة

هذا الكتاب

إن موضوع معركة أنوال وحركة ابن عبد الكريم، يسائل فعلا تاريخيا راهنيا في وجدان الريفيين والمغاربة وذاكرتهم، كما يفتح الباب أمام مغرب اليوم بتحدياته وتموجاته لاستخلاص العديد من الدروس والعبر في الممانعة وتحصين الهوية الحضارية للمجتمع المغربي.

ولعل مما يجعل للوقوف عند هذا الحدث/ الذكرى معنى، تلك السمات التي تضررت بها حركة محمد بن عبد الكريم الخطابي والتي جعلتها تستحق وقفات للدراسة والتحليل، فإلى جانب كونها مرجعا للعديد من حركات التحرر في العالم، فقد زاوجت في منهجها بين العمل السياسي والكفاح المسلح المنظم، فصارت بذلك نموذجا مؤسسا في المقاومة، سواء في شكلها المسلح أو السياسي الدبلوماسي. وأمام هذه الأهمية وهذا التمييز يطرح التساؤل حول حظ حركة محمد بن عبد الكريم الخطابي ومعركة أنوال من البحث التاريخي.